قررت وزارة المعارف العمومية استعمال هذا الكتاب بمدارسها

تاريخ العصور الوسطى

فى الشرق والغرب

للسنة الثانية الثانوية

تأليف

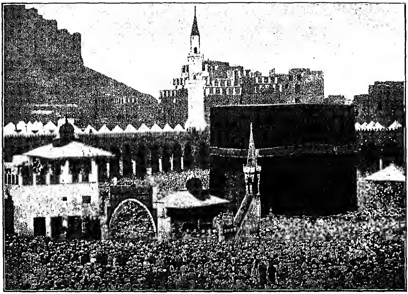
الدكتور حسن ابراهيم حسن
دكتور فى الفلسفة ودكتور فى الآداب (لندن)
أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب

و

احمد صادق الطنطاوى
دبلوم المعلمين العليا وليسانسيه الحقوق الملكية
مدرس التاريخ بالمدرسة السعيدية

الطبعة الثانية — سنة ١٩٣٣

دار الطباعة الأهلية ٦٤ شارع الفجالة بالقاهرة



صورة الـكعبة والحرم المكى

فهرست

فهرس الخرائط والصور

الباب الأول

حالة أوربا والشرق قُبَيل ظهور الاسلام

الفصـــل الأول

الدولة الرومانية الشرقية

إتسعت أملاك الدولة الرومانية حتى امتدت حدودها فى القرن الثالث الميلادى من نهر الفرات شرقا الى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن الصحراء الكبرى جنوباً إلى نهرى الدانوب والرين شمالا .

وقد رأى الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) أن الحكومة المركزية في رومة لا تستطيع أن تدير شئون الدولة وتدافع عن حدودها المترامية ، فقسم الامبراطورية إلى أربعة أقسام . إلا أن هذا التقسيم قد أدى إلى إضرام نار الحسد والبغضاء بين الحكام والقواد ، وكان الأمر يتطلب الانفاق على أربع حكومات ، لكل منها حاكمها وجيشها وموظفوها ورجال بلاطها .

وفى سنة ٣٣٠ م أسس الامبراطور قسطنطين على ساحل البسفور بجوار بيزنطة Byzantium (القرية الاغريقية القديمة) مدينة سماها القسطنطينية نسبة إليه ، واتخذها مقراً لدولته . وقد سار قسطنطين ومن جاء بعده من الأباطرة على سياسة دقلديانوس ، فقسم الدولة الرومانية ستة أقسام . فلما جاء تيودوسيس Theodosius لم يعتبر بما جرته سياسة التقسيم من التنافس والاضطراب وانتشار الفوضى ، فقسم الامبراطورية قبل وفاته سنة ٣٩٥ م

بين ولديه اركاديوس Arcadius وهونوريوس Honorius ، فجعل أولهما على الدولة الشرقية ومقر ملكه القسطنطينية ، وثانيهما على الدولة الغربية ومقر ملكه رومة . مما أدى إلى ضعف الدولة الرومانية وعجل بسقوط رومة حاضرة الدولة الغربية .

ومما ساعد على سقوط الدولة الغربية عيشة الترف التى عاشها الرومان على أثر اتساع رقعة أملاكهم وازدياد ثروتهم، واعتمادهم على أسرى الحروب فى الزراعة والصناعة ، واستخدامهم الجند المرتزقة من القبائل المتبربرة فى حروبهم ، فكان هؤلاء الجنـــد المعول الذى قوّض أركان الدولة الغربية . فقد ساءت حالة المجتمع وفسدت الأخلاق وضعفت الروح الحربية . ومن ثم أصبحت هذه الدولة من الضعف بحيث لم تقو على صد هجمات القبائل المتبربرة التى كانت تغير على حدودها الشمالية طمعاً فى أراضيها الغنية ، فأدى ذلك إلى سقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدى تلك القبائل.

ومن بين هذه القبائل « الوندال » Vandals الذين أغاروا على اسبانيا سنة ٤٠٩ م وظلوا بها الى سنة ٤٢٩ م حيث أجلاهم القوط الغربيون إلى شمال إفريقية ، وأقام الوندال دولة لهم فى البلاد التى تعرف الآن باسم طرابلس والجزائر . ومن هذه القبائل القوط الغربيون Visigoths الذين أغاروا أولا على إيطاليا ثم انتقلوا منها الى اسبانيا حيث أقاموا دولة بها سنة ٤٢٩ م بعد أن طردوا الوندال منها . وكذا «الفرنجة» Franks الذين أغاروا على جزء كبير من بلاد غالة (فرنسا الحالية) وأقاموا دولة لهم أيضاً هناك (سنة ٤٨٥ م).

أما ايطاليا فقد توالت عليها غارات القوط الذين نهبوا رومة سنة ٤١٠ م واستطاع ادوكر Odoacer أحد القواد من القوط فى جيش الدولة الرومانية أن يعزل الامبراطور روميولس أوغسطس Romulus Augustus وينادى بنفسه حاكما على ايطاليا سنة ٤٧٦ م بالرغم من اعترافه بسيادة امبراطور الدولة الرومانية الشرقية . وقد انتهى بذلك حكم الأباطرة الرومان فى الغرب

وزالت سيادة رومة التى دوخت العالم عهداً طويلا . وفى سنة ٤٨٩ م أغار القوط الشرقيون Ostrogoths على ايطاليا بقيادة تيودوريك Theodoric وأنشأوا لهم دولة بها .

أما الدولة الشرقية فقد احتفظت بكيانها زهاء ألف سنة بعد سقوط رومة . ومما ساعد على ذلك مناعة حصون القسطنطينية ووفرة خيرات البلاد التى تحت سلطانها ، مثل آسيا الصغرى والشام ومصر التى كانت تمدها بما تحتاج اليه من مال وجند ومؤن .

وقد ظل أباطرة القسطنطينية يعتبرون أنفسهم ملوكا على الغرب أيضاً بالرغم من سقوط الدولة الرومانية الغربية ، ولا سيما بعد أن اعترف ادوكر بتبعيته إلى زينو Zeno امبراطور القسطنطينية وحكم ايطاليا من قبله .

وقد توالى على عرش الدولة البيزنطية فى القرن الخامس وأوائل القرن السادس أباطرة ضعفاء انتشرت فى أيامهم الفوضى والانقسامات الداخلية ، كما شغلوا بمحاربة الفرس فى الشرق والقبائل الصقلبية Slavs وغيرها التى كانت تهدد حدود الدولة الشمالية .

على أن هذه الحالة لم تدم طويلا . فقد خلف هؤلاء طائفة صالحة من الأباطرة الأكفاء ، نخص بالذكر منهم جستنيان Justinian ثم هرقل Heraclius .

جستنيان ٥٢٧ — ٥٦٧ م

كان الغرض الأول الذى ترمى اليه سياسة هذا الامبراطور إعادة مجد الامبراطورية الرومانية والعمل على استرداد ممتلكاتها القديمة .

سياسته الداخلية

عنى جستنيان بالمحافظة على تراث الرومان ، فوحد القانون الرومانى وكانت مصادره متشعبة تقع فى أربعين مجلداً ، مما أدى إلى وقوع الخلاف

بين القضاة والمحامين فى المرافعات وفى إصدار الأحكام . وأمر بتكوين لجنة برياسة مستشاره تريبونيان Tribonian عهد اليها بجمع القوانين والأحكام وشروح المشرعين .

وقد وضعت اللجنة مجموعة الفتاوى Pandects وجمعتها من أقوال خمسمائة من الفقهاء الرومان ، كما دونت مجموعة المراسيم التى صدرت من عهد قسطنطين ، وأطلق عليها قانون جستنيان Justinian Code ، ووضعت مختصراً للأحكام ليستعين به الطلاب على دراسة القانون ، وسمى هـــذا المختصر مبادىء قانون جستنيان Justinian Institutes .

وخدم جستنيان العالم بهذا العمل الجليل . فقد سنت معظم الدول الحديثة قوانينها وفقاً لمبادىء القانون الروماني الذى يرجع لجستنيان الفضل فى المحافظة عليه .

واهتم جستنيان بعد ذلك بفن العمارة . وقد تجلت هذه العناية فى بناء القصور الفخمة والكنائس . فقد بنى فى القسطنطينية وحدها خمسا وعشرين كنيسة ، أهمها كنيسة القديسة صوفية (أيا صوفيا) ، وجمع لتزيينها كل ما كانت تتحلى به المعابد الوثنية القديمة من المعادن الثمينة والمرمر والفسيفساء Mosaic حتى غدت أعجوبة الفن البيزنطى . كما شيد القناطر المقامة على أعمدة Aqueducts فى كافة أنحاء الامبراطورية لتوصيل الماء إلى الأماكن البعيدة عن الأنهار ، وأصلح الطرق وأقام الجسور وشيد الحصون والقلاع على حدود الدولة .

وفى عهد جستنيان كثرت الخلافات الدينية . وكان يدين بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى(١) ، فاضطهد كل الخارجين على هذا المذهب من

(١) المذهب الارثوذكسى (Orthodox) (ومعناه الدين القويم) ، ويقول أتباعه بأن المسيح أشرف مخلوق ولكنه ليس إلها .

الكاثوليك(١) والوثنيين على السواء . وبلغ من اضطهاده الوثنيين أن أغلق جميع مدارس أثينا سنة ٥٢٩ م ، ففر أساتذتها إلى بلاد فارس . وقد أدت هذه السياسة إلى وقوع الفوضى والاضطرابات فى البلاد ، ففى سنة ٥٣٤ م قامت فى القسطنطينية ثورة بلغ من شدتها أن فكر جستنيان فى الفرار لولا زوجه تيودورا Theodora التى أثارت فى نفسه روح الشجاعة والثبات ، فأنفذ جستنيان **قائده** بلزاريوس Belisarius على رأس حرسه ، فباغت الثوار فى الملعب Circus وأخمد الفتنة .

سياسته الخارجية

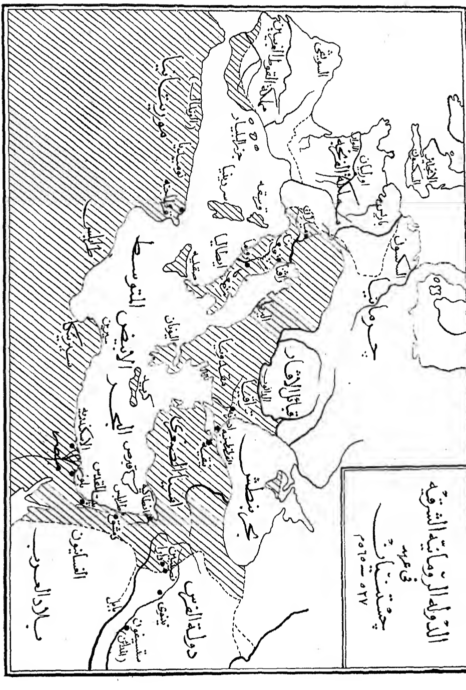
بعد أن قضى جستنيان على الفتن الداخلية وجه همته للفتوح فى الغرب لاسترداد بلاد الامبراطورية الرومانية الغربية .

(١) الحروب فى الغرب : — فأرسل سنة ٥٣٤ م قائده بلزاريوس على رأس جيش يبلغ عشرين الف مقاتل وأسطول مؤلف من خمسمائة سفينة إلى شمال إفريقية واستولى عليها من الونداال . وفى السنة التالية احتل بلزاريوس جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، كما تغلب على القوط الشرقيين فى ايطاليا .

وقد أثارت انتصارات بلزاريوس حقد رجال البلاط عليه ، فاستدعاه الامبراطور قبل أن يتم فتح إيطاليا . فانتهز القوط هذه الفرصة واستردوا معظم ما فقدوه من البلاد . فأرسل اليهم جستنيان قائده نارسس Narses سنة ٥٥٤ م ، فأعاد فتح ايطاليا . وفي سنة ٥٥٥ م سير جستنيان جيشا آخر الى بلاد أسبانيا فاستولى على الجزء الجنوبى الشرقى منها .

(٢) الحروب فى الشرق : — كان ملوك الفرس يطمعون في امتلاك سوريا ليتخذوا منها مرافئ على البحر الأبيض المتوسط . لذلك كانوا فى عداء

(١) وهم أتباع المذهب الكاثوليكى (Catholic) (وهو مذهب الكنيسة الجامعة أى كنيسة روما) ويقول أتباعه ان المسيح من روح الله ، وانه يساويه فى اللاهوت (المادة الالهية) وأن العلاقة بينهما أزلية . وهو مايعبر عنه بمبدأ التثليث


الدولة الرومانية الشرقية
في عهد
جستنيان
٥٢٧ — ٥٦٥م
البحر الأبيض المتوسط
دولة الفرس
بلاد العرب
البحر الأسود

مستمر مع البيزنطيين . وفى سنة ٥٢٨ م وقعت الحرب بين الفريقين ، فوجه جستنيان الى حدود بلاد الفرس جيشا بقيادة بلزاريوس، فانتصر على الفرس فى عدة مواقع ونال شهرة كبيرة فى تلك الحروب . فعمل الفرس على تقوية جيشهم وهددوا الدولة البيزنطية فى عهد ملكهم خسرو الأول (٥٣١-٥٧٨م). فاضطر جستنيان أن يتقى خطرهم وصالحهم على أن يدفع اليهم جزية سنوية .

وقد انتهز خسرو الأول فرصة اشتغال جيوش جستنيان فى ايطاليا ، فاستولى على أرمينية ، كما أغار على سوريا سنة ٥٤٠ م واستولى على انطاكية . فاستدعى جستنيان قائده بلزاريوس من ايطاليا فحال دون تقدم الفرس ، إلا أنه لم يستطع أن يسترد أرمينية . وفى سنة ٥٤٤ م حاصر الفرس مدينة الرها من أمهات المدن الواقعة على حد الدولة الرومانية الشرقية ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وانتهت الحرب بعقد هدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات .

أثر سياسة جستنيان. — لقد تطلبت الحروب التى خاض غمارها جستنيان فى الغرب والشرق ، ومبانيه الفخمة ، وغلوه فى الترف وأبهة البلاط أموالا كثيرة ، مما أدى إلى زيادة الضرائب زيادة أثقلت كاهل الأهلين . وقاست البلاد الأمرين فى أواخر عهده بسبب هذه السياسة التى جرت الخراب على الدولة . ومما زاد هذه المصائب انتشار الوباء فى سنة ٥٤٢ م فهلك أكثر من ثلث سكان الدولة البيزنطية .

هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م)

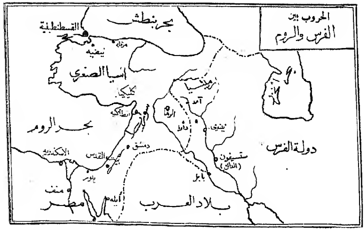
اشتد ضعف الدولة البيزنطية بعد وفاة جستنيان. فعاود الصقالبة الاغارة عليها وتوغلوا فى بلادها حتى وصلوا الى بلاد اليونان وهددوا القسطنطينية نفسها . وعادت الحرب بين الروم والفرس سيرتها الأولى . وقد توالى على عرش الدولة البيزنطية أباطرة ضعفاء نذكر من بينهم الامبراطور فوكاس

وكان من أسوأ أباطرة الدولة البيزنطية سيرة ، فقد بدد أموال الدولة على مآربه الخاصة وأرهق الرعية ، فثاروا عليـــه واستنجدوا بهرقل حاكم افريقية الذى أرسل اليهم ابنه هرقل الصغير فى أسطول وجيش ، فاستولى على القسطنطينية . وقابله الشعب مقابلة المنقذ وأقاموه امبراطورا عليهم . وقُبض على فوكاس وحوكم ثم أعدم سنة ٦١٠ م .

وكانت الأخطار تحيط بالدولة البيزنطية من كل جانب حين اعتلى هرقل العرش . فقد احتل الصقالبة كثيراً من بلاد البلقان ووصلوا الى أبواب القسطنطينية ؛ كما فتحت جيوش خسرو الثانى ملك الفرس مدن انطاكية ودمشق وبيت المقدس سنة ٦١٤ م ، واستولوا على الصليب المقدس (وهو الصليب الذى يعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام صلب عليه) وأرسلوه إلى المدائن Ctesiphon (عاصمة فارس) ، وفتحوا مصر أيضاً .

وكانت خزانة الدولة البيزنطية خالية من المـال اللازم للدفاع عن البلاد ، فاستولى اليأس على هرقل وحاول الهرب من القسطنطينية والعودة الى افريقية . فلما علم بطريرق القسطنطينية بذلك حثه على الثبات والتذرع بالصبر ، ووضع تحت تصرفه أموال الكنيسة . فقويت آمال هرقل وأقسم ليرجعن الصليب المقدس إلى أورشليم (بيت المقدس) . ومن ذلك الوقت سرت في نفسه روح جديدة من الاقدام والشجاعة رفعته الى مستوى كبار القواد والأباطرة .

وسرعان ما أخذ هرقل يعد العدة للقتال . وقد تجنب فى السنين الأولى من حكمه الاشتباك مع الفرس فى مواقع حاسمة حتى يقوى جيشه . وفي سنة ٦٢٣ م زحف هرقل بجنده على بلاد الجزيرة وانتصر على الفرس فى موقعة نينوى سنة ٦٢٧ م ، كما استردت جيوشه بلاد سوريا ومصر . وفى الوقت الذى كان يخاطر فيه هرقل بجيوشه في قلب بلاد فارس ويهدد عاصمتها (المدائن) سنة ٦٢٨ م كانت جيوش خسرو الثاني تتقدم في آسيا الصغرى وتهاجم البسفور . وكادت القسطنطينية تقع فى أيديهم لولا أن قامت ثورة



فى بلاد الفرس خلع على أثرها خسرو الثانى وقتل . وتولى ابنه كافاذ الثانى الذى أسرع إلى مصالحة هرقل . وأعيد الصليب المقدس إلى القسطنطينية ثم أرسل الى أورشليم باحتفال عظيم . ولا يزال المسيحيون فى الشرق يحتفلون بهذه الذكرى الى اليوم (مهرجان إعلاء الصليب) .

وقد أنقذ هرقل الدولة البيزنطية من الخراب وأعاد حدودها الى ما كانت عليه من قبل . على انه ما كاد يخلص بلاده من خطر الفرس حتى فاجأه خطر جديد من ناحية الدولة العربية التى قامت على أثر ظهور الاسلام كما سيأتى .

الفصـــــل الثانى

حالة الفرس قبيل ظهور الاسلام

انقسمت بلاد الفرس بعد الاسكندر إلى أقسام كثيرة ، وظلت على ذلك إلى أن جاء أردشير بن بابك Ardashir من سلالة ساسان سنة ٢٢٧ م . ووحد بلاد الفرس وأسس الدولة الساسانية . وقد أراد أردشير أن يربط بلاده برباط متين من الدين ، فاعتنق دين زَرَدُشت الذى يدعو إلى عبادة الله والكفر بالشيطان . والنور عندهم رمز الله ، كما أن الظلمة رمز للشيطان . ومن هنا قدس الفرس النار وعبدوها .

وكان آل ساسان يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ، وأن من حقهم وحدهم أن يكونوا ملوكا . لذلك كانت حكومتهم ملكية مطلقة يقدسها الشعب . وقد عملوا كل ما فى استطاعتهم للتأثير فى رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكى المقدس .

وقد تقدمت الدولة الفارسية فى عهد آل ساسان تقدماً سريعاً ، حتى أصبحت خطراً على تخوم الدولة البيزنطية . ففى عهد سابور الثاني Sapor II. (٣٠٩ — ٣٧٩ م) استولى الفرس على الرُّها ونَصيبين . ثم جاء كافاذ الأول فمد نفوذ الفرس إلى حدود الشام . فأرسل جستنيان قائده بلزاريوس فوقف تقدم الفرس وانتصر عليهم على ضفاف الفرات .

خسرو الاول (٥٣١ - ٥٧٠ م) :— ومن أشهر ملوك آل ساسان خسرو الأول Chosroes I. ويلقب أنو شروان Nu-Shirwan . وقد اشتبك مع جستنيان فى عدة حروب انتهت باتساع رقعة الدولة الفارسية . وكان خسرو الأول ملكا مستنيراً عادلا ، سن القوانين ونظم الضرائب ، فانتشر الأمن والرخاء فى أيامه ، كما اشتهر بالتسامح الدينى وحب العلم . وقد أحسن وفادة الفلاسفة الاغريق الذين طردهم جستنيان من بلاده .

وبلغ من عطفه عليهم أن اشترط في عقد الصلح مع جستنيان على أثر انتصاره عليه سنة ٥٤٩ م أن يسمح لهؤلاء الفلاسفة بالعودة إلى أثينا وأن لا يتعرض لحريتهم الدينية . وقد أسس أنو شروان مدرسة للطب ، وشجع العلماء على ترجمة الكتب من الاغريقية والهندية إلى الفارسية ، فمدحه العلماء ولقبوه بالملك الفيلسوف .

وفى عهد أنو شروان حرض جستنيان الأحباش على فتح بلاد اليمن الغنية بتجارتها والتى كانت مفتاح طريق التجارة البيزنطية مع الشرق فى ذلك الحين . وكان على اليمن ملك اسمه ذونواس، اعتنق اليهودية واضطهد المسيحيين فى بلاده. فأثار بذلك سخط الأحباش والبيزنطيين . فأرسل النجاشى (ملك الحبشة) جيشاً بقيادة أرياط استولى على اليمن سنة ٥٧٠ م . وبقيت هذه البلاد تحت سيادة الأحباش إلى أن أغار عليها الفرس سنة ٥٧٨ م فدخلت تحت حكمهم .

خسرو الثانى (٥٩٠ - ٦٢٨ م) :— هو حفيد أنو شروان . وقد دارت بينه وبين هرقل حروب طويلة كان النصر فيها أول الأمر لجيوش الفرس ، ففتحوا سوريا ومصر وهددوا القسطنطينية . ثم دارت الدائرة على الفرس بانتصار هرقل فى موقعة نينوى سنة ٦٢٧ م وقيام الثورة التى انتهت بخلع خسرو الثانى سنة ٦٢٨ م وقتله .

وخلف خسرو الثانى ملوك ضعفاء انتقلت حالة البلاد فى عهدهم من سيء إلى أسوأ ، فسقطت هيبتهم فى أعين الأهلين . ولا عجب فقد كان الفرس يقدسون ملوكهم ويعتقدون أن فى طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً طالما كان هؤلاء الملوك يعملون على ما فيه مصلحة بلادهم . فلما توالت عليهم الهزائم وحلت النكبات ، تزعزع اعتقاد الفرس فى ملوكهم . فكثرت الثورات والفتن ، واستبد رجال البلاط بتعيين الملوك وعزلهم .

هكذا كانت حالة بلاد الفرس من التفكك والضعف حين اعتلى عرشها يزدجرد الثالث الذى سقطت فى عهده دولة آل ساسان فى يد العرب كما سيأتى .

الفصل الثالث

حالة العرب قبيل ظهور الاسلام

العرب من الجنس السامى ، يرجعون فى أصلهم الى شعبين عظيمين هما قحطان وعدنان . فالقحطانيون أقوام نزحوا من شرق الفرات واستوطنوا حضرموت واليمن فى جنوب شبه جزيرة العرب . وقد عرفوا كيف يستفيدون من مياه السيول ، فأقاموا سد مأرب لحجز الماء للانتفاع به وقت الحاجة . ولهذا قامت فى بلاد اليمن دول كثيرة اشتهرت بمدنها العامرة ومدنيتها العظيمة ؛ نخص بالذكر منها مملكة سبأ التى ورد ذكرها فى التوراة والقرآن . وقد بلغ من ثروة هذه البلاد ان أطلق عليها « بلاد العرب الخضراء » أو « البلاد السعيدة » .

وأما شعب عدنان فقد استوطن مكة وما جاورها من أرض الحجاز . ويرجع نسبهم الى اسماعيل بن ابراهيم الذى جاء الى مكة و بنى بها الكعبة . ومن عدنان تناسلت قبائل كثيرة ، منها قبيلة كنانة التى تفرعت منها قريش .

ولما كانت معظم بلاد العرب صحراوية قاحلة قليلة الخيرات ، فقد عاش معظم أهلها فى حالة البداوة . وكثرت المنازعات بين القبائل على موارد الرزق فيها من المراعى والماء ، فاضطروا الى الدفاع عن أنفسهم ، وامتازوا بالشجاعة وحب القتال . وقد عاش العرب مستقلين فى مأمن من غارات الفاتحين ، لم تجرؤ أية دولة أن تغامر بجيوشها في بلادهم الجرداء ، اللهم إلا إذا استثنينا بلاد اليمن الغنية التى غزاها الأحباش سنة ٥٧٠ م بقيادة أرياط .

وقد بنى أبرهه أحد أمراء الأحباش (الذى ولى بلاد اليمن بعد أرياط) كنيسة فخمة فى صنعاء حاضرة اليمن لتحويل الحج من مكة إليها ، فدخل أحد الأعراب الكنيسة وأتلف بعض تحفها فأقسم أبرهه ليهدمنّ الكعبة فسار إلى مكة سنة ٥٧١ م على رأس جيش كثيف فى مقدمته عدد من

الفيلة للاستعانة بها فى هذه الموقعة ، فتفشى الجدرى والحصبة فى جنوده وعاد منهزماً. وقد سام أبرهه ومن جاء بعده من الولاة أهل بلاد اليمن الخسف وسوء العذاب وظلوا على ذلك حتى استنجد سيف بن ذى يزن (أحد زعماء اليمن) بكسرى أنو شروان فأمده بجيش من الفرس انضم إليه كثير من أهل اليمن وقضوا على سيادة الحبشة سنة ٥٧٨ م . ومن ثم دخلت هذه البلاد تحت سيادة الفرس .

وقد تمتع العرب بالحرية المطلقة ، وظلت قبائل متفرقة متنافرة لا تخضع لحكومة مركزية مما أدى الى انعدام الوحدة السياسية بينهم . وكان لكل قبيلة رئيس منهم هو شيخ القبيلة . وكان رؤساء القبائل العظيمة ملوكا غير متوجين ، تأتمر القبيلة بأمرهم وتخضع لهم القبائل الضعيفة .

على أنه قد وجد فى الجهات المتحضرة ملوك متوّجون ، من بينهم ملوك اليمن وملوك الغساسنة على حدود الشام والمناذرة فى أطراف العراق .

سيادة قريش : — كانت القبائل العربية تقدس الكعبة وتحج اليها فى كل عام . وكانت أشهر الحج حرما لا يحل فيها القتال ، يقيمون فيها أسواقهم السنوية حول الحرم (كسوق عكاظ وذى المجاز) . وكانت قبيلة قريش تقيم بجوار الكعبة تحميها وتقوم بخدمتها ، فاصبح لها احترام خاص فى نفوس كافة القبائل .

وقد وجه القرشيون عنايتهم الى التجارة ، فاتصلوا بغيرهم من الأمم المتمدينة . وكان لذلك الاتصال أثر كبير فى رقيهم الفكرى . واشتهرت قريش بإكرام الضيف ، فلهجت بمحامدهم ألسنة الشعراء .

وقد ظهر فى قريش قُصَىّ بن كلاب ، وهو الجد الخامس للنبى عليه الصلاة والسلام . وكانت اليه ولاية البيت الحرام (الكعبة) ، فعمل على جمع شتات القرشيين وتوحيد كلمتهم . ومن مآثر قصى تأسيسه دار الندْوة بمكة ، وكانت مجمع قريش ، وفيها تفصل مهام أمورها ، كما كان له من مظاهر الرياسة

« اللواء » . فكانت لا تعقد راية الحرب الا بيده ، و « الحجابة » . فلا يفتح باب الكعبة الّا هو ، و « سقاية الحج ورفادته » . أما السقاية فهى تلك الأحواض التى كانت تملؤها قريش للحجاج وتحليها بشيء من التمر والزبيب . وأما الرفادة فهى طعام كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة . وبذلك آلت الى قصى السيادة فى مكة .

الحالة الدينية : كان السواد الأعظم من العرب وثنيين يعبدون الأصنام. وقد أقاموا حول الكعبة ثلثمائة وستين صنما ، لكل قبيلة صنمها الخاص ، وصوراً لابراهيم والمسيح عليهما السلام ، وتمثال هُبَل صنم قريش ، وهو من العقيق ، والحجر الأسود .

وقد انتشرت المسيحية فى بلاد العرب فى القرن الرابع الميلادى عن طريق سوريا وبلاد الحبشة ، كما كان لليهودية بهذه البلاد أشياع وأتباع كثيرون . وظهر بين العرب قبيل الاسلام رجال من العقلاء الأذكياء حاولوا التخلص من الخرافات الوثنية وأحسوا بالحاجة إلى تغيير هذا الدين ، فنبذوا الوثنية واعتنقوا دين التوحيد، وهو دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام. ومن هؤلاء أمية ابن أبى الصّلْت وورَقَة بن نَوْفل وقُسّ بن ساعدة خطيب العرب فى ذلك العصر ، وكانوا يعتقدون بإله واحد ويؤمنون بالبعث .

وقد مهدت الافكار المسيحية واليهودية الطريق لظهور المصلح المنتظر ، وهو النبى محمد عليه الصلاة والسلام .

الباب الثانى

تاريخ العرب فى الاسلام

الفصل الأول

ظهور سيدنا محمد — البعثة النبوية والغزوات

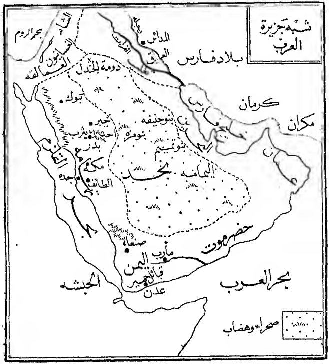
ظهور سيدنا محمد :— ولد النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فى ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ م، وهى السنة التى أغار فيها الأحباش على مكة لهدم الكعبة وتحويل الحج إلى الكنيسة التى أقاموها فى صنعاء.

وقد نشأ عليه السلام من أبوين فقيرين فى مالهما غنيين فى جاههما وحسبهما. أما أبوه فهو عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصى. من قبيلة قريش صاحبة السيادة فى مكة. وأما أمه فهى آمنة بنت وهب ابن عبد مناف، وهى قرشية أيضاً. وتربى عليه السلام يتيما، اذ مات أبوه قبل أن يولد، وتوفيت أمه وهو فى السادسة من عمره فكفله جده عبد المطلب زعيم قريش، ولكنه توفى وهو فى التاسعة من عمره. فكفله عمه أبو طالب، وعهد فى إرضاعه وتربيته إلى امرأة بدوية تسمى حليمة، فنشأ بين البدو بليغاً فصيحاً.

وبعد موت عمه أبى طالب اشتغل عليه السلام برعى الأغنام على تلال مكة، ثم اشتغل بالتجارة مع بلاد الشام، فاكتسب كثيرا من الشجاعة والبسالة لحاجة التاجر فى ذلك الوقت لحراسة بضاعته والذود عنها إذا هجم الأعراب على القافلة. وقد اشتهر عليه السلام بالعفة والأمانة حتى لقب

بالأمين . وأدى اشتغاله بالتجارة إلى تعرفه بالسيدة خديجة بنت خويلد أرملة أحد أشراف مكة ، فتاجر بمالها . وكانت من ذوات اليسار ومن أكرم سيدات قريش وأشرفهن نسبا ، وقد تزوج بها وهو فى الخامسة والعشرين وكانت فى سن الأربعين ، وأنجب منها ستة أولاد .

البعثة النبوية : — وكان النبى صلى الله عليه وسلم يميل إلى العزلة منذ نعومة أظفاره . فلم يشترك مع قومه فى عباداتهم ولا فى أخلاقهم المرذولة كالخمر والميسر . وكان يخلو بنفسه للعبادة فى غار حراء خارج مكة . وبينما كان يتعبد في ذلك الغار نزل عليه جبريل (ملك الوحى) فقال له : «اقرأ» ، فقال : «ما أنا بقارئ» (أى لا أعرف القراءة) . فقال له مرة أخرى إقرأ . فقال النبي : «ما أنا بقارىء» فقال جبريل : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من عَلَق ، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم)



وقد انقطع عنه الوحى مدة ثم عاد إليه . وأمره الله سبحانه وتعالى بالدعوة إلى الاسلام فى تلك الآية : (يا أيها المدثر قم فأنذر) . فأخذ النبى يدعو الناس سراً إلى الايمان بالتوحيد ، فاعتنق هذا الدين أول الأمر المتصلون به ، كزوجه خديجة وابن عمه على بن أبى طالب . ثم آمن بعض رجالات قريش ، منهم أبوبكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقَّاص وعبد الرحمن بن عوف .

اضطهاد قريش للنبى :— لم تكن دعوة الرسول لتثير عداء قريش لو أنها اقتصرت على إصلاح الحالة النفسية والاجتماعية ولم تتعرض للحط من شأن الأوثان ، مما حدا بقريش الى الخوف على مصالحها المالية . فقد كانت رفاهيتها مرتبطة ببقاء عبادة الأوثان فى بلاد العرب ، ومن ثم اضطهدوا النبى وأتباعه . وكان من أشدهم معارضة عمه أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان .

الهجرة الأولى :— لما اشتد إيذاء قريش للنبى وأتباعه لم يطق المسلمون البقاء بمكة ، فأباح لهم النبى الهجرة إلى بلاد الحبشة — وكانت تدين بالنصرانية — لما كان يعلمه النبى من كرم النجاشى (ملك الحبشة) وتسامحه . فهاجر نحو مائة منهم إلى هذه البلاد ، ثم عادوا بعد قليل .

الهجرة الثانية :— وانتهز النبى فرصة موسم الحج فأخذ ينشر دعوته بين الحجاج ، فآمن به جماعة من أهل « يثرب » ونشروا الاسلام فى مدينتهم . وقد زاد عددهم فى الموسم التالى ثم فى الموسم الذى بعده ، حتى بلغ عدد من قدم من يثرب اثنين وسبعين رجلا وامرأتين ، فاوضوا النبى سراً فى الهجرة إلى مدينتهم وتعهدوا بحمايته . فاتفق معهم على الهجرة إلى يثرب وأمر أصحابه أن يسبقوه اليها . ولا غرو فقد ماتت السيدة خديجة ولحق بها أبو طالب ، ففقد النبى بذلك نصيرين كبيرين ، وأصبح موقفه محفوفاً بالمخاطر ، حتى انه قصد الطائف فوجد من أهلها إعراضاً . ولما علمت قريش بعزم النبى على

الهجرة عولت على قتله . ولكنه خرج ليلا إلى يثرب ومعه أبو بكر ، وترك علياً فى فراشه . وقــد أطلق على يثرب من ذلك الحين « مدينة الرسول » ، ثم سميت بعد ذلك « المدينة » و « المدينة المنورة » .

وقد لقيت دعوة النبى ارتياحاً لدى أهل يثرب ، وكانوا شعباً قوى البأس . ولا غرو فقــد تأثر أهل يثرب بمن جاورهم من اليهود من بنى قُرَيْظة وبنى النَّضير لما كان بينهم من الصلات الوثيقة حتى ألفوا عقائدهم الدينية . يضاف إلى ذلك أن يثرب لم تكن لها منفعة مادية فى التمسك بالوثنية كقريش . وهذا يبين لنا سبب تحمس أهل يثرب للاسلام وترحيبهم بالنبى وأصحابه .

هذا وقد اتخذ المسلمون فيما بعد يوم الهجرة (١٦ يوليه سنة ٦٢٢ م) بدء عصر جديد فجعلوه مبدأ لتاريخهم .

قيام حكومة نظامية فى المدينة :— استطاع النبى أن ينشر دينه بين أهل يثرب وأن يجمع حوله أنصاراً كثيرين فى زمن قصير . فأخذ فى تنظيم المدينة ، فبنى مسجداً لاقامة الشعائر الدينية ، وألف بين قلوب أهلها ، وعقد الصلح بين أشهر قبائلها (الأَوْس والخزرَج) ، وسماهم « الأنصار » ، وساوى بينهم وبين أصحابه « المهاجرين » . فكان الأنصار والمهاجرون دعامة الأسلام وأساس مجده .

وقد حرم النبى على أهل المدينة سفك الدماء والأخذ بالثأر على ما كان معروفاً لديهم فى الجاهلية وأمرهم أن يرجعوا إليه فى كل خلاف يقع بينهم . وبذلك وضع أساس الحكومة الاسلامية . كذلك حث النبى على الاخاء والرفق بالأطفال واليتامى والأرامل والأرقاء وغير ذلك من الاصلاحات الاجتماعية .

موقف النبى من أهل مكة :— بعد أن نظم النبى عليه السلام أحوال المدينة ، أخذ يعد وسائل الدفاع عنها لصد قريش الذين عولوا على

الانتقام من أهل يثرب لحمايتهم الرسول وصحبه . فجمع النبى جيشاً بقيادته ، وقام بكثير من الغزوات انتهت بنشر الدين الاسلامى فى بلاد العرب .

أهم الغزوات

غزوة بدر : - وقعت هذه الغزوة في شهر رمضان فى السنة الثانية للهجرة بين المسلمين وكفار قريش فى المكان المعروف ببدر (وهو ماء مشهور بين مكة والمدينة) . وكان سببها أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يضعف من شوكتهم بتعطيل تجارتهم إلى الشام ، لمنعهم المسلمين من الحج إلى بيت الله الحرام بمكة . فأمر بعض أصحابه باعتراض إحدى قوافلهم الآتية من الشام ، وكان على رأسها أبو سفيان . فدارت بينه وبين المسلمين موقعة بدر .

وكان عدد المسلمين ثلثمائة تقريباً ، على حين أن كان القرشيون نحو الألف. وقد انتصر المسلمون بفضل تحمسهم وإقدامهم على الموت ابتغاء مرضاة الله . واستشهد فى هذه الموقعة أربعة عشر من المسلمين ، وقتل من قريش سبعون . وكان من أثر هذا الانتصار أن دخل عدد كبير فى الاسلام .

غَزْوَة أُحُد :— وقعت فى السنة الثالثة من الهجرة عند جبل أحد (فى الشمال الشرقى من المدينة) ؛ وسببها أن قريشاً أرادت أن تثأر لما أصابها يوم بدر . فخرج أبو سفيان على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، فلقيه المسلمون فى سبعمائة رجل ، وانتصروا عليه أول الأمر ، ثم حلت بهم الهزيمة لعدم تنفيذهم الخطة الحربية التى رسمها لهم الرسول عليه السلام . وقتل من المسلمين سبعون ، منهم حمزة عم النبى . وجرح النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشاع المشركون أنه قتل ، فوقع الاضطراب فى

صفوف المسلمين . ولم يواصل القرشيون القتال لكثرة قتلاهم ، ثم لزعمهم أنهم قد شفوا غليلهم مما أصابهم فى بدر .

غزوة الأحزاب أو الخندق : — جمعت قريش جيشاً كثيفاً للقضاء على المسلمين ، وتحالفت مع كثير من القبائل المجاورة لمكة ، حتى بلغ جيش المشركين عشرة آلاف . وقد ظهرت فى تلك الحرب مهارة المسلمين الحربية ، فقد حفروا خندقا حول المدينة تحصنوا وراءه للدفاع عن أنفسهم ، فوقع الخلاف بين صفوف القرشيين .

وكان لطول أمد الحصار أثر سيء فى نفوس القبائل المتحالفة مع قريش ، فعادوا إلى مكة خائبين ، وتم النصر للمسلمين بغير قتال . وكان لفشل القرشيين أثر كبير فى سرعة انتشار الاسلام فى بلاد العرب .

وفى السنة السادسة للهجرة خرج النبي عليه الصلاة والسلام للعُمْرة (وهى زيارة البيت الحرام فى غير موعد الحج) فى ألف وأربعمائة من المسلمين . فوقف القرشيون فى طريقه على مقربة من مكة . ثم دارت المفاوضات بين المسلمين والقرشيين الذين خشوا بأس المسلمين وطلبوا الصلح ، فعقدت بين الفريقين هدنة أمدها عشر سنين .

دعوة الملوك والأمراء الى الاسلام : — ولم تكن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل تعدتها إلى غيرها من البلاد . كما نطقت بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية (١) لذلك انتهز النبي فرصة عقد الهدنة مع قريش فأرسل فى السنتين السادسة والسابعة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى اعتناق الاسلام .

كذلك أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمراء بلاد العرب

---

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا إنى لرسول الله إليكم خاصة (العرب) وإلى الناس كافة »

وإلى هرقل امبراطور الدولة الرومانيـة الشرقية والمقوقس عامله على مصر، كسرى فارس ونجاشى الحبشة يدعوهم إلى الاسلام . فرد بعضهم (كالمقوقس) رداً حسناً واستهزأ البعض الآخر بدعوة النبى، كما مزق كسرى كتاب النبى وأرسل إلى « باذان » عامله على اليمن يأمره أن يوجه إلى النبى رجلين يأتيان به . فلما ذهب رسولا « باذان » إلى النبى أخبرهما بموت كسرى .

ثم عاد الرسولان إلى باذان وقصا عليـه ما تنبأ به النبى . ولم يمض على ذلك أيام قلائل حتى ورد على باذان خبر قتل كسرى فآمن باذان بالنبى واعتنق الاسلام هو ومن كان معه من الفرس فى بلاد اليمن .

غزوة مُؤته :— لما أرسل النبى رسله إلى القبائل العربية الخاضعة للروم فى أطراف الشام يدعوهم إلى الاسلام قتلوا رسول النبى ، فأنفذ اليهم فى السنة الثامنة جيشا عدده ثلاثة آلاف بقيـادة مولاه زيد بن حارثة فلقيته جموع هرقل من الروم والعرب عنـــد قرية مؤته (على حدود الشام) . فقاتل زيد حتى قتل فتولى القيادة بعده اثنان من قواد العرب فقتلا ، فاختار المسلمون خالد بن الوليد لقيادتهم . فقاتل قتالا شديداً وما زال يدافع الروم حتى ردّهم على أعقابهم بالرغم من كثرة عددهم . ثم عاد بجيش المسلمين إلى المدينة . وقد نزل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم بخبر من استشهد من القواد فى هذه الغزوة ، فصعد المنبر وخطب المسلمين خطبة أخبرهم فيها بقتل زيد ومن خلفه فى قيادة الجيش إلى أن قال « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه » لذلك سمى خالد سيف الله .

فتح مكة :— نقض أهل مكة الهدنة التى عقدت بينهم وبين النبى فى السنة السادسة للهجرة فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين . فاستجارت

هذه القبيلة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فسار إلى مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فى عشرة آلاف من المسلمين .

ولما علم أهل مكة بقدوم هذا الجيش ، خرج قادتهم خاضعين . وكان فى مقدمتهم أبو سفيان ، فأكرمه النبي . ودخل المسلمون مكة ، وسار النبي إلى الكعبة وطاف بها سبع مرات ، ثم أمر بإزالة التماثيل والصور وحطم أصحابه الأصنام وهو يقول : (قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) . ومما ساعد على هذا الفتح إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكانا من خيرة قواد العرب . ومع أن النبي كان هو المنتصر الفائز فقد أعلن العفو عن أهل مكة الذين أذاقوه هو وأصحابه كل صنوف الاضطهاد . وبعد فتح مكة وفدت القبائل على النبي من جميع نواحى بلاد العرب ودخلت فى دين الله أفواجا ، وعلت كلمة الاسلام .

غزوة تَبُوك :ــ فى السنة التاسعة للهجرة بلغ الرسول عليه السلام أن الروم قد تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ومعهم بعض القبائل العربية ، فدعا المسلمين إلى الجهاد وخرج بالجيش فى طريق الشام . فلما وصل إلى تبوك (مكان بين المدينة وفلسطين) أقام فيها أياماً فصالحه أهلها ، وجاءت الوفود من أيْله (على بحر القلزم) وغيرها وصالحوه على دفع الجزية ، كما بعث خالد بن الوليد بفريق من الجيش إلى دَوْمة الجندل فأسر صاحبها واستولى عليها ، ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وغزوة تبوك هذه هى آخر غزوات النبي .

حَجَّة الوَداع :ــ وفى السنة العاشرة للهجرة خرج النبي للحج فى أكثر من مائة الف من المسلمين . وعند جبل عرفات التى على المسلمين خطبته الخالدة التى بيّن فيها أصول الاسلام وقواعده ونادى بالمساواة بين الناس حيث قال : « أيها الناس ! إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ،

كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . وكان قد تم القرآن بنزول الآية : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) . وسميت حجة الوداع لانها كانت آخر حجات الرسول . وبذلك انتهت رسالته عليه الصلاة والسلام

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض النبى عليه السلام بالحمى ، وانتقل إلى جوار ربه فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ هـ (٨ يونيه سنة ٦٣٢ م) ، وهو فى الثالثة والستين من عمره ، بعد أن بلغ رسالته ، وبعد أن وحد كلمة العرب وجمع بين قبائلها المتنافرة ، فغدو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

صفات النبى : — قد اتصف الرسول عليه السلام بجمال الخَلق والخُلق وجمع من الفضائل ما ليس فى غيره . فكان أعقل الناس وأذكاهم ، راجح العقل ثاقب الفكر ، فصيح اللسان . ولا غرو أن أوتى جوامع الكلم وخصه الله ببدائع الحكم . وكان عليه السلام حاضر البديهة سريع الجواب فى أدب ووقار ، كما كان سياسياً حكيما ، ذا رأى صائب ونظر ثاقب ، ونفس أبيه عالية عالمة بدخائل الأمور ، أمينا وفيا ، كريماً شجاعا حييا ، يغضى عن الزلات ، شفيقاً رحيما ، عدلا عفيفا . به كل الصفات الكريمة التى اختص بها الله الأنبياء والمصطفين من عباده . وقد جمعت الآية الكريمة ما اتصف به عليه الصلاة والسلام من الفضائل وهى قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم)

الفصل الثانى

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق

١١ — ١٣ ه و ٦٣٢ — ٦٣٤ م

لم يوص النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بالخلافة لأحد من أقاربه أو غيرهم ، وترك للمسلمين الأمر شورى .

وقد اجتمع المهاجرون والأنصار فى المدينة بعد وفاته ، وأراد الأنصار أن يبايعوا رجلا منهم ، هو سعد بن عُبادة ، بالخلافة فأنكر المهاجرون ذلك ، فاشتد الخلاف بين الفريقين حتى كادت تتمزق الوحدة بينهما ، لولا أن قام فيهم أبو بكر خطيبا وأدلى بالحجة على أن هذا الأمر لقريش . فسارع عمر إلى مبايعة ابى بكر ليقضى على هذا الخلاف ، وتبعه سائر الناس .

كان أبو بكر أكبر الصحابة سنا وأكثرهم تجربة وأشدهم غيرة على الاسلام ، كما كانت له مكانة عالية بين قومه . فقد كان من أشراف قريش ومن أصحاب الجاه واليسار فيهم ، اكتسب ثروة كبيرة من التجارة ، كما كان قاضيا نزيها . وقد رافق النبى حين هاجر من مكة وقاسمه مر العيش وحلوه حتى يوم وفاته . وقد أنابه النبى عنه فى الصلاة أثناء مرضه الأخير ، فرأى المسلمون أنه أحق بالخلافة من سواه .

ردّة العرب : — لم تكن القبائل العربية بعد تولية ابى بكر ترغب فى الخضوع لسلطان قريش وقد خضعوا إما طوعا أو كرها . فلما توفى رسول الله خيل اليهم أن هذا السلطان قد آذن بالزوال ، لأن بعضهم كان لا يستطيع أن يصدق موت النبى، ولما تحقق من ذلك اعتراه الشك فى الدين، وبعضهم كان يعتقد أنه لن تقوم لقريش قائمة بعد موت زعيمهم ، لانهم كرهوا سيادة

قريش التى خضعوا لها باسم الدين . أضف الى ذلك أن كثيرا من العرب كانوا حديثى عهد بالاسلام الذى حال بينهم وبين ما اعتادوه من العادات السيئة كالخمر والميسر وغيرهما .

لذلك رفضت اكثر القبائل أن تخضع لسلطان أبى بكر ، وامتنعت عن أداء الزكاة التى كانوا يعتبرونها إتاوة تدفع للنبى فقط . ومازال دبيب العصيان يثور فى نفوس القبائل الواحدة بعد الآخرى ، حتى تزعزع أمر الاسلام واقتصر على أهل مكة والمدينة والطائف هذا إلى ادعاء كثير من العرب النبوة . وكان أشدهم خطراً مسيلمة الذى ادعى فى حياة النبى أن الله سبحانه وتعالى أشركه فى النبوة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، فسمى الكذاب لانه افترى على الله الكذب . وقد كثر عدد اتباعه فى اليمامة . كما ادعى النبوة غير مسيلمة كثير من العرب ، طليحة بن خُويلد وسَجاح التميمية التى تزوجت من مسيلمة .

جابه أبو بكر هذه الردة بما أوتيه من الحزم والعزم ، فبادر إلى تسيير الجيوش إلى المرتدين . وعقد لقتالهم أحد عشر لواء ، وأمر كل قائد بالمسير إلى ناحية من نواحى بلاد العرب . وقد أشار بعض الصحابة على أبى بكر بعدم مقاتلة الممتنعين عن اداء الزكاة . وهنا ظهرت قوة عزيمة أبى بكر حيث قال : « والله لو منعونى عقالا مما كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه أو أهلك دونه »

وما زالت جيوش المسلمين تقاتل المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة حتى قضت على الفتنة فى أقل من سنة ، وعلت كلمة الاسلام ثانية . ويرجع الفضل فى انتصار المسلمين إلى خالد بن الوليد سيف الله المسلول الذى هزم طليحة وسجاح وأرغمهما على قبول الاسلام ، وهزم مسيلمة الكذاب وقتله

جمع القرآن : — بعد ذلك الانتصار الذى أحرزه أبو بكر على القبائل العربية المرتدة خشى عمر بن الخطاب أن يتطرق النسيان إلى بعض الآيات

القرآنية بعد أن استشهد كثير من الحفاظ فى المعارك ، فأشار على أبى بكر بجمع آى القرآن . فجمعها ودونها فى سجل واحد (مصحف) بعد أن كان متفرقا فى صدور الحفاظ ومكتوبا على الأحجار والعظام وغيرها وقد أودع هذا المصحف عند أبى بكر ثم عند عمر من بعده ثم عند حفصة بنت عمر إحدى زوجات الرسول عليه السلام .

الفتوح فى عهد أبى بكر : وجه أبو بكر عنايته لفتح بعض البلاد ابتغاء نشر الدين وصرف المسلمين عن الاشتغال بما نشأ بينهم من الاختلافات فأرسل الجيوش لغزو بلاد الفرس والروم . ووجد العرب فى ذلك مجالا للتفاخر بالنصر وكسب الغنائم وميداناً للجهاد إبتغاء مرضاة الله . ولما كان فتح البلاد التى غزاها أبو بكر لم يتم إلا بعد وفاته أرجأنا الكلام عن الفتوح إلى عهد عمر بن الخطاب .

عمر بن الخطاب

١٣ — ٢٣ ﻫ و ٦٣٤

توفى أبو بكر سنة ١٣ ﻫ ، وأوصى قبل وفاته الى عمر بالخلافة لما كان يخشاه من الانقسام بين العرب ، فانتخبه المسلمون خليفة بالاجماع . وكان رضى الله عنه من صناديد قريش وعظماء رجالها ، أسلم فى السنة الخامسة للهجرة فاعتز به الاسلام . ولا غرو فقد عرف بالشجاعة والشدة فى الحق حتى إنه لما أسلم لم يخف إسلامه لاعتقاده انه لم يكن بين القرشيين من يجرؤ على معارضته . ويمتاز عهده بفتح كثير من البلدان وتنظيم أمور الدولة .

١ — الفتوح الاسلامية

(ا) فتح الشام وفلسطين : — كان حكام الرومان فى آخر أيامهم يظلمون الأهلين ويسومونهم العذاب ، فتأفف من جورهم سكان البلاد التى كانت تحت سلطانهم ومالوا الى الخلاص من حكمهم . وكانت الدولة البيزنطية

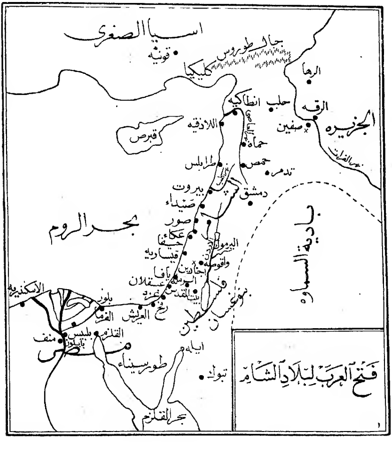
قد مزقتها الانقسامات الدينية وافسدها الانغماس فى الترف . ولم تكن أهلها أمة واحدة ، بل كانت تتألف من عناصر مختلفة وشعوب متباينة أثقلت كاهلها الضرائب الفادحة . فساعد ذلك الأمة العربية الطموحة على فتح الشام وفلسطين وغيرهما من البلاد التابعة للدولة البيزنطية . أضف الى ذلك ما امتاز به المسلمون من الشجاعة وقوة إيمانهم وعدم مبالاتهم بالموت . وقد حثهم القرآن على الجهاد .

وقد أثار أحقاد الروم الغارة التى شنها على حدود فلسطين أسامة بن زيد الذى ولاه النبى صلى الله عليه وسلم على جيش المسلمين قبل وفاته بقليل . واستمرت هذه الغارة أربعين يوما عاد بعدها أسامه بالغنائم الكثيرة ، فجمع الامبراطور هرقل جيشاً كثيفاً عسكر به على مقربة من حدود فلسطين والشام . فدعا أبو بكر المقاتلين من جميع أرجاء بلاد العرب . ولما اجتمعوا فى المدينة عقد الألوية لأربعة من الأمراء هم: أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشُرَحبيل بن حسنة ووجهته الأردن . وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يعاون بعضهم بعضا وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبى عبيدة وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين وأن يمد الجيوش الأخرى اذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وفى الوقت الذى كانت قوى المسلمين تشتغل بفتح بلاد الدولة الرومانية الشرقية فى الشام وفلسطين . وجه أبو بكر قوة صغيرة بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة لفتح بلاد العراق . وبينما كانت انتصارات المسلمين تتوالى فى تلك البلاد وصلت انباء الشام بأن أبا عبيدة لم يعد يقوى على مدافعة الرومان ، فأمر أبو بكر خالد بن الوليد بأن يسير لمساعدته . فسار خالد على رأس الف وخمسمائة عن طريق بادية السماوة ، واخترق هذه البادية بسرعة تفوق السرعة التى اخترق بها أنيبال جبال الألب . وقد بعث وصول خالد الى بلاد الشام فى

المسلمين روحا جديدة ، فاستولوا على مدينة بُصرى بمساعدة واليها رومانوس Romanus الذى سلم المدينة للمسلمين بعد أن دلهم على طريق الدخول اليها من سرداب تحت سورها .

موقعة اليرموك (١٣ هـ) :— ولما علم هرقل بانتصارات المسلمين أعد أربعة جيوش لمحاربتهم ، فتطورت الحالة وغدا مركز المسلمين من الخطورة والدقة بحيث استشار بعضهم بعضا . فأشار عليهم عمرو بالاجتماع فى مكان واحد لمواجهة قوى الروم ، واختار منحنى فى اليرموك أحد فروع نهر الأردن يسمى الواقوصة . وأقر الخليفة رأى عمرو . واجتمع فى الواقوصة



أربعون الفا من المسلمين ومائتان وأربعون الفا من الروم ، وانتهت الموقعة بهزيمة الروم وقتل أكثر جندهم، فخارت عزيمة هرقل ودب اليأس فى نفوس جنده ، وآذن هذا الأمر بسقوط سوريا فى يد العرب .

وبينما كانت تدور رحى القتال بين العرب والروم ، جاء الخبر بوفاة أبى بكر وتولية عمر وعزل خالد بن الوليد عن القيادة وتولية أبى عبيدة مكانه . فأخفى خالد هذا الخبر حتى تم النصر للمسلمين ثم نزل عن قيادة الجيش وحارب تحت إمرة أبى عبيدة عن طيب خاطر . ولم يكن عزل عمر لخالد عن ريبة فيه ، وانما كان ذلك خوفا من افتتان المسلمين به ، لما كان لخالد من المكانة فى نفوس الجند لشجاعته وانتصاره في جميع الوقائع التى شهدها . أضف الى ذلك ما كان يراه عمر فى خالد من الشدة والقسوة على الأعداء فى حروب الردة وقتل بعض المرتدين بعد أن أذعنوا للتسليم وطلب الأمان .

ثم سار المسلمون الى دمشق وحاصروها زهاء سبعين يوماً وعرضوا على أهلها أن يختاروا واحدة من ثلاثة : الاسلام أو الجزية أو القتال . ولم تغن هذه المدينةَ متانةُ حصونها وضخامة أسوارها . وقد حالَ العرب دون وصول الأمداد إلى الحامية حتى أشرفت على الموت جوعا ، واضطرت آخر الأمر إلى فتح أبوابها للمسلمين .

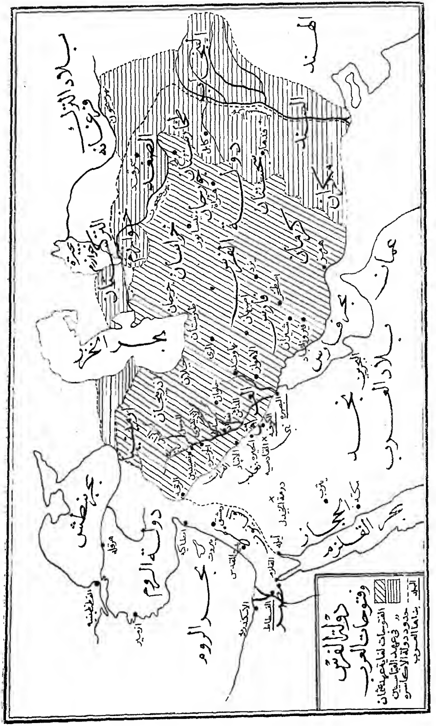
موقعة اجنادين (٦٣٤ م) : وبعد استيلاء العرب على دمشق وقع فى يدهم كثير من أمهات المدن فى شمال سوريا (مثل حلب وحمص وانطاكية) وبقى الأرطبون Aretion قائد الروم في أكثر جنده باجنادين (بالقرب من بيت المقدس) حيث وقعت بينه و بين المسلمين موقعة لاتقل شدة وهولا عن موقعة اليرموك انتهت بانتصار المسلمين ، فولت فلول الروم الادبار الى قيصرية و بيت المقدس . وكان من أثر انهزام الروم فى اجنادين ان فتح كثير من المدن الساحلية فى الشام وفلسطين أبوابها للعرب (مثل يافا وغزة والرملة وصور وعكاء وصيداء وعسقلان وبيروت)

فتح بيت المقدس (١٨ هـ) : وجه المسلمون بعد ذلك عنايتهم لفتح بيت المقدس حاضرة فلسطين والمدينة المقدسة عند المسيحيين ، وكانت محصنة تحصيناً قوياً ، وبها حامية كبيرة تحت قيادة الأرطبون . وقد حاصرها العرب أربعة أشهر حتى كاد أهلها يموتون جوعاً . وأخيراً ظهر بطريرقهم على أسوار المدينة ووعد بتسليمها على أن يكون ذلك للخليفة نفسه . فسار عمر إلى بيت المقدس وتسلَّمه وأمّن أهله على حريتهم الدينية . وبذلك سقطت بلاد الشـــام وفلسطين فى أيدى العرب بعد حروب طاحنة دامت زهاء ست سنين .

(ب) فتح العراق وفارس

كان العرب يرون بلاد الفرس أصعب منالا من بلاد الروم . فقـــد كانت متجانسة متحدة ، ومن ثم كانوا يتهيبون غزوها . وقد وجه أبو بكر جيشاً إلى أطراف العراق أخضع القبائل العربيـــة التى كانت تقيم جنوبى نهر الفرات ، وانتصر على الفرس واستولى على الحيرة والأنبار . وما لبث العرب أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكثيف الذى أعده يزدجرد الثالث بقيادة رستم ، وارتدوا إلى أطراف الصحراء . وظل الحـــال على ذلك إلى آخر أيام أبي بكر ، وشُغل المسلمون عن الفرس بقتال الروم فى الشام وفلسطين . فلما تمت هزيمة الروم فى أجنادين سنة ١٦ هـ وجه عمر العرب لغزو بلاد العراق ، وأراد أن يقود الجيش بنفسه ، ولكن بعض الصحابة أشار عليه بتولية سعد بن أبى وقّاص غزو هذه البلاد فولاه .

موقعة القادسية (١٥ هـ و ٦٣٦ م) : — سار سعد إلى القادسية وكانت باب العراق . وهناك التقى برستم ، وكان جيشه ثلاثين ألف مقاتل على حين أن كان جيش العرب يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف . وكان العجم يضحكون من نبال العرب ويشبهونها بالمغازل . واقتتل الفريقان ثلاثة أيام


دولة الفرس
وفتوحات العرب
الفتوحات لغاية عهد عثمان
" في عهد العباسيين
حدود دولة الأكاسرة
البلد بناها العرب
بلاد الترك
فرغانة
نهر سيحون
بحيرة خوارزم
التركستان
خوارزم
سمرقند
الصغد
طخارستان
كابل
هراة
نيسابور
خراسان
جرجان
طبرستان
بحر الخزر
جيلان
الري
أذربيجان
أرمينية
بحر نطش
القسطنطينية
هرقلة
ازمير
دولة الروم
بحر الروم
انطاكية
بيروت
دمشق
القدس
فلسطين
الاسكندرية
الفسطاط
مصر
القلزم
أيلة
دومة الجندل
يثرب
مكة
الحجاز
بحر القلزم
الرقة
نصيبين
الموصل
الانبار
المدائن
حلوان
نهاوند
الحيرة
القادسية
الكوفة
البصرة
العراق
الأهواز
اصفهان
يزد
دولة الفرس
فارس
اصطخر
شيراز
فيروزاباد
هرمز
كرمان
سجستان
قندهار
السند
مكران
الهند
بحر فارس
البحرين
نجد
بلاد العرب
عمان

كان النصر بعدها للعرب ، وقتل رستم وعدد كبير من جنده وهرب الباقون ، فتبعهم سعد وأوقع بهم فى جلولاء سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) ، وأسر إحدى بنات كسرى وقتل عدداً كبيراً من الفرس . ثم توغل سعد فى بلاد العراق واستولى على المدائن عاصمة الفرس بعد أن حاصرها شهرين . وقد غنم العرب منها غنائم كثيرة من بينها بساط كسرى ، وفر يزدجرد الى حلوان .

موقعة نَهَاوَنْد (٢١ هـ و٦٤٢ م) :— لم يستطع يزدجرد أن يلم شعث جنده ويستعد لملاقاة العرب من جديد إلاَّ بعد أربع سنوات . وفى سنة ٢١ هـ جند كسرى جيشاً كثيفاً يربو عدده على ١٥٠٠٠٠ مقاتل ، وأرسل عمر الأمداد إلى جيش المسلمين . والتقى الفريقان فى نهاوند ، فكتب النصر للعرب رغم استماتة الفرس فى الدفاع عن بلادهم . وقد عرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح لشدتها وأهميتها .

وما زال العرب يطاردون يزدجرد الثالث ويستولون على بلاده حتى اضطر إلى الفرار إلى أقصى الحدود الشرقية ، فقتل فى الطريق سنة ٣١ هـ . وكان ذلك فى عهد عثمان . وبموت يزدجرد الثالث انقرضت دولة آل ساسان وتحققت دعوة النبيّ بتمزيق ملك الأكاسرة .

ولا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات ، فضموا إلى بلادهم بلداً جديداً ، وأثروا وأصبحوا فى رغد من العيش . وقد بهرت تلك النفائس والأموال العرب الذين اعتادوا التقشف والبساطة(١) .

(١) ومما يؤثر عن فتح بلاد الفرس أن عربياً ظفر بحجر من الياقوت يساوى مبلغاً عظيما ، فلم يدر قيمته فرآه بعض من يعرف قيمته واشتراه منه بألف درهم . ثم عرف البدوى بعد ذلك قيمته ولامه أصحابه وقالوا له: « هلا طلبت فيه أكثر من ذلك ؟ » فأجاب البدوى : « لو علمت أن وراء الالف عدداً أكثر من الالف لطلبته » . كما كان العربى يأخذ فى يده الذهب ويقول « من يأخذ الصفراء ويعطينى البيضاء ؟ » إعتقاداً منه أن الفضة خير من الذهب .

(ج) فتح مصر

حالة مصر قبيل الفتح : — كانت مصر وغيرها من الولايات البيزنطية تمزقها الانقسامات الدينية والمذهبية. فقد انقسم المسيحيون فى الشرق قبل ظهور الاسلام الى مذهبين : مذهب الملكانيين (١) وكان يدين به الروم أنفسهم ، ومذهب اليعاقبة (٢) ويدين به قبط مصر . وقد لقى المصريون من جراء هذا الخلاف المذهبى صنوف الاضطهاد . وبلغ من اضطهاد الروم للقبط أن اضطر البطريرق بنيامين الى الالتجاء الى الصحراء فبقى بها ثلاث عشرة سنة . ومن أمثلة هذا الاضطهاد أن قبض الروم على « مينا » أخى بنيامين ومثلوا به أشنع تمثيل حيث أوقدوا المشاعل وأحرقوه بها حتى تساقط الدسم من جنبيه على الأرض . ولما وصل به التعذيب الى هذا الحد لم يزدد إلّا تمسكا بمذهبه ، فاقتلعت أسنانه ثم وضع فى حقيبة ملأى بالرمل ، وعرضت عليه حياته ثلاث مرات اذا اعترف بمذهب الروم ، فأبى فألقوه فى البحر .

وزيادة على ذلك فان الرومان قد أثقلوا كاهل المصريين بالضرائب ، التى فرضت على الأشخاص والصناعات على اختلاف أنواعها وعلى الماشية والأراضى والبضائع وشراعات السفن وأثاث المنازل ، كما فرضوا ضريبة على المارة رجالا ونساء — تجاراً وغير تجار — وما معهم من سائر الأشياء حتى على جنازات الموتى . وكان على المصريين فوق ذلك ايواء الموظفين من الرومان حين مرورهم بالقرى ، لذلك عمّ البؤس والشقاء واشتد الضيق وتفاقم سخط المصريين على الحكم الرومانى .

(١) ويعتقد أتباعه أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور ، وأنه أزلى ، ثم اتحد هذا الابن بابن مريم فاصبحا شخصاً واحدا هو المسيح . ويدين الرومان بهذا المذهب .

(٢) ويعتقد أتباعه بامتزاج الطبيعتين الالهية (اللاهوت) والبشرية (الناسوت) فى المسيح حتى أصبحتا طبيعة واحدة ، وذلك بعد التجسد طبعا . ومن ثم لم يكن إنسانا صرفا كما أنه لم يكن الها . ويدين بهذا المذهب أهل مصر والشام .

لذلك لا نعجب إذا أصبحوا يتطلعون إلى دولة أخرى تخلصهم من هذه الحالة السيئة ، ولاسيما بعد ما علموا من استيلاء العرب على الشام و فلسطين وما سمعوه من تسامحهم الدينى وحسن سيرتهم فى البلاد التى فتحوها ، فتطلعوا إلى الخلاص من ظلم الرومان على أيدى المسلمين .

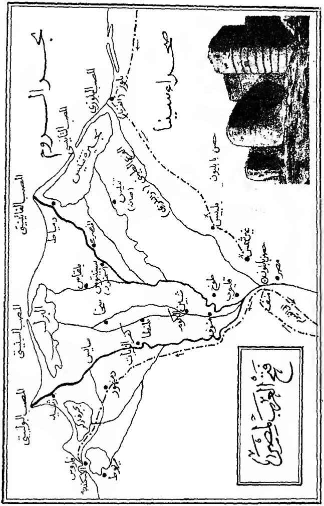
الفتح :— وبعد أن تم للعرب فتح الشام وفلسطين أشار عمرو بن العاص على الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر ، و بيّن له ثروتها العظيمة وأهمية مركزها (وكان قد زارها فى الجاهلية) ، كما بين له أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم فى الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاءها فى يد الروم مما يعرض الحكم العربى فى الشام إلى الخطر . وهوّن عمرو على عمر فتح مصر لضعف أهلها ووقوع الرعب فى قلوب الروم بعد انتصارات العرب فى الشام . فتردد الخليفة وخاف أن يفشل المسلمون فى فتحها ، فقد كان جند المسلمين متفرقين فى بلاد الشام والعراق . أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع فى الفتح ولا سيما وأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها . وما زال عمرو يهون على الخليفة عمر فتح مصر ويعظم أمرها حتى أذن له بغزوها وعقد له اللواء على أربعة آلاف رجل. ولم يرد عمرو أن يثقل على عمر بن الخطاب فى أول الأمر بجيش كبير يغير به على مصر واثقا بأنه متى صار مع الروم وجها لوجه فى أرض مصر ، واحتاج إلى الجنود بعث بها اليه عمر .

سار عمرو بجنده مخترقا رمال سيناء حتى وصل إلى العريش ، ففتحها من غير مقاومة . ثم سار إلى الفرما (بيلوز) ، وهى مدينة قديمة العهد ذات حصون قوية ، وكانت مفتاح مصر فى ذلك الوقت ، فحاصرها المسلمون شهراً ، ثم فتحوها فى أول المحرم سنة ١٩ ﻫ (يناير سنة ٦٤٠ م) .

وتقدم عمرو بعد ذلك حتى وصل الى بلبيس ، فوجد بها الأرطبون وقد فر إلى مصر قبيل تسليم بيت المقدس ، واستولى العرب على المدينة بعد شهر

لم ينقطع فيه القتال ويقال إن ابنة المقوقس حاكم مصر كانت بها حين فتحها المسلمون ، فأعادها عمرو إلى أبيها سالمة . ولا ريب أن عمراً قد كسب بهذا العمل محبة المصريين .

وبعد استيلاء عمرو على بلبيس تقدم حتى وصل إلى أم دُنين Tendonius



وكانت على النيل فى مكان حديقة الأزبكية الآن تقريباً . وفى هذا المكان نشب القتال عدة أسابيع بين المسلمين والروم ، ولما أبطأ الفتح على عمرو أرسل الى الخليفة عمر يطلب منه المدد ، فأعد الخليفة جيشاً من أربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة (الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعُبادة بن الصامت ، ومَسلمة بن مُخَلَّد) . وكتب إلى عمرو : « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » (يعنى هؤلاء القواد الأربعة) .

وكان مركز عمرو حين حصاره لأم دنين من أحرج المراكز ، اذ استولى اليأس على قلوب المسلمين لمن كان يقتل منهم كل يوم ولم يكن قد وصل المدد بعدُ ، غير أن عمرا لم يكن بالقائد الذى يجعل لليأس سبيلا الى قلبه ، فقد قوى نفوس المسلمين فاقتحموا حصن أم دنين وغلبوا الروم على أمرهم واستولوا على سفنهم فالتجأ الروم إلى حصن بابليون .

ولما وصل المدد الى عين شمس ، سار عمرو لملاقاته ، وتقدم تيودور Theodore قائد الروم فى عشرين ألفا . فحلت الهزيمة بالروم ولم ينج منهم إلا عدد قليل فر إلى حصن بابليون .

حصار حصن بابليون :— ثبتت قدم عمرو فى أم دنين وعين شمس التى اتخذها مركزاً لقيادته الحربية ، ولم يبق أمامه سوى حصن بابليون أو قصر الشمع فسار اليه وحاصره فى اوائل سبتمبر سنة ٦٤٠ م (٢٠ هـ) .

وكانت أسوار الحصن المتينة وأبراجه الشامخة يحيط بها النيل ، وقد ارتفع ماؤه فامتلأ الخندق الذى حوله . وكان العرب مفتقرين لمعدات الحصار بل وغير قادرين على استعمالها استعمالا يكفل لهم أن يلحقوا بالروم خسارة كبيرة . لذلك طال أمد الحصار إلى سبعة أشهر . ولما رأى المقوقس صبر العرب على القتال خرج هو ونفر من قومه ولحقوا بجزيرة الرّوضة ، وبعث الى عمرو رسلا يفاوضونه في الصلح . فأبقاهم عمرو عنده يومين ثم طلب منهم أحد أمور ثلاثة : « الاسلام أو الجزية أو القتال » .

ولما رجع الرسل الى المقوقس سألهم عن حال المسلمين فأجابوا : « رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم . لا يعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم».

بعد ذلك اجتمع رسل عمرو بالمقوقس ، ولم يستطع هذا أن يثنى هؤلاء الرسل عن هذه الأمور الثلاثة . ولم يجد بداً من أن يكتب بذلك الى هرقل فرد عليه يوبخه ويحتقر قوة العرب ، وكتب بمثل ذلك الى قواد الروم، فأعادوا الكرة على المسلمين ونبذوا صلحهم واستأنفوا القتال . أما المقوقس فأنه لم يخرج عما عاقد عمرا عليه ، ووفىّ له القبط بما صالحهم عليه . وقد عقد الصلح مع عمرو على أن يفرض على كل قبطى جزية مقدارها ديناران سنويا عن كل نفس ، يستثنى من ذلك الشيوخ والنساء والصبيان ، وأن يحافظوا على الجسور ويقيموا له الأنزال والضيافة بين مصر والاسكندرية . وقد عد هرقل هذا العمل خيانة من المقوقس ، فاستدعاه الى القسطنطينية ونفاه .

اقتحام الحصن :— حال ارتفاع مياه النيل دون اقتحام حصن بابليون ولم يكن لدى عمرو من الوسائل ما يكفل اقتحامه سوى الاعتصام بالصبر ريثما ينخفض النيل . وقد استمر العرب على حصار الحصن وتحملت حامية الروم مشاق الحصار طويلا . وفى شهر مارس سنة ٦٤١ م سمع الروم فى معسكر المسلمين صياحا عاليا علموا منه بموت هرقل . فسلبهم هذا الحادث المحزن شجاعتهم وحميتهم وهيأ للعرب سبيل الانتصار عليهم . وقد هاجم المسلمون الحصن فى شهر ابريل من هذه السنة،ووضع الزبير بن العوام سلما الى الجانب الجنوبى الشرقى للحصن وصعد وأمر العرب اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوه جميعاً، فما شعر الروم إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف . وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن يُكسر وكبّر الزبير ،

واجابه المسلمون من الخارج ، فلم يشك الروم فى أن العرب قداقتحموه جميعا فهربوا ، وتقدم الزبير واصحابه الى الباب ففتحوه واقتحمه المسلمون وسلمت حامية الروم فى شهر ابريل سنة ٦٤١ م بعد أن أمنهم العرب على حياتهم .

فتح الاسكندرية : — بعد استيلاء العرب على حصن بابليون ، ترك عمرو حامية فيه وسار محاذياً لفرع رشيد قاصدا الاسكندرية ، واستولى على الحصون الرومانية التى فى طريقه ، فقصدت فلول الروم الاسكندرية وتحصنوا بها ، وجاءتهم الأمداد من القسطنطينية حتى بلغت حاميتها الخمسين ألفا .

وكانت الأسكندرية عند استيلاء العرب على مصر حاضرة الديار المصرية ، وثانية حواضر الدولة الرومانية الشرقية ، وثانية مدن العالم التجارية . وقد أيقن هرقل أن سقوط هذه المدينة فى أيدى العرب يؤدى إلى زوال سلطانه عن مصر . فبعث اليها بالجيوش الكثيرة ، ونشط الروم فى الدفاع عن المدينة .

ولم تكن لدى العرب الدربة الكافية لاستعمال آلات الحصار التى استولوا عليها فى انتصاراتهم السابقة ، كما لم يكن لديهم من السفن مايمنع المدد من أن يصل إلى حامية المدينه بحراً . لذلك حاصروا المدينة أربعة عشر شهراً ، وكانت قوة عمرو ضئيلة إذا قورنت بحامية الروم ، غير أن عدداً كبيراً من القبط انضموا تحت لواء عمرو كما أمدوه بالمؤن . وما زال العرب يحملون على أسوار المدينة وأبراجها حتى استولوا عليها عنوة ، ولكن عمرا رأى أن يستجلب محبة الأهلين ، فعاملهم معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، وأبرم عقد الصلح مع المقوقس الذى عاد من منفاه بعد موت هرقل .

ومن أهم شروط الصلح أن يدفع غير المسلمين جزية قدرها ديناران سنوياً عن كل نفس ، وأن تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهرا ترحل فى خلالها الحامية الرومانية عن الاسكندرية مع ما تملكه من أموال وأمتعة .

وتعهد الرومان فوق ذلك أن لا يعملوا على استرداد مصر، وتعهد العرب من جانبهم أن لا يتعرضوا للكنائس بسوء، وألا يتدخلوا فى أمور المسيحيين، وأن يسمحوا لليهود بالبقاء فى الاسكندرية. ولضمان تنفيذ الروم هذه الشروط اشترط عمرو أن يكون لدى المسلمين مائة وخمسون جنديا وخمسون من أعيان الروم رهينة. وبعد فتح الاسكندرية سهل على العرب فتح ما بقى من المدن فى الوجهين البحرى والقبلى، وزال بذلك سلطان الروم عن هذه البلاد.

٢ — تنظيم الدولة الاسلامية

كان من أثر الفتح العربى فى عهد عمر أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ودان لسلطان العرب معظم أملاك دولتى الفرس والروم. فوجه عمر همه إلى تنظيم شئون دولته المترامية الأطراف ونشر العدل في ربوعها، وقام بكثير من وجوه الاصلاح. وساعده على ذلك ما كان للبلاد التى فتحها من مدنيات قديمة ونظم ادارية تالدة استعان بها على تنظيم دولته.

إدارة الحكومة: — قسم عمر الدولة الاسلامية أقساماً إدارية، ومصّر الأمصار فأسس حواضر جديدة فى الأقاليم الكبرى كالكوفة والبصرة والفسطاط. وأقام على كل إقليم واليا يساعده عدد من الموظفين، منهم عامل الخراج والقاضى والكاتب وقائد الجيش وصاحب الشرطة. وكانت عيون عمر يرقبون هؤلاء العمال ويكتبون بكل أخبارهم.

وعلى الرغم من أن عمر كان يختار عماله من أهل العلم والورع والعدالة، فقد كان يحاسبهم حساباً عسيراً، حتى بلغ من شدة مراقبته لهم أن كان يحصى أموالهم قبل توليتهم. فاذا ما انتهت ولايتهم أحصى ثروتهم من جديد، وما زاد صادرهم فيه كله أو بعضه ورده الى بيت المال اذا اتضح له أن هذه الزيادة قد أتت إلى العامل بطرق غير مشروعة.

وكان عمر أول من وضع نظام «الحسْبة»، وهى الاشراف على

الأسواق والمحافظة على الآداب ومراقبة المكاييل والموازين منعاً للغش ومراقبة تنظيف الطرق وما اليها من الأعمال التى تقوم بها المجالس البلدية الآن.

تدوين الدواوين :— ولما رأى عمر أن كنوز الأكاسرة قد وقعت فى يد العرب وأن الذهب والفضة والجواهر النفيسة قد تدفقت على خزانة الدولة لما كان يرد إلى بيت المال من الجزية المفروضة على غير المسلمين، ومن الخراج (أى الضريبة المفروضة على الأرض) ، عمل على تنظيم أموال الدولة وتوزيع العطاء على المسلمين. فأخذ عن الفرس نظام الدواوين (والديوان كلمة فارسية الأصل معناها السجل . وقد أطلقها العرب على سجلات الحكومة والدور التى كانت تودع فيها هذه السجلات) ، فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء — وكان هذا الديوان يكتب بالعربية — وديوان الجباية (الأموال) لتدوين ما يرد إلى بيت المال ، وما يفرض لكل مسلم من العطاء . ورتب المسلمين مراتب وطبقات باعتبار القرابة من رسول الله والسبق إلى الاسلام ونصرة الرسول عليه السلام فى حروبه .

وكان الولاة ينفقون من الضرائب التى تجبى من كل إقليم فى إصلاحه . كشق الترع وإنشاء المدن وغير ذلك.وما بقى يرسل الى بيت المال ليوزع بين المسلمين ، وهو ما يعرف بالعطاء . ولما لم يكن للعرب عهد بالنظم المالية ، أبقى عمر كتابة الدواوين بالفارسية والرومية والقبطية كما كان عليه الحال قبل الفتح الاسلامى . وكذلك جعل كتاب هذه الدواوين من الفرس والروم والقبط .

القضاء :— وعمر أول من وضع النظام القضائى فى الاسلام . فكان يعين القضاة فى الأقاليم من قبله ، كما كان يعهد إلى الوالى بتعيين القاضى أحياناً . وكان لا يلى القضاء إلا من كان عالماً بأحكام الشريعة الغراء مجتهداً يعرف كيف يستنبط الأحكام الشرعية من القرآن وسنة الرسول . وكان

القضاة مستقلين فى الحكم لا يتأثرون بسلطة الولاة ، الرفيع والوضيع فى نظرهم سواء . وكان القضاة يجلسون فى المساجد للفصل بين الناس .

وقد عين عمر للقضاة رواتب يتقاضونها لكى ينقطعوا إلى أعمالهم . وقد بلغ من ورع المسلمين فى ذلك العهد أن زهدوا فى القضاء حتى إن كعب بن يسار أبى أن يتولى هذا المنصب العظيم حين عرض عليه عمر قضاء مصر .

خاتمة عمر : — وبينما كان عمر جاداً فى تنظيم شئون دولته اغتاله رجل من الموالى الفرس يسمى فيروز ويلقب بأبى لؤلؤة . وكان من أسرى موقعة نهاوند ، امتلأ قلبه حقداً على عمر لقضائه على دولة الفرس . وتوفى عمر رضى الله عنه في شهر ذى الحجة سنة ٢٣ هـ بعد أن ولى الخلافة عشر سنين وستة أشهر ، وله من العمر ثلاث وستون سنة .

ولما أحس عمر بدنو أجله عين ستة من أصحاب رسول الله ومن رجال الشورى فى عهده ، وهم على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير ابن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عَوْف ، وطلحة بن خُوَيْلد ، وأشار على قومه باستخلاف من يختاره أكثرهم ، وأوصى بأن يؤخذ برأى الفريق الذى ينضم إليه عبدالله بن عمر فى حالة تساوى الأصوات . فوقع الاختيار على عثمان بن عفان .

عثمان بن عفان

٢٣ — ٣٥ هـ و ٦٤٤ — ٦٥٦ م

كان عثمان رضى الله عنه من السابقين الى الاسلام : وكان كاتب الوحى بين يدى النبى عليه الصلاة والسلام ، وأميناً (مستشاراً) لأبى بكر . وقد أنفق معظم ماله في سبيل نصرة الاسلام ، واشتهر بالعفة والاخلاص للدين . وقد قربه النبىّ إليه ، فزوّجه ابنته رُقَيَّه . ولما توفيت زوّجه ابنته الثانية أم كلثوم ، ومن ذلك لقب بذى النورين .

الفتوح فى عهد عثمان :ـــ اتسع الفتح فى عهد عثمان . فقـــد تم فتح بلاد فارس ، كما فتحت بلاد طبرستان (على ساحل بحر قزوين) وبلاد الخَزَر وأذْرَبيجان وأرمينية . وقد أنشأ معاوية بن أبى سفيان والى عثمان على الشام أسطولا بحرياً حارب البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى و تفليس على البحر الأسود ، كما استولى على جزيرتى قبرص و رودس . وقد نقض البيزنطيون عهد الصلح وفتحوا الاسكندرية وعاثوا فساداً فى الوجه البحرى ، فطردهم العرب من هذه البلاد سنة ٢٥ هـ . ثم أعاد البيزنطيون الكرة على مصر سنة ٣١ هـ بقيادة ملكهم قسطنطين بن هرقل ، فحاربهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح وانتصر عليهم فى موقعة « ذات الصوارى » . وقد عرفت بهذا الاسم لكثرة السفن الحربية التى اشتركت فى القتال .

وفى عهد عثمان فتح عبد الله بن سعد بلاد إفريقية (تونس الحالية) ، كما عاود غزو بلاد النوبة وعقد الصلح مع ملكهم ، وكان قد غزاها عمرو بن العاص من قبل .

سياسة عثمان :ـــ كان عثمان فى السبعين من عمره حين آلت الخلافة اليه . وكان سهلا ليناً ، فلم يكن فى حزم أبي بكر وعمر ، تلك الصفة التى لا بد منها لادارة دولة مترامية الأطراف كالدولة الاسلامية فى ذلك العهد ، وبخاصه فى دور انتقال العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والاستمتاع بالاموال المتدفقة من البلاد المفتوحة .

وقد عين عثمان بعض أقاربه ولاية الأقاليم البعيدة لثقته بهم أكثر من غيرهم ، ليضمن بذلك تماسك الدولة العربية . فعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخاه من الرضاعة ، وعزل أبا موسى الأشعرى عن البصرة وولى مكانه عبد الله بن عامر ، وأقر

معاوية على الشام ، واتخذ مروان بن الحكم مستشاراً له فى المدينة ، حتى صارت الدولة الاسلامية فى عهده أموية لحماً ودماً .

ولم يكتف عثمان باسناد المناصب الكبرى إلى ذوى قرباه ، بل تصرف فى أموال الدولة تصرفاً يخالف ما اتبعه أبو بكر وعمر . فقد أعطى عبد الله ابن سعد خمس الأموال التى غنمها فى بلاد إفريقية ، ثم أجاز لقريش امتلاك الأراضى فى العراق والشام وغيرهما مما أسخط أهل هذه البلاد . فلا عجب اذا وجد المسلمون من سياسة عثمان دافعاً للسخط عليه وعلى ولاته . وزاد هذا السخط ما فرضه هؤلاء الولاة من الضرائب الفادحة .

الفتنة التى أدت الى قتل عثمان :— ولقد أذكى نار هذا السخط رجل من أهل صنعاء ، هو عبد الله بن سبأ وكان يهودياً فأسلم ، ثم أخذ يتنقل فى الأمصار الاسلامية . فبدأ بالحجاز ، فالبصرة ، فالكوفة والشام ، وانتهى به المقام أخيرا فى مصر حيث أخذ ينشر بين الناس أن عليا وصىّ محمد وأنه خاتم الأوصياء كما أن محمدا خاتم النبيين . وبذلك هيأ ابن سبأ العقول للاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من وصىّ رسول الله .

كاتب ابن سبأ وأتباعه فى مصر أنصارهم من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا على الخروج إلى المدينة . وقامت الثورات فى الأمصار ، وخرج من مصر وفد بلغ عدده ستمائة بزعامة محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبي حُذَيفة . وطلب وفود الأمصار تغيير الولاة . وقد طلب وفد مصر عزل عبد الله بن سعد ، فأجابهم عثمان إلى طلبهم وعين على مصر محمد بن أبى بكر . فانصرفت الوفود . إلا أن وفد مصر ما لبث أن عاد وبيده كتاب بخط مروان وعليه خاتم عثمان ، يأمر فيه عثمان والى مصر بالضرب على أيدى الثائرين . وقد ادعى الوفد أنه ضبطه مع رسول كان جاداً فى سيره نحو مصر ، فحلف عثمان أنه لم يأمر بكتابته ولا علم له به . فطلب الثوار منه أن يسلمهم مروان

للتحقيق معه ، فأبى عثمان . فانتهز الثوار تفرّق الجند فى الأمصار الاسلامية وحاصروا داره أربعين يوماً .

وقد أرسل بعض الصحابة أبناءهم للدفاع عن الخليفة . وبعد ثمانية عشر يوماً كتب عثمان إلى معاوية وغيره من الولاة يطلب المعونة . فلما علم الثوار بذلك شددوا الحصار ومنعوا عنه الطعام والماء ؛ ثم اقتحموا داره ، وضربه أحد الثائرين بحديدة ، وضربه آخر بسيفه ، فاتقت زوجه نائلة السيف بيدها ، فقطع إصبعها . وضرب الثوار عنقه ثم نهبوا داره (٣٥ هـ)

علىّ بن أبى طالب

٣٥ — ٤٠ هـ و ٦٥٦ — ٦٦١ م

كان علىّ أول من أسلم من الصبيان ، وهو ابن عم النبىّ وزوج ابنته فاطمة ، اشتهر بالشجاعة ، واشترك مع النبى عليه السلام فى معظم غزواته . وكان عمر يستشيره فى مهام الأمور . وقد صار من أهل الشورى بعد مقتل عمر . فلما آلت الخلافة الى عثمان صافاه ، إلا أنه لم يرض عن سياسته ولا سيما فى أواخر خلافته .

ولما قتل عثمان بويع علىّ بالخلافة فى المدينة ، ولم تكن بيعته عامة . فقد كانت المدينة فى يد الثوار الذين قتلوا عثمان ، وكان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار ، ولم يكن بالمدينة الا عدد قليل على رأسهم طلحة والزبير ، وقد بايعا عليا وعلى رأسهما سيوف الثائرين . أضف الى ذلك أن كثيراً من أهل المدينة قد تركوها خوفا على حياتهم .

سياسة علىّ : — كان علىّ يرى أن ولاة عثمان لا يصلحون لأن يلوا أمور المسلمين . فصمم على عزلهم بالرغم من أن قواعد خلافته لم تكن قد تقررت . وقد نصحه بعض الصحابة بالعدول عن ذلك فأبى . فأدت سياسته هذه إلى تفريق كلمة المسلمين فانقسموا أحزابا : فريق من الثائرين بايعوا

عليا ، وفريق يطالب بدم عثمان وهو حزب الأمويين فى الشام وعلى رأسه معاوية بن أبى سفيان ، وفريق ثالث لا يتفق مع الأمويين في المطالبة بثأر عثمان ، ولكنه كان يعارض فى خلافة علىّ ويعتبر أن بيعته لم تكن عن رضى من المسلمين ، وعلى رأسه طلحة والزبير وعائشة .

موقعة الجمل :— عزل على معاوية عن الشام ، فلم يذعن هذا للعزل ، فتأهب على لمحاربته . وبينما هو يستعد للخروج إلى الشام علم بخروج مكة عليه . وقد اجتمع طلحة والزبير بمكة ، وانضمت اليهما عائشة ، وخرجوا الى البصرة فى قوة كبيرة على رأسها عائشة فاستولوا عليها سنة ٣٦ هـ . فعدل علىّ عن فتح الشام وسار الى الكوفة وجمع جيشا من عشرين ألفاً سار به الى البصرة حيث دارت موقعة الجمل . وسميت كذلك لأن عائشة كانت تحارب على جمل لها . وقد تم النصر لعلى ، وقتل طلحة والزبير وأسرت عائشه ، فأعادها على الى الحجاز معززة مكرمة ، ونصحها بالابتعاد عن السياسة .

النزاع بين علىّ ومعاوية :— انحصر النزاع بعد انتصار على فى موقعه الجمل بين حزبين اثنين ، هما حزب على رأس بنى هاشم ، وحزب معاوية رأس بنى أمية . وقد اتهم الأمويون عليا بأن له ضلعاً فى قتل عثمان ، وأنه قعد عن نصرته وآوى قتلته ، فعادت المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية على الرياسة سيرتها الأولى .

وكان الفرق عظيما بين جند على وجند معاوية . فقد ظل معاوية على الشام عشرين عاماً ، عمل فيها على كسب ولاء أهلها بسخائه وعدله حتى أصبح السيد المطاع . وقد ساعده على ذلك ما فطر عليه أهل الشام من حب النظام وطاعة القانون . أما جند علىّ فقد كان معظمهم من البدو الذين ينفرون من السلطة ويأبون الخضوع للقوانين

موقعة صفين : — ولما بلغ عليا أن معاوية قد استعد للقتال ومعه أهل الشام سار لمحاربته ، والتقى الجيشان فى صفين (غربى الفرات) حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين أربعين يوماً . فما كاد علىٌّ أن ينتصر حتى فكر معاوية فى الهرب ، لولا ما ابتكره عمرو بن العاص من ضروب الحيل ، فأمر جند الشام برفع المصاحف على أسنة الرماح وطلب تحكيم القرآن . فانخدع جند علىٍّ وأوقفوا القتال وقبلوا التحكيم على كره من على ، وانصرف على بجيشه الى الكوفة ومعاوية الى الشام بعد أن اتفق الفريقان على تحكيم أبى موسى الأشعرى من قبل علىٍّ وعمرو بن العاص من قبل معاوية .

الخوارج : — خرج على علىٍّ بن أبى طالب فريق كبير من أنصاره عرفوا بالخوارج . وكانوا يرون أن علياً قد أخطأ في الكف عن القتال وقبول التحكيم بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر . فأبى على أن ينقض عهده ، وكان عددهم اثنى عشر ألفاً . وقد عاثوا فى الأرض فساداً فحاربهم على وانتصر عليهم وقتل معظمهم وفر بعضهم ، فكانوا نواة لفرق الخوارج التى ظهرت فيما بعد .

التحكيم : تغلب عمرو بدهائه على أبى موسى الأشعرى الطيب القلب ، وأقنعه بضرورة خلع كل من على ومعاوية وترك الحرية للمسلمين ليختاروا من أحبوا . واجتمع العرب فى يوم التحكيم بدومة الجندل (بين العراق والشام) . وقدم عمرو أبا موسى فأعلن خلع على . ثم قام عمرو فأقر خلع على وثبت معاوية ، فعادت الحروب بين الفريقين . وقد بدأ معاوية يدعو الى نفسه بالخلافة وتمكن من انتزاع مصر من حكم على على يد عمرو بن العاص .

قتل عليّ :— أراد عليّ بعد ذلك أن يغزو الشام ، فتخاذل عنه أهل العراق . فعزم ثلاثة من الخوارج على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص، إذ كانوا يرونهم سبب هذه الفتنة ومصدر بلاء المسلمين . فخاب تدبيرهم ضد معاوية وعمرو ونجحوا فى قتل عليّ ، فطعنه عبد الرحمن بن مُلْجم وهو بمسجد الكوفة ، فمات فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ ، وبايع أهل الكوفة الحسن بن عليّ بالخلافة

الحسن بن عليّ :— علم الحسن بن عليّ بغزو معاوية بلاد العراق فأراد الخروج لمحاربته ، فتخاذل عنه أهل الكوفة كما تخاذلوا عن أبيه من قبل . ففر الى المدائن وتصالح مع معاوية على أن ينزل له عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين . فقبل معاوية ذلك وتعهد أن لا يسب عليا على المنابر وأن يترك أمر الخلافة شورى من بعده . وتم ذلك سنة ٤١ هـ ؛ وتعرف هـــذه السنة « بعام الجماعة » لاجتماع كلمة المسلمين على خليفة واحـد .

الفصل الثـالث
الدولة الأموية

٤٠ - ١٣٢ هـ و ٦٦٠ - ٧٥٠ م

ينتسب معاوية بن أبي سفيان مؤسس هذه الدولة إلى أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . وكان أمية هذا من سادات قريش فى الجاهلية ، وكان فى الشرف والرفعة كما كان هاشم بن عبد مناف . لهذا لا نعجب إذا تنافس بنو أمية وبنو هاشم زياسة قريش وقد أدى ذلك التنافس إلى إذكاء نار العداء بينهما جاهلية وإسلاماً .

كان أمية تاجراً كثير المال . وكان له عشرة أولاد امتازوا بالشرف والسيادة ، منهم حرب وأبو سفيان . ومما يدل على مكانة أبى سفيان قول النبى صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة : « من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . وهو شرف عظيم لم ينله أحد .

ومن أولاده أيضا يزيد بن أبى سفيان الذى ولاه أبو بكر أحد الجيوش الأربعة التى أرسلها لفتح الشام ، ثم ولاه عمر دمشق وولى أخاه معاوية ما وليها من البلاد الشامية . ولما مات يزيد أضاف عمر الى معاوية ما كان لأخيه ، ثم ولاه عثمان الشام كلها . وهكذا كان لبيت أمية السيادة فى الجاهلية كما كانت له السيادة فى الإسلام .

معـاوية بن أبى سفيان

(٤٠ - ٦٠ هـ و ٦٦٠ - ٦٨٠ م)

نال معاوية الخلافة بحد السيف تارة وبالسياسة والمكيدة تارة أخرى ، لا باجماع المسلمين ورضى منهم . وقد انتهى بتوليته نظام الحكم الذى كان يستند الى الشورى فى عهد الخلفاء الراشدين ، ذلك الحكم الذى كان أشبه

بالنظام الجمهورى ، واستحالت الخلافة الى ملك وراثى .

وقد تأثر معاوية بنظم الحكم التى أدخلها الرومان فى بلاد الشام ، فأحاط نفسه بكل مظاهر الملوك وأبهتهم فاتخذ سريراً للملك ، وأقام الشرطة لحراسته . وبنى مقصورة فى المسجد خوفاً مما حدث لعلى . وأصبح يصلى فيها منفردا عن الناس ، فاذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف .

وكان معاوية داهية من دهاة العرب ومن أوفرهم حظا فى السياسة اشتهر بالحلم والصبر على الأذى والمكروه . وقد استطاع بهذه الصفات أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج والشيعة خاصة . كما اشتهر بالتسامح الدينى . يدل على ذلك أنه أسند الأمور المالية للدولة إلى « سَرْجون » المسيحى ، وجدد كنيسة فى العراق خربتها الزلازل . وعرف أهل الذمة فيه العدل وعدم التحيز حتى كانوا يلجأون اليه فى خصوماتهم الخاصة .

الفتوح فى عهد معاوية

١ — الفتوح فى المشرق :— مد معاوية أملاك الدولة شرقا حتى بلاد السند ، وولى سعيد بن عثمان بن عفان بلاد خراسان . فعبر نهر سيحون واستولى على سمرقند والسُّغْد .

٢ — الحرب ضد البيزنطيين :— كانت الدولة البيزنطية تغير على البلاد الاسلامية . فرتب معاوية غزوها برا وبحرا ، ووضع لذلك نظاما يدعو الى استمرار الحرب بينه وبينهم شتاء وصيفا . وكان يعرف هذا النظام بالشواتى والصوائف . وقد انتصرت جيوش معاوية على البيزنطيين فى أرمينية وآسيا الصغرى . وبلغ اسطول الشام ألفا وسبعمائة سفينة غزا الكثير من جزر البحر الأبيض المتوسط وفتح جزيرتى قبرص ورودس وبعض جزائر بحر الأرخبيل .

وفى سنة ٤٨ ﻫ سيَّر معاوية جيشا كثيفا بقيادة سفيان بن عَوْف إلى

القسطنطينية ، وأسطولا تحت إمرة فضالة بن عبد الله الأنصارى . وولى قيادة الحملة ابنه يزيد بن معاوية ، فأوغل المسلمون فى بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية ، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها لمناعة حصونها . فاضطر المسلمون الى العودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وسفنهم . وقد مات فى ذلك الحصار أبو أيوب الأنصارى ، الذى نزل النبيُّ فى بيته حين هاجر الى يثرب ، ولا يزال قبره يزار إلى الآن بالمسجد المشهور باسمه فى القسطنطينية . وفى سنة ٥٨ هـ وجه معاوية أسطولا لحصار القسطنطينية . وظل الحصار سنتين ومات معاوية والمسلمون على حصار هذه المدينة . « ولو مضى الخلفاء الأمويون فى حصارها كما فعل معاوية لفتحوها ولتغير وجه التاريخ » .

٣ — حرب إفريقية :— ولى معاوية عقبة بن نافع بلاد المغرب سنة ٥٠ هـ ، فانتصر على الروم ومد أملاك العرب الى بلاد تونس ، وأسلم على يده كثير من البربر ، ولكنهم كانوا يرتدون عن الاسلام اذا فارقهم جند المسلمين . وبنى عقبة القيروان لتكون مقراً للجند .

ولاية العهد :— وفى سنة ٥٦ هـ عهد معاوية لابنه يزيد بولاية العهد من بعده ، وغيَّر بذلك نظام الخلافة وجعله وراثيا ، ونقض العهد الذى أخذه على نفسه للحسن بن على بأن يترك الأمر شورى للمسلمين من بعده . بيد أن معاوية قد رأى ما نجم من النزاع والفتن عقب وفاة الخلفاء قبله ، فأراد أن يتلافى ذلك . غير أن هذه السياسة قد أدت الى قيام الفتن والثورات بعد وفاته سنة ٦٠هـ .

يزيد بن معاوية

٦٠ – ٦٣ هـ و ٦٨٠ – ٦٨٣

ولد يزيد بن معاوية من امرأة بدوية تزوج بها أبوه قبل توليته الخلافة، فلم تحتمل المعيشة فى دمشق وعادت الى أهلها فى البادية . فشب يزيد

على ما عودته أمه من معيشة البدو شجاعا فصيحا بليغا يجيد الشعر . ولم يكن أهلا للخلافة ، لأنه كان ظالما منغمسا فى الملاهى ، فلم يرض عن حكمه كثير من وجوه الصحابة ، وفى مقدمتهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير .

موقعة كَرْبَلاء (٦١ هـ) كتب جماعة من أهل العراق الى الحسين بن على يدعونه الى الكوفة ، وأظهروا استعدادهم لنصرته . فاغتر بذلك ولم يعتبر بما فعله أهل هذه المدينة مع أبيه وأخيه من قبل . فخرج اليهم مع عدد لا يزيد عن الثمانين حتى بلغ « كربلاء » . فلم ينضم اليه أحد من أهل العراق ودارت رحى الحرب بين جيش عبيد الله بن زياد والحسين بن على فاستشهد الحسين وقطع رأسه وشهر به . وقد أظهر يزيد حزنه لقتل الحسين . ولا غرو فقد أوصاه أبوه معاوية أن يصفح عن الحسين إن ظفر به . وقد أحسن يزيد الى أولاد الحسين وأهل بيته وأرسلهم الى الحجاز مكرمين معززين .

ثورة الحجاز : دوى صدى واقعة كربلاء فى كل مكان وملأ خبرها قلوب المسلمين جزعا وحزنا . فتوحدت صفوف الشيعة (أنصار على الذين كانوا يرون أحقيته هو وأولاده بالخلافة) وازداد مقت المسلمين لبنى أمية وحكمهم . وقد حزن أهل المدينة لقتل الحسين . وأذكى ابن الزبير نار الفتنة فى المدينة ضد ولاة يزيد حتى ثار أهلها سنة ٦٣ هـ وطردوا عامل يزيد وضيقوا على من كان بها من بنى أمية . فبعث اليهم يزيد ١٢٠٠٠ من جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة . فحاصر المدينة من جهة وادى الحَرة (فى شمال المدينة) وفتحها ثم أباحها ثلاثة أيام . وأسرف هو وجنده فى القتل والنهب والسلب .

غزو الكعبة (٦٤ هـ) لما فرغ مسلم بن عقبة من إخضاع أهل المدينة توجه الى مكة حيث دعا عبد الله بن الزبير الى نفسه بالخلافة وتبعه أهلها . ومات مسلم فى الطريق فسار الجيش بقيادة « الحُصَيْن بن نُمَيْر » فحاصر مكة

فخرج اليه ابن الزبير فى أتباعه ، ودارت رحى القتال بين الفريقين واحترق جزء من الكعبة . ثم ورد عليهم نعى يزيد فكف الحصين عن القتال .

هذه هى المصائب التى نكب بها المسلمون فى عهد يزيد . وقد أوصى يزيد قبل وفاته بالخلافة الى ابنه معاوية جريا على الطريقة التى سنها معاوية بن أبى سفيان . فظل فيها أربعين يوماً ، ثم نزل عن الخلافة لمرضه وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من أحبوا

مروان بن الحكم

٦٤ — ٦٥ هـ / ٦٨٣ — ٦٨٥ م

اختلف أهل الشام فيمن يولونه الخلافة بعد معاوية الثانى ، وكانوا عصب الدولة وقوتها بفضل اتحادهم وتماسكهم . غير أن هـــذه الوحدة ما لبثت أن تفككت أوصالها . فمال فريق إلى خالد بن يزيد بن معاوية وكان صغيراً ، ومال فريق آخر الى مروان بن الحكم من شيوخ بنى أمية . وانقسم بذلك الأمويون على أنفسهم وكادت تضيع الخلافة من أيديهم .

كذلك بويع عبد الله بن الزبير فى الحجاز والعراق واليمن ومصر ، كما انضم بعض أهل الشام اليه . ولم يكن ابن الزبير سياسياً بعيد النظر ، فقد عرض عليه الحصين بن نمير قائد الأمويين فى مكة ان يأخذ البيعة له إذا انتقل الى الشام ، فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد الى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة . وبذلك أضاع الفرصة وتمكن الامويون من جمع شملهم وبايعوا بالخلافة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ لسنه وشيخوخته . وانتقل بذلك الملك من بيت أبى سفيان الى بيت مروان ، وصار للمسلمين خليفتان يتنافسان السلطان : عبد الله بن الزبير فى مكة ، ومروان بن الحكم الأموى فى دمشق.

وقد انتشرت الفتن فى عهد مروان في الشام . وبعث الى مصر جيشاً

استولى عليها من يد عامل ابن الزبير . وقضى مروان مدة حكمه يعمل على تأييد ملكه ، ولم يظل فى الخلافة أكثر من تسعة أشهر . وقد أخذ البيعة قبل وفاته لابنه عبد الملك ثم لابنه عبد العزيز .

عبد الملك بن مروان

٦٥ — ٨٦ هـ و ٦٨٥ — ٧٠٥ م

أحدقت الأخطار بالدولة الأموية عند وفاة مروان بن الحكم، وكادت تمزقها الثورات والفتن . لولا أن أتاح الله لها عبد الملك بن مروان الذى امتاز برجاحة العقل والقدرة على تصريف الأمور . وقد أخذ عبد الملك فى مبدأ عهده يشن الغارة على أعدائه ، ولم يمض على خلافته سبع سنين حتى استقامت له الأمور وهدأت الأحوال وساد السلام فيما بقى من عهده وعهد من جاء بعده من أولاده .

الصعوبات التى اعترضت عبد الملك

١ ـ الشيعة :ـ تفاقم سخط المسلمين وحنقهم على بنى أمية بعد مقتل الحسين. فقد تحرك الشيعة فى الكوفة سنة ٦٥ هـ وندموا على خذلانهم الحسين وتابوا مما فعلوا ، وساروا سنة ٦٦ هـ الى «عين الوردة» على مقربة من نهر الفرات ، ولحق بهم كثير من أهل البصرة والمدائن. فبعث إليهم عبد الملك بن مروان ثلاثين ألف مقاتل على رأسهم عبيد الله بن زياد فهزمهم . ولم يكد يفرغ ابن زياد من ثورة أهل الكوفة حتى ظهر حزب شيعى جديد بزعامة المختار ابن أبى عبيد (الذى كان والياً على العراق من قبل ابن الزبير ثم خرج عليه). فسار إليه ابن زياد فهزمه المختار وقتله .

٢ ـ عبد الله بن الزبير : ـ ولى عبد الله بن الزبير أخاه مصعب على العراق، فعمل على استخلاصها من المختار وهزمه وقتله سنة ٦٧ هـ ، وقتل سبعة آلاف من رجاله . وتتبع مصعب الشيعة فى العراق حتى صفا له الجو ،

ثم عزم على محاربة عبد الملك . فلقيه هذا بجيش كثيف من أهل الشام ومصر وبلاد الجزيرة ، فدارت الدائرة على مصعب وقتل سنة ٧٢ هـ لتخلى أهل العراق عنه وانضمامهم إلى عبد الملك .

ولما أمن عبد الملك جانب أهل العراق شن الغارة على عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، وندب لحربه الحجاج بن يوسف الثقفى ، فحاصره فى مكة وضيق عليه وقتله سنة ٧٣هـ ، فولى عبد الملك الحجاج الحجاز واليمن واليمامة فظل بها حتى سنة ٧٥ هـ .

٣ — الخوارج :— لما صفا الجو لعبد الملك فى الشام وفلسطين ولم يبق أمامه ما يقلق باله إلا جهة المشرق ، ندب الحجاج بن يوسف لاخضاع هذه البلاد . فسار إلى الكوفة ودخل مسجدها وخطب أهلها خطبة بين فيها سياسته ، وكلها زهو بنفسه واستهتار بأهل العراق . وقد بدأ خطبته بقوله :

« أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى »

يا أهل الكوفة ! إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحا »

ثم سار الحجاج الى البصرة وخطب الناس فيها خطبة لا تختلف فى معناها ومرماها عن خطبته فى الكوفة . ومن ثم مضى لمعاونة المهلب بن أبى صُفْرة فى إخضاع الخوارج فى العراق وفارس وطهر المشرق منهم .

ولم تقتصر شدة الحجاج على أعداء بنى أمية بل تعدت إلى أنصاره، فقد أدى سوء معاملته ابن الأشعث نائبه فى بلاد ماوراء النهر الى خروجه عليه واستيلائه على خراسان والكوفة والبصرة . فقاتله الحجاج وهزمه فى موقعة دير الجماجم بالعراق . ولقد أسرف الحجاج فى قتل أسرى دير الجماجم ، كما أسرف أيضاً فى إعطاء الأموال لمن نصروه على عدوه . وهكذا أخضع الحجاج بلاد العراق وما والاه من بلاد المشرق لسلطان عبد الملك بن مروان .

٤ — خروج عمرو بن سعيد :— وفى سنة ٧٠ ﻫ خرج على عبد الملك أحد أهل بيته وهو عمرو بن سعيد بن العاص. فعمد إلى الحيلة فولاه عهده ، ثم لم يلبث أن تخلص منه فقتله وألقى برأسه الى أصحابه ، فتفرقوا . وقضى بذلك عبد الملك على ما بذره عمرو بن سعيد من بذور الشقاق والانقسام في البيت الأموى .

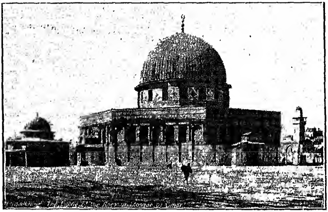
إصلاحات عبد الملك :— قضى عبد الملك على الفتن التى قامت فى عهده ، وتوطدت دعائم الدولة الأموية بعد أن أشرفت على الزوال . وانتشر الأمن فى البلاد بفضل يقظته ودأبه على العمل لخير رعاياه . ولهذا يعتبر المؤسس الثانى للدولة الأموية .

وقد صبغ عبد الملك الادارة والمالية بالصبغة العربية ، فضرب العملة العربية ، وكان الناس يتعاملون بالعملة الفارسية والبيزنطية . وأنشأ عبد الملك دار ضرب فى دمشق ، ونقش على أحد وجهى السكة الاسلامية اسم الخليفة وعلى الوجه الآخر « لا إله إلا الله »

وكان ديوان الخراج (المالية) بالفارسية والرومية . فنقل عبد الملك ديوان فارس والشام إلى العربية (أما ديوان مصر فلم ينقل إلى العربية إلا فى عهد ابنه الوليد بن عبد الملك) . وقد استفادت اللغة العربية من وراء ذلك فأصبحت لغة الحساب والرياضة . وقد شجع عبد الملك الأدباء والشعراء. ولا غرو فقد كان أديباً بليغاً وشاعراً فصيحاً .

وقد نظم عبد الملك البريد وجعل له محطات لسير الخيل . وكان عمل صاحب البريد مراقبة العمال وإخبار الخليفة بما يحدث فى الأقاليم . كما أنشأ محكمة المظالم لايقاف تعدى ذوى الجاه والحسب . وكان يختار قاضى المظالم ممن اشتهروا بالورع والتفقه فى الدين ، وكان اليه النظر فى القضايا التى يقيمها الناس على الولاة اذا حادوا عن طريق العدل والانصاف أو على عمال الخراج اذا اشتطوا في جمع الضرائب .

كذلك عنى عبد الملك بالعمارة . فشيد قبة القدس المسماة قبة الصخرة .



قبة الصخرة ببيت المقدس

ومات عبد الملك بعد أن حكم زهاء عشرين سنة . وكانت ولاية العهد لأخيه عبد العزيز ، فلما مات عبد العزيز عهد عبد الملك بالخلافة لولديه الوليد ثم سليمان . ويسمى المؤرخون عبد الملك أبا الملوك ؛ فقد تولى الملك من أولاده أربعة هم الوليد وسليمان ويزيد وهشام .

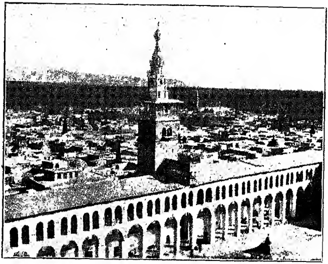
الوليد بن عبد الملك

٨٦ — ٩٦ هـ و ٧٠٥ — ٧١٥ م

كان عهده عهد يسر ورخاء وهدوء . فوسع رقعة الدولة الأموية شرقاً وغرباً . وازدهرت فى أيامه الفنون الاسلامية ، وبخاصة فن العمارة . وشيد في عصره كثير من العمائر ، منها المسجد الأموى فى دمشق . وجدد بناء المسجد النبوى

وقد اشتهر الوليد بالعطف على الفقراء والمعوزين ، والاهتمام بأحوال الرعية والسهر على مصالحهم والعمل على تخفيف آلام مرضاهم . يدلنا على

ذلك أنه خصص أعطيات للمجذومين كما أنه أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره وكل ضرير قائداً يسهر على راحته .



صورة المسجد الأموى بدمشق

الفتوح فى عهد الوليد :— يرجع الفضل فى اعادة عهد الفتوح إلى ذلك السلام الذى انتشرت ألويته فى ربوع الدولة الأموية .

١ ـ الفتوح فى الشرق :ـ غزت جيوش الوليد فى الشرق بلاد ما وراء النهر بقيادة قتيبة بن مسلم ، واستولت على بخارى وسمرقند (وجل سكانهما من الترك) . وبذلك أصبحت الدولة العربية تتاخم حدود الصين واعتنق كثير من الترك الاسلام .

٢ ـ الفتوح فى الغرب :ـ كان أعظم الفتوحات شأنا في بلاد المغرب الأقصى . وعلى الرغم من أن أقدام المسلمين قد وطئت بلاد شمال إفريقية قبل ذلك بثلاثين سنة ، فان مركزهم كان مزعزع الأركان . فقد كانت هذه البلاد جبلية يسكنها أقوام من البربر . وقد سخطوا على ولاتهم من العرب الذين لم

يعاملوهم معاملة النظير للنظير بل معاملة السيد للمسوْد . وكانت الدولة البيزنطية من وراءٍ م تشد أزرهم وتمدهم بالجند والمال . وقد ولى الوليد موسى بن نصير على شمال إفريقية ، فأخضع بلاد المغرب الأقصى سنة ٩١ هـ . وقضى على نفوذ الدولة البيزنطية فى هذه البلاد ومد الفتوح العربية الى المحيط الأطلسى (ماعدا مدينة سبته) ، ونشر الأسلام فى هذه الجهات .

فتح بلاد الأندلس :— وفى سنة ٩٢ هـ أرسل موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد (من قواد البربر) الى بلاد الأندلس ، وكانت تابعة للقوط ، فعبر المضيق المعروف باسمه الى الآن . وفتح هذه البلاد هو وموسى ابن نصير .

سليمان بن عبد الملك

٩٦ - ٩٩ هـ و ٧١٥ - ٧١٧ م

دب الترف والبذخ أيام سليمان بن عبد الملك ، وتسرب ذلك إلى الولاة والأمراء . وتحزب سليمان لبعض الولاة وعمل على الكيد لبعضهم . وممن نال منهم يزيد بن المهلب قائد المشرق ، وقتيبة بن مسلم فاتح بلاد ما وراء النهر ، ومحمد بن القاسم فاتح الهند ، وأسرة الحجاج فى العراق . ويرجع سبب كراهة سليمان لقتيبة وأولاد الحجاج إلى إغراء الحجاج وقتيبة للوليد على عزل سليمان من ولاية العهد . كما نال من موسى بن نصير فاتح شمال إفريقية وبلاد الأندلس ، لأنه تعجل بالذهاب إلى الخليفة الوليد ومعه الأموال والغنائم بعد أن كتب إليه سليمان بالابطاء حتى يموت الوليد .

الفتوح فى عهد سليمان :— تم فى عهده فتح طبرستان (على بحر قزوين) على يد يزيد بن المهلب أمير بلاد المشرق كما حاصر مدينة القسطنطينية ، وقد توفى الوليد بعد أن جهز حملة إليها بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك ، فعول سليمان على إرسال هذه الحملة . وكان الأسطول العربى مؤلفاً من

١,٨٠٠ سفينة تحمل ١٠٠,٠٠٠ مقاتل. وقد انضم ليو Leo البيزنطى إلى جيش المسلمين فى آسيا الصغرى، وكان يطمع فى الملك. وأخذ المسلمون يستولون على بلاد آسيا الصغرى مدينة تلو مدينة، حتى عبروا البحر ووصلوا إلى أسوار القسطنطينية. فلحق بهم الأسطول العربى من الثغور الشامية والمصرية، واشترك معهم فى حصار المدينة. غير أن ليو هذا ما لبث أن خرج على صفوف المسلمين وجعل نفسه امبراطوراً. واشتد حصار المسلمين للمدينة من ناحية البحر، فأوقع ليو بسفنهم، ففتكت بها الحراقات الاغريقية فتكا ذريعاً، وهلك من الجيش أكثره، ونفدت المؤن والأقوات، وعادت الحملة أدراجها إلى الشام.

عمر بن عبد العزيز

٩٩ - ١٠١ هـ و ٧١٧ - ٧٢٠ م

يعتبر المسلمون عمر بن عبد العزيز كعمر بن الخطاب فى عدله وزهده. ولا عجب فى ذلك، فقد كانت أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. وقد ورث عن جده عمر بن الخطاب صفات كثيرة منها الزهد والورع والعدل والتفقه فى الدين. وقد تولى بلاد الحجاز فى عهد عبد الملك وابنه الوليد، وعلى يده تم تجميل المسجد النبوى.

سياسته الداخلية:— صرف عمر بن عبد العزيز ولاة سليمان وولى الولاة بحسب مقدرتهم وقيد سلطتهم، فجعلهم مسئولين أمامه، كما حرم عليهم تنفيذ الحكم بالاعدام الا بعد موافقته. ومن أمثلة عدله مساواته فى العطاء بين العرب والموالى من المسلمين. وقد رفع عمر بن عبد العزيز جزية الرؤوس عمن أسلم، فكتب اليه والى مصر يشكو له تأثر بيت المال من جراء هذه السياسة ويطلب اليه بقاء الجزية على من أسلم. فكتب اليه عمر: «ضع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك. فان الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا».

ومما أكسب عمر بن عبد العزيز رضاء الشيعة تحريمه لعن عليّ بن أبي طالب على المنابر .

سياسته الخارجية . — عدل عمر عن سياسة الفتح ، فاستقدم الجيش المحاصر للقسطنطينية ، وعمل على نشر الاسلام . فأرسل الرسل إلى ملوك الهند والسند يعرض عليهم الاسلام على أن يعفيهم من الجزية وأن لا يتدخل فى استقلالهم . كما فعل مثل ذلك مع ملوك بلاد ما وراء النهر من الترك ومع البربر فى إفريقية ، فاستجاب له اكثرهم واعتنق الاسلام اكثر ملوك الهند .

يزيد وهشام ابنا عبد الملك

١٠١ – ١٢٥ هـ و ٧٢٠ – ٧٤٣م

لم يسر يزيد وفق اصلاحات عمر ، فانتكست الدولة فى أيامه . وقامت الثورات فى بلاد العرب ، وخرج عليه يزيد بن المهلب بن أبى صفرة والى بلاد المشرق . وقد فر من السجن حين بلغته وفاة عمر بن عبد العزيز ، فسار الى البصرة وأسر واليها ، ثم واصل السير الى الكوفة حيث انضم اليه كثير من الأهلين . ولما قوى أمره واشتدت شوكته بعث اليه يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة فى جيش عظيم أوقع بيزيد بن المهلب وقتله ، فخلفه أخوه هشام سنة ١٠٥ هـ وكان غزير العقل حليما عفيفاً ، اشتهر بحسن السياسة وبعد النظر ، حتى قيل إن السواس من بنى أمية ثلاثة : معاوية وعبد الملك وهشام .

وفي عهده حرّض أهل الكوفة زيد بن عليّ زين العابدين على الخروج ، فخرج على هشام ، وتبعه منهم زهاء خمسة عشر ألفاً . فحاربه يوسف بن محمد أمير الكوفة ، وتفرق أصحاب زيد عنه وخذلوه . فحارب فى نفر قليل حتى قتل سنة ١٢٢ هـ ، وفر ابنه يحيي الى خراسان ، وقام فيها ثلاث سنوات خرج بعدها على الخليفة سنة ١٢٥ هـ ، وبايعه عدد كبير . وقد آل أمر يحيى الى ما آل اليه أمر أبيه من قبل ، فقتل وحز رأسه وصلب ثم أحرق .

الفتوح فى عهد هشام : — امتاز عصر هشام بالتوسع فى الفتح ، فقد حارب الروم عند حدود الشام وآسيا الصغرى ، والترك فى القوقاز . وكان يقود الجيش قواد من الأسرة المالكة . وفى عهده توغل جند العرب فى بلاد الأندلس حتى وصلوا الى مدينة تور فى جنوب فرنسا . وهنا أفل نجم العرب وهزمهم شارل مارتل هزيمة منكرة فى موقعة بواتييه Poitiers أو تور Tours وحال دون تقدمهم فى قلب أوربا . وتعد هذه الموقعة من المواقع الحاسمة فى التاريخ . ولو انتصر العرب فى هذه الموقعة لتغير وجه التاريخ فى أوربا ولأصبح القرآن يدرس فى جامعاتها ، على ما ذهب اليه بعض مؤرخى الفرنجة . كما سيأتى عند الكلام عن العرب فى الأندلس .

اصلاحات هشام :— اهتم هشام بتعمير الأرض وحفر القنوات فى طريق مكة . وفى أيامه ظهرت صناعة الخز (الحرير) والقطيفة . وكان هشام كلفا بالخيل ، وهو أول من أقام لها حلبات السباق من الخلفاء ، كما عنى بصناعة عدد الحرب وملابس الجند .

ومما يؤخذ عليه إمعانه فى الانتقام من العلويين والتنكيل بهم . هذا الى ما عرف عنه من الغلظة وخشونة الطبع وشدة البخل .

سقوط الدولة الأموية

وقيام الدولة العباسية

أسرعت الدولة الأمويه الى الفناء بعد هشام . فقد تولى الوليد بن يزيد ابن عبد الملك الخلافة سنة ١٢٥ هـ . وكان سيء السيرة ارتكب من المعاصى ما أغضب أكابر أهل بيته الذين أساء اليهم وأثار كراهتهم حتى اجتمعوا عليه وقتلوه . وخلفه يزيد ثم ابراهيم ابنا الوليد بن عبد الملك . وفى أيامهما دب

الانحلال الى جسم الدولة الأموية ، ونشطت دعوة العباسيين (أولاد العباس عم النبيّ) فى بلاد خراسان .

ثم تولى الخلافة مروان بن محمد (١٢٧ هـ) آخر خلفاء بنى أمية . وكان شجاعا داهية ، الا أنه كان سيء الحظ . فقد ثارت الفتن والقلاقل فى عهده ، وانتشر الخوارج فى الجزيرة وفلسطين وحضرموت واليمن . بيد أنه ما كاد يفرغ منهم حتى ظهرت الدعوة لبنى العباس . وقد انكشف أمرهم بوقوع كتاب فى يد مروان بن محمد بعث به ابراهيم الأمام (من ولد العباس) الى أبي سلمة الذى كان ينشر الدعوة له فى العراق . فأمر مروان بالقبض على ابراهيم ، وحبسه وقتله . وقد أوصى ابراهيم الامام قبل موته بالخلافة لأخويه أبى العباس ثم أبى جعفر ، وأمر أهله بالرحيل الى الكوفة .

وانما اختـــار العباسيون بلاد خراسان مركزا لدعوتهم ، لبعدها عن دمشق حاضرة الخلافة الأموية . ولأن أهلها قد قاسوا الأمرين من نير الأمويين .

•وقد استطاع أبو مسلم الخراسانى (أحد انصار بنى العباس) بما أوتيه من الدهاء والمهارة أن يفرق بين القبائل العربية فى هذه البلاد . ولمـا أمن اجتماع كلمة العرب فى خراسان حارب نصر بن سيار أمير هذه البلاد من قبل بنى أمية وهزمه .

بعد أن استولى أبو مسلم على خراسان سار الى العراق ودخل الكوفة ونادى بأبى العباس السفاح خليفة .

وقد ندب أبو العباس عمه عبد الله بن على لقتال مروان بن محمد ، فلقيه على إحدى ضفاف الزاب (نهر بالعراق) . وكان مع مروان مائة وعشرون الفا من الجند ، فأوقع بهم عبد الله . فعبر مروان نهر دجلة ومضى الى الموصل ، فقطع أهلها الجسر ومنعوه من العبور ، فســـار الى حرّان ثم الى دمشق . وما زال عبد الله يطارده حتى وصل الى الفسطاط ، فترك عبد الله أمر تتبعه

الى أخيه صالح بن على ، فلحقه فى قرية بوصير فى الفيوم حيث قتله واحتز رأسه وأرسله إلى السفاح بالكوفة .

وبهزيمة مروان بن محمد رفرف العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

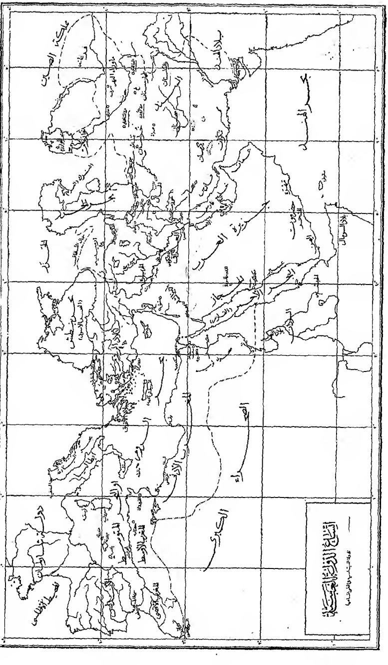
أسباب سقوط الدولة الأموية

نال معاوية الخلافة بحد السيف . وقد استطاع أن يكبح العناصر المعادية له ويهزم الخوارج والشيعة . إلا أنه يؤخذ عليه اهتمامه بالغض من قيمة على بن أبى طالب على المنابر، مما أذكى النيران فى صدور الشيعة . أضف إلى ذلك خلفه الوعد الذى أخذه على نفسه للحسن بن على بأن يترك الأمر شورى للمسلمين من بعده . وقد أدت تولية معاوية ابنه يزيد العهد الى واقعة كربلاء ، مما هاج خواطر المسلمين فمالوا إلى بنى على وفاطمة . وقامت الفتن والثورات ، وخرج على الأمويين عبد الله بن الزبير بمكة والمختار بن أبى عبيد بالعراق . وأذكى العلويون نار الثورة حتى تزعزعت أركان الدولة الأموية .

وقد أدى نظام الوراثة الذى سنّه معاوية إلى حرمان آل البيت من الخلافة مما أغضب الفرس وأثار كراهتهم . ولا غرو فقد كان على زين العابدين بن الحسين من أم فارسية هى ابنة يزدجرد الثالث . ومن ثم أصبحت سلالة الحسين محط أنظار الفرس، لأنها جمعت بين البيت النبوى وأسرة الأكاسرة . ومما زاد سخط الفرس على الأمويين أيضاً تعصب الأمويين للعرب وإهمالهم شأن الموالى (غير العرب) . فقد جعلوا المناصب وقفاً على العرب ، واستمروا يأخذون الجزية من الموالى بعد اسلامهم ، ولم يعطوا الجنود من الموالى عطاءهم رغم ما أقره الاسلام من مبدأ المساواة بين جميع المسلمين .

أضف إلى ذلك إحياء العصبية الجاهلية التى عمل الاسلام على محوها . فقد كان لتعصب بعض خلفاء بنى أمية لبعض القبائل أثر كبير فى انقسام العرب على أنفسهم . وقد وجد أبو مسلم الخراسانى في ذلك فرصة سانحة لنجاح الدولة العباسية .

ومما زاد كراهة المسلمين لحكم بنى أمية انصرافهم عن أمور الدولة ، وانغماس أواخر خلفائهم فى اللهو ، وأخذهم عن البلاط البيزنطى الكثير من المفاسد . أضف إلى ذلك أيضاً ولاية العهد لاثنين يلى أحدهما الآخر. فكان من يعهد اليه بالخلافة أولا يعمل على إقصاء أخيه وأخذ البيعة لابنه مما أدى إلى انشقاق البيت الأموى ، فكان الخليفة الجديد ينتقم من كل من ساعد منافسه ، ففسدت قلوب الناس وغدوا يرقبون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية .



الفصل الرابع

الدولة العباسية فى أزهى عصورها

بقيت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون من سنة ١٣٢ ﻫ (٧٥٠ م) التى تولى فيها أبو العباس السفاح الخلافة ، إلى أن أغار عليها التتار سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨م)، وكان العصر الذى يبتدئ من قيام الدولة العباسية وينتهى بخلافة الواثق بالله سنة ١٣٢ ﻫ (٨٤٩ م) أزهى عصور هذه الدولة، حيث بلغت درجة عظيمة من القوة والمجد ، حتى أطلق على هذا العصر بحق « العصر الذهبى للأسلام »

أبو العباس السفاح

١٣٢ - ١٣٦ ﻫ و ٧٥٠ - ٧٥٤ م

بويع أبو العباس بالخلافة فى الكوفة . فلم يلبث أن انتقل منها إلى الحيرة ثم إلى الأنبار واتخذها عاصمة ملكه ، وأطلق عليها اسم هاشمية الأنبار تخليداً لذكرى جده هاشم . ولم يرغب العباسيون فى البقاء فى دمشق ، لأن بها أتباع بنى امية وأعوانهم ، ولأنها تبعد عن فارس مصدر قوتهم ، ولقربها من حدود الدولة البيزنطية فلم تعد آمنة من غارات جيوشهم .

وقد قضى السفاح مدة حكمه فى تثبيت دعائم ملكه . وتتبين سياسته من أولى خطبه فى الكوفة عند توليته الخلافة . فقد نوه فيها بفضل آل محمد ، وحمل على الأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ونحى باللائمة على جند الشام ، وأطنب فى مدح أهل الكوفة وزاد فى اعطياتهم لأخلاصهم وولائهم لبيت العباس ، وختم خطبته بقوله « أنا السفاح المناح » . وإنما قصد بذلك أن يتوعد كل من يقف فى سبيله وفى سبيل دولته من أعدائه ولا سيما الأمويين .

وقضى السفاح معظم أيامه فى محاربة قواد العرب الذين ناصروا بنى أمية ، كما قضى على كثير من أعقاب هذه الأسرة ، فتتبعهم هو وأخوه

المنصور وأعمامهما . ولم يقفوا عند حد التمثيل بالموتى ، بل قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم . ودبر عبد الله بن عليّ عم السفاح وعامله على بلاد الشام مذبحة للقضاء على أمراء البيت الأموى ، فدعا كثيراً منهم الى وليمة وقتلهم جميعاً .

كذلك فتك السفاح بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته ، فقتل أبا سلمة الخلال الذى ساعد على تأسيس الدولة العباسية حتى لقبه العباسيون بوزير آل محمد ، لما اتهم به من العمل على تحويل الخلافة الى العلويين ، كما هم بقتل أبى مسلم الخراسانى ، لما كان يخشاه على دولته من ازدياد نفوذه ، فحالت منيته دون ذلك . ومات السفاح سنة ١٣٦ هـ بعد أن قضى فى الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر .

أبو جعفر المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م

تولى الخلافة بعد أخيه السفاح . ويعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، فقد وضع نظامها السياسى ، وفى عهده بدأ عصر القوة والعلم اللذين امتازت بهما هذه الدولة فى عصرها الذهبى ، كما ظهر فيها النفوذ الفارسى بأجلى مظاهره ، حيث أخذ الخلفاء فى تقليد الفرس فى مجتمعاتهم وعاداتهم وملابسهم ، وفى نظمهم السياسية التى كانت متبعة لدى الأكاسرة .

وقد صادف المنصور فى أول عهده كثيراً من الصعاب تغلب عليها بما أوتيه من الثبات عند الشدائد ، تلك الصفة التى كفلت له النجاح . وكان من أهم هذه الصعاب خروج عمه عبد الله بن على ، ومناوأة أبى مسلم الخراسانى ، وثورة العلويين .

١ — منافسة عبد الله بن على :— ادعى عبد الله أن السفاح ولاه عهده وأنه وعده بتوليته من بعده إن هو قضى على مروان بن محمد الأموى . وشهد

له جماعة بذلك ، فبايعه بعض الناس . وأبى عبد الله أن يأخذ البيعة للمنصور فندب إليه أبا مسلم لمحاربته . وكان مع عبد الله بالشام سبعة عشر ألفاً من الجنود الخراسانية ، ففتك بهم عبد الله خشية أن ينضموا إلى أبى مسلم الخراسانى . وبذلك أضعف قوته بيده ، فأتيح لأبى مسلم القضاء عليه فحبسه المنصور حتى مات . ويقال إنه دبر قتله بالرغم من الأمان الذى أعطاه له .

مناوأة أبى مسلم الخراسانى : — كان المنصور يضمر الكراهة والبغضاء لأبى مسلم ، لما كان يظهره من الزهو بنفسه وعدم اطاعته أوامر الخليفة وكثرة إراقته دماء المسلمين بلا جدوى ، ولا سيما ما كان يبديه من العصيان لأوامر المنصور . وما زال المنصور يحتال فى الايقاع به حتى أحضره بين يديه ثم قتله غيلة .

٣ — ثورة العلويين :— ظفر العباسيون بالخلافة وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية ، فلم يرق ذلك فى نظر العلويين لما يرونه فى أنفسهم من أحقيتهم بالخلافة ، فنابذوا العباسيين العداء . وقد ظهر محمد بن عبد الله العلوى فى الحجاز سنة ١٤٥ ﻫ ، وبايعه الناس بالخلافة ، وأرسل أخاه ابراهيم لنشر الدعوة له فى البصرة ، فحاربه المنصور وقتله . فقام أخوه ابراهيم ودعا لنفسه فى العراق وفارس، فآل أمره إلى ما آل اليه أمر أخيه من قبل (١٤٦ﻫ)

سياسته الخارجية

١ — مع الدولة البيزنطية :— انتهز البيزنطيون فرصة ضعف الأمويين لشن الغارة على البلاد الاسلامية المتاخمة لبلادهم . وقد أغار الامبراطور البيزنطى على بلاد الشام فى عهد المنصور سنة ١٣٨ ﻫ ، فردهم العباسيون ، وانتهت هذه الحرب بعقد هدنة أجلها سبع سنين . فلما فرغ المنصور من ثورة العلويين استأنف القتال مع البيزنطيين ، فاضطر الأمبراطور إلى طلب الصلح سنة ١٥٥ ﻫ على أن يؤدى إلى الخليفة العباسى جزية سنوية .

٢ — مع بلاد الأندلس :— خرجت بلاد الأندلس على الدولة العباسية سنة ١٣٨ هـ أثر تأسيس الدولة الأموية فيها على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . ولم يكن فى استطاعة المنصور اخضاع هذه البلاد لبعدها عن مركز الخلافة العباسية وانشغاله باخماد الفتن والثورات فى بلاده، فتحالف مع بيبين ملك الفرنجة ، وتبادل معه السفراء والهدايا ، وحرضه على قتال عبد الرحمن .

٣ — مع إفريقية : - استاء البربر فى شمال إفريقية من ظلم ولاتهم من العرب ، لأنهم لم يعاملوهم معاملة النظير للنظير بل معاملة السيد للمسود على الرغم من اعتناقهم الاسلام . فانتهزوا فرصة ضعف الخلافة الأموية وكونوا ولايات مستقلة . وسرعان ما انقسم أمراء البربر على أنفسهم ، فانتهز المنصور هذه الفرصة واستولى على بلاد المغرب سنة ١٤٤هـ ، وصارت مدينة القيروان تسقط فى أيدى العرب حينا وفى أيدى البربر حينا آخر حتى استردها العباسيون نهائياً سنة ١٥٥ هـ .

إصلاحات المنصور

أسس المنصور هاشمية الكوفة واتخذها حاضرة لملكه . ولم يلبث أن أسس بغداد لما كانت تمتاز به من قربها من البحر ، وقبضها على ناصية دجلة والفرات ، وتوسطها بين الولايات الاسلامية . كما بنى مدينة الرُّصافة على الجانب الشرقى من دجلة قبالة بغداد وجعلها معسكراً لجنوده .

وقد شجع المنصور العلماء على التأليف وترجمة الكتب من الفارسية والاغريقية والهندية إلى العربية . وكان مغرماً بالطب والفلك والرياضيات . فغدت بغداد كعبة العلوم والآداب ، وظهر من نوابغ الكتاب والمترجمين فى عهده ابن المقفع مترجم كتاب كليلة ودمنة .

وكان المنصور ميالا بطبعه إلى النظام معروفاً بالجد فى بلاطه والتيقظ والاهتمام بأمر عماله . يدل على ذلك قوله : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم . فقيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نقصت واحدة تداعى وهى : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى ، والرابع ، ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه . قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ فقال : صاحب بريد يكتب إلىّ بخبر هؤلاء على الصحة » .

وقد أحسن المنصور استخدام ولاة البريد ، فكانوا عيوناً له وعوناً على الاشراف على أمور دولته . وبهم كان يقف علىَ أعمال الولاة ، وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام وما يرد بيت المال من الأموال وما إلى ذلك . كما كان ولاة البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب ومأكولات وغيرها . لهذا كان شديد الاتصال بولاته ، يوقف القاضى عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى حاله الأولى إذا غلا ، وإن رأى تقصيراً فى أحدهم وبخه ولامه ، أو عزله عن عمله .

واشتهر المنصور بميله إلى الاقتصاد فى النفقات والاعتدال فى العطاء ، وترك فى خزائن الدولة من الأموال ما يعادل خراجها عشر سنين . ويؤخذ عليه ميله إلى سفك الدماء وغدره بمن أمنه .

وتوفى المنصور سنة ١٥٨ هـ فخلفه ابنه المهدى .

المهــــدى

١٥٨ - ١٦٩ هـ و ٧٧٥ - ٧٨٥ م

ظل المهدى فى الخلافة زهاء عشر سنين . وتعتبر خلافته فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع اللذين سادا فى عهد من سبقه من خلفاء بنى

العباس وبين عهد الاعتدال واللين اللذين امتازت بهما أيامه وأيام من اتى بعده من الخلفاء .

سياسته الداخليـــــة

بدأ المهدى عهده بسلسلة من ضروب الاصلاح ، واستعان فى ذلك بما تركه له أبوه من الأموال . فمن إصلاحاته إقامة الأبنية فى طريق مكة لسقاية القوافل ، وزيادته فى المسجد الحرام ، كما أجرى الأرزاق على العجزة لمنع الشحاذة ، وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن بغالا وإبلا وأدخل عليها ضروباً من التحسين . هذا إلى ما اشتهر به المهدى من الميل إلى الجود والكرم حتى بلغ فى ذلك حد الأسراف .

ولم يكن المهدى بالرجل المعتدل فى كل أطواره . فكثيراً ما اشتط فى قسوته على الخارجين عليه ، ولاسيما الزنادقة الذين ظهروا فى أيامه وأباحوا المحرمات وعبثوا بالآداب . فقد عمل المهدى على القضاء على هذه الطائفة ، فأنشأ ديواناً عهد به إلى رجل أطلق عليه « صاحب الزنادقة » ، مهمته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم . وكان المهدى سنيا غاليا ، فنزع المقاصير فى صلاة الجماعة وجعلها على القدر الذى كان عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سياسته الخارجيـــــة

كانت الدول تهاب الدولة الاسلامية فى عهد المهدى لعظمتها وقوة سلطانها . وقد استفاد شارل مارتل ملك فرنسا من هذا الخلاف الذى ساد بين العباسيين والأمويين فى الأندلس ، فتقرب إلى الخليفة العباسى ليقوى على مناهضة الدولة البيزنطية .

<u>مع البيزنطيين</u> : — لم تنقطع الحروب بين العباسيين والبيزنطيين فى عهد المهدى . فقد أغار المسلمون على بلاد الروم وبلغوا أنقرة ، فثأر امبراطورهم لبلاده وأغار على الحدود الشامية وهزم جيوش المسلمين . ثم أراد المهدى أن يثأر بدوره ، فجمع سنة ١٦٣ هـ جيشاً كثيفاً ولى قيادته

ابنه هارون ، وضم إليه خالد البرمكى ، فاكتسح كل ما صادفه من البلاد واستولى على حصن سمالا . وفى سنة ١٦٥ هـ أعاد المهدى الكرة ، فأرسل جيشاً آخر بقيادة هارون وصل إلى سواحل البسفور وأرغم الملكة أيرينى Iréné على أن تدفع إلى المسلمين ٩٠٫٠٠٠ ديناراً جزية سنوية . وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين أمدها ثلاث سنين .

فى بلاد الهند :ــ وقد وجه المسلمون الحملات إلى بلاد المشرق . فتوغلوا فى بلاد الهند وأشعلوا النار فى تمثال بوذا وأتباعه . بيد أن هذه الغزوة كانت وبالا على جند العباسيين ، فقد فشا الموت فيهم ودمرت الزوابع سفنهم فى الخليج الفارسى .

وتوفى المهدى سنة ١٦٩ هـ بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه موسى الهادى ومن بعده إلى هارون فآلت الخلافة إلى الهادى .

الهادى

١٦٩ - ١٧٠ هـ و ٧٨٥ - ٧٨٦ م

قضى الهادى أكثر أيامه قبل توليته الخلافة فى بلاد المشرق ، وأتته البيعة وهو يحارب هناك . وكان لذلك أثر كبير فى سياسته وأخلاقه وآدابه .

العلويون :ــ وقد خرج فى المدينة الحسين بن على من سلالة الحسن ابن على ، والتف حوله الشيعة فى المدينة وقصدوا دار الأمارة ، وكسروا السجون وأخرجوا من فيها ، ودعا الحسين إلى نفسه فى المدينة ، ثم خرج إلى مكة حيث التقى بجيش العباسيين بوادى فخ ، فقتل هو وبعض أهل بيتــه .

ولم تكن موقعة فخ أقل هولا من موقعة كربلاء . وكانت هذه الموقعة بعيدة الأثر فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد هرب منها رجلان كان لهما شأن

كبير مع العباسيين ، أحدهما يحي بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه أدريس الذى كون دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى .

الزنادقة والخوارج :— وقد ورث الهادى عن أبيه كراهته للزنادقة ، فعمل على استئصال شأفتهم وضرب على أيدى الخوارج الذين ثاروا فى بلاد الجزيرة(١) .

وتوفى الهادى سنة ١٧٠ فخلفه أخوه هارون . وقد فكر الهادى فى خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال حاشيته . بيد أن يحي بن خالد بن برمك نصح له أن يعدل عن هذا الأمر لصغر سن ابنه جعفر واحتراماً للعهد الذى أخذه على نفسه حين ولاه أبوه العهد ، فلم يحفل بهذه النصيحة وزج البرمكى فى السجن وهمّ بقتله لولا أن حالت منيته دون ذلك .

هارون الرشـــــيد

١٧٠ - ١٩٣ ﻫ و ٧٨٦ - ٨٠٩ م

يعتبر الرشيد من أشهر الخلفاء العباسيين . ولا غرو فقد بلغت بغداد فى عهده درجة لم تصل اليها من قبل ، فأصبحت مركز التجارة كما غدت محط رجال العلم والأدب والفنون.

سياسته الداخلية

أراد الرشيد أن يستميل اليه العلويين ، فاتبع معهم سياسة اللين والحزم، وفك أسر كثير ممن كان منهم ببغداد . ولكن أفراد البيت العلوى لم يعدلوا عن اعتقادهم بأحقيتهم بالخلافة والعمل للحصول عليها . فظهر فى بلاد

(١) وكان الهادى شجاعا حازما . فقد أرادت أمه الخيزران أن تستأثر بما كان لها من النفوذ فى أيام أبيه الهادى ، فخاطبته يوما فى مسألة ، فنهاها عن التدخل فى شئون الدولة وقال لها : « أما لك مشغل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك ؟ إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم أو ذمى ». ولما حضرته الوفاة بعث فى طلب أمه وقال لها : « قد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أوجبته سياسة الملك لاموجبات الشرع من برك ، ولم أك بك عاقا بل كنت لك صائنا وباراً واصلا » .

الديلم (جنوب بحر قزوين) يحيى بن عبد الله من أولاد الحسن بن على ، واجتمع به كثير من الديلم حتى غدا أمره من الخطر بحيث هدد الدولة العباسية . فعمل الرشيد على القضاء على يحيى وعلى دعوته ، فوجه إليه الفضل ابن يحيى البرمكى فى خمسين ألف جندى ، فسار الفضل على نهج الرشيد فى سياسة اللين ، وأخذ يرغب يحيى فى الصلح . فطلب يحيى أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه وأن يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم ، فأجابه الرشيد الى ما طلب وأرسل الأمان اليه مع الهدايا والتحف . ثم قدم يحيى مع الفضل ، فقابله الرشيد بالحفاوة والاكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه فى داره ونقض الأمان الذى أعطاه له وتخلص منه .

وقد اتبع الرشيد مع ادريس بن عبد الله نفس هذه السياسية. فقدالتف حوله البربر فى بلاد المغرب سنة ١٧٢ ﻫ . فأرسل الرشيد اليه رجلا معروفا بالدهاء وأمره أن يتقرب اليه وأن يظهر بمظهر الحنق والسخط على العباسيين وعلى حكمهم . وقد تقرب هذا الرجل من إدريس حتى صار من خواصه ، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ﻫ . ولكن خطر الأدارسة لم ينته بموت إدريس ، فقد بايع أنصاره ابنه الصغير « إدريس » .

ولم يكد يفرغ الرشيد من العلويين حتى قامت فى وجهه ثورات داخلية أخرى فى الموصل وسوريا وأرمينية وخراسان ، فقضى عليها . ولم يستعص عليه سوى البربر فى شمال إفريقية . فرأى الرشيد من حسن السياسة أن يقر ابراهيم بن الأغلب على إمارة هذه البلاد على أن يكون تابعا للعباسيين . وإنما قصد بسياسته هذه تأديب البربر من جهة والوقوف فى وجه الأدارسة اذا ما أرادوا اقتطاع أراضى الدولة العباسية من جهة أخرى . وبذلك قامت دولة الأغالبة التى اتخذت القيروان مقرا لها .

سياسته الخارجية

كانت سياسة الرشيد ترمى الى توطيد دعائم السلام فى أراضى الدولة

الاسلامية . فاتبع سياسة سلمية مع امبراطورية الصين المتاخمة لحدود الدولة من الشرق وتبادل مع ملوكها الهدايا . ثم اتخذ الرشيد طرسوس مركزا لقيادة جيوشه ، وعهد إلى أحد قواده الأتراك بشن الغارة على البيزنطيين فى آسيا الصغرى . إذ كانوا يغيرون على حدود الدولة الأسلامية من حين الى آخر . وكان الرشيد يقود بعض الحملات بنفسه ، وساعده على ذلك نقل حاضرة ملكه الى مدينة الرقة القريبة من حدود الدولة البيزنطية . ففى سنة ١٨١ ﻫ سار الرشيد بنفسه على رأس جيش كثيف وانتصر على البيزنطيين فى كثير من المعارك حتى وصل إلى أنقرة . واستولى أسطول المسلمين على جزيرتى إقريطش وقبرص . فاضطرت الملكة أيرينى الى عقد هدنة مقابل دفع الجزية. ولما ماتت أيرينى نقض خلفها شروط الهدنة وعادت الحرب سيرتها الأولى بين العباسيين والبيزنطيين ، واستولى الرشيد على مدينة هرقلة وأرغم البيزنطيين على دفع الجزية . على أن هؤلاء قد أخذوا يتحينون الفرص لشن الغارة على البلاد الاسلامية ، وبذلك لم تهدأ ثائرة الحروب بين الفريقين .

وقد وجد الرشيد من حسن السياسة أن يتحالف مع الأمبراطور شرلمان ، لكى يشغل البيزنطيين عن الدولة العباسية ويقف فى وجه الأمويين فى الأندلس . وتبادل الرشيد وشرلمان الهدايا ، وكان من بينها تلك الساعة المائية الدقاقة التى ظنها الأوروبيون آلة سحرية ، ثم أرسل الرشيد الى شرلمان مفاتيح كنيسة بيت المقدس . وكان من أثر ذلك أن ادعى الفرنجة فيما بعد حق حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين والمسيحيين الذين يفدون الى هذه البلاد لأداة فريضة الحج .

نكبة البرامكة

كان البرامكة من أسرة فارسية عريقة فى الشرف والمجد . وقد اتخذ السفاح والمنصور من بعده خالد بن برمك وزيرا له ، واستوزر الرشيد يحي بن خالد . فاستعان يحي بأولاده الأربعة وهم جعفر والفضل ومحمد وموسى ؛ ووثق بهم الرشيد وفوض اليهم أمور الدولة . فكان الفضل (وهو

أكبرهم) عضد أبيه ينوب عنه فى جلائل أعماله. وقد أرضعته أم الرشيد كما أرضعت أمه الرشيد ، ولما ولد الأمين جعله الرشيد فى حجر الفضل ليقوم بتربيته . وأما جعفر بن يحي فقد ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٦ ﻫ وندبه لقمع الفتن فى الشام سنة ١٨٦ ﻫ ، ثم أسند اليه ولاية خراسان ، وولاه بعد ذلك حراسة الجيش ، وكانت له مكانة كبيرة فى نفس الرشيد .

فلا عجب اذا انصرف الناس إلى البرامكة ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتغنى بكرمهم وجودهم الذى أصبح مضرب الأمثال . وسرعان ما قلب الدهر لهذه الأسرة ظهر المجن ؛ فقد أحفظ الرشيد ما وصلوا اليه من النفوذ والجاه والسلطان . حتى بلغ من أمرهم أنه كان يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه . واعتقد أنهم شاركوه فى سلطانه . ولا غرو فقد قوى نفوذهم ، فانصرفت نحوهم الوجوه حتى لم يبق للرشيد من الخلافة إلا اسمها. وأظهر الفضل وجعفر من الزهو ما زاد فى غضب الرشيد على البرامكة . أضف الى ذلك سعاية أعداء البرامكة بهم عند الرشيد واتهامهم بالاستبداد بالملك واغتصاب الأموال .

جاءت بعد ذلك حادثة يحي بن عبد الله العلوى . فقد قيل إنه وشى به عند الرشيد بعد أن أعطاه الأمان ، فحبسه عند جعفر البرمكى ، فأطلقه لأنه كان يميل الى العلويين . ولما علم الرشيد بذلك حقد على جعفر . هذا الى ماعلمه الرشيد من مساعدة البرامكة لعبد الملك بن صالح العباسى الذى كان يدعو إلى نفسه .

لهذا كله غضب الرشيد على البرامكة وعول على الايقاع بهم ، فأمر بجعفر بن يحي فضربت عنقه ، ثم أودع أبوه وغيرهمن ذوى قرباه وأصحابهم السجن ، وحبس معهم عبد الملك بن صالح . وهكذا كانت خاتمة هذه الأسرة التى كان لها اكبر الأثر فى تقدم الحضارة الاسلامية فى عهد الرشيد .

٭٭٭

توفى الرشيد سنة ١٩٣ ﻫ وهو بطرسوس بعد أن عهد بالخلافة الى الأمين وولاه على القسم الغربى للدولة ، كما جعل ابنه المأمون على بلادفارس وابنه القاسم على أرمينية والجزيرة ، وأوصى بالخلافة للمأمون بعد الأمين مع أن الأمين أصغر من المأمون .

الأمين والمأمون

١٩٣ - ٢١٨ ﻫ و ٨٠٩ - ٨٣٣ م

تولى الأمين الخلافة عقب وفاة أبيه الرشيد سنة ١٩٣ ﻫ ، فترك أمور الدولة فى يد وزيره الفضل بن الربيع . وقد عرف الفضل بالمكايد والدسائس ، وهو الذى حرض الرشيد على الايقاع بالبرامكة ، كما أوقع الفرقة بين الأمين والمأمون . وأول ماقام به فى سبيل بذر بذور الشقاق بين الأخوين أن سلم للأمين كل ما فى معسكر الرشيد مع أنه أوصى به للمأمون ، ثم حرض الأمين على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد وتوليته ابنه اسحق . وبذلك نقض الأمين العهد الذى أخذه على نفسه مما أغضب الخراسانيين وغيرهم من أهل الأمصار الاسلامية لما عرف به المأمون عندهم من الورع وحسن السيرة .

لذلك قاموا فى وجه الأمين ، واشتعلت نيران الفتنة ودارت الحرب بين الأخويين وانتهت بتغلب طاهر بن الحسين قائد المأمون على الأمين وقتله وتحول الخلافة الى المأمون سنة ١٩٨ ﻫ .

وكان انتصار المأمون على الأمين فى الحقيقة انتصاراً للفرس على العرب وزوال نفوذ العنصر العربى . فقد كان المأمون يميل إلى الفرس ، لأن أمه كانت فارسية الأصل ، ولأنه وصل الى الخلافة بمعونتهم . لذلك زاد نفوذ الفرس وعظمت شوكتهم فى عهد المأمون .

سياسته مع العلويين :— وقد تأثرت نفس المأمون بالآراء الفارسية ، فمال أول الأمر الى العلويين ، واتخذ اللون الأخضر شعارهم ، وأمر المسلمين

باتخاذه بدل السواد شعار العباسيين ، كما صاهر « عليا الرضا » العلوى وولاه عهده وقرب العلويين . وانما أراد بذلك أن يكسب رضاء الفرس وإخلاصهم لأنهم يعتقدون أن العلويين هم وحدهم أحق بالخلافة .

وكان المأمون بخراسان فى ذلك الوقت . فلما علم أهل بغداد بذلك هاجوا وبايعوا ابراهيم بن المهدى ، فلم ير المأمون بدأ من مغادرة مرو عاصمة خراسان والرحيل إلى بغداد . ودخل المأمون بغداد وعاد إلى السواد شعار العباسيين ، واكتسب بذلك رضاء أهل العراق عامة وأهل بيته خاصة ، ففر ابراهيم بن المهدى . بعد أن بقى فى الخلافة سنتين ، فعفا عنه المأمون وقربه اليه

وقد زاد نفوذ العنصر الخراسانى فى عهد المأمون ، وقام البيت الطاهرى على يد طاهر بن الحسين الذى فتح بغداد وقتل الأمين . وبذلك استقلت هذه الأسرة بحكم خراسان استقلالا داخلياً .

وفى عهد المأمون قامت فى بلاد الفرس بعض طوائف دينية أباحت كثيراً من المحرمات وأفسدت عقول الناس وعكرت صفو الدولة زمناً . فحاربهم المأمون ، واستمر شرهم الى عهد المعتصم (كما سيأتى) ، كما أذكى أهل مصر نار الثورة ، فخرج المأمون بنفسه الى هذه البلاد وأعاد اليها السكينة .

عنايته بالعلوم :— وكان المأمون رجلا مثقفاً يميل الى حرية الفكر والبحث . وقد رأى أن الخلاف فى المسائل الدينية قد فرق الأمة شيعا ، فعقد مجالس للمناظرة حضرها العلماء فى حضرته ليحمل الجمهور على الاجتماع على رأى واحد .

ولم يقتصر اهتمام المأمون على العلوم الدينية، بل شجع العلم والأدب حتى كثر فى عهده الشعراء والمغنون وعلماء الكلام ، واهتم بالترجمة من اللغات الاجنبية وخاصة اليونانية والفارسية ، فترجم فى عهده كثير من الكتب فى الفلسفة والطب والفلك والهندسة والموسيقى ، وأرسل البعوث إلى القسطنطينية لنقل الكتب إلى العربية .

وتوفى المأمون فى مدينة طرسوس أثناء قتاله مع البيزنطيين بعد أن عهد بالخلافة الى أخيه أبى اسحق محمد بن الرشيد .

المعتصم والواثق

٢١٨ - ٢٣٢ هـ و ٨٣٣ - ٨٤٧ م

الأحوال الداخلية : — سار المعتصم فى إثارة المناقشات فى المسائل الدينية ثم أكثر من الموالى من الأتراك حتى بلغ عددهم ٧٠٫٠٠٠ ، اتخذهم حرساً له ، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء . فدب دبيب الغيرة والحسد فى نفوس القواد وبخاصة العرب ، فعملوا على التخلص من المعتصم واغروا العباس (ابن أخى المعتصم) على المطالبة بالعرش ، ودبروا المكايد لخلعه ، فقضى المعتصم على هذه المؤامرة وقتل العباس .

وكان من أثر هذه المؤامرة أن أقصى المعتصم القواد من العرب والفرس تدريجيا ومحا أسماءهم من ديوان العطاء ، واعتمد على قواده الأتراك ، وقد قويت شوكتهم واشتد بأسهم وأذاهم للناس . فعمل المعتصم على تلافى ذلك الشر وبنى مدينة سامرّا (سر من رأى) شرقى دجلة ونقل عاصمة ملكه اليها . وكان من جراء انشغال المعتصم باخماد الثورات أن اضطرب حبل الأمن فى بعض جهات الدولة .

الأحوال الخارجية : — انتهز امبراطور الدولة البيزنطية فرصة انشغال المعتصم باخماد الثورات الداخلية ، فتوغل فى أراضى آسيا الصغرى وعاث فساداً فى قلب سوريا ، وغلا فى القتل والتخريب . فقام المعتصم سنة ٢٢٣ هـ فى مائتى ألف مقاتل وعسكر فى مدينة طرسوس وفتح كثيراً من حصون البيزنطيين ، ثم سار إلى مدينة عمورية من أمهات مدن آسيا الصغرى واستولى عليها وقتل كثيراً من أهلها ، وتركها للنهب والتدمير والاحراق أربعة

أيام كاملة ، وافتدى اشرافها ونبلاؤها أنفسهم بمبالغ كبيرة .

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧هـ (٨٤٢م) بعد أن نكب الدولة العباسية بالأتراك الذين غدوا مصدر المصائب التى حلت بالدولة فيما بعد ، فخلفه ابنه الواثق .

وقد شارك الواثق أباه المعتصم فى ميله الى الفرس . وفى عهده ثار الخوارج فى الحجاز والأكراد فى الموصل، كما قامت الثورات فى بلاد العرب وسوريا ، فدبر أهل بغداد مؤامرة لعزله . وكان الواثق بالرغم من ذلك محباً للعلم ، وقد أفرد مجلساً للمناظرة فى قصره . فنبغ فى عهده كثير من العلماء والشعراء .

وتوفى سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) . فانتهى بموته العصر الذهبى للدولة العباسية وأخذت هذه الدولة فى الضعف والانحلال .

٢ – أسباب اضمحلال الدولة العباسية

آثر العباسيون الفرس بالمناصب المدنية والعسكرية . فاتخذوا منهم الوزراء والقواد والولاة وغيرهم ، فسخط العرب على خلفائهم وانصرفت قلوبهم عنهم . ومما زاد حقدهم أنهم مثلوا ببنى أمية . وناصبوا العلويين العداء . ولا غرو فقد سار معظم الخلفاء العباسيين على هذه السياسة مع أن دولتهم إنما قامت باسم العلويين الذين تعاونوا معهم فى العمل على إسقاط الدولة الأموية . وكان من أثر هذا العداء أن قامت الفتن والثورات فى البلاد الاسلامية .

ومما أثار خواطر المسلمين تمسك بعض الخلفاء (كالمأمون والمعتصم والواثق) بالبدع الدينية والآراء الفلسفية مما أدى إلى قيام المذاهب المختلفة وفرق كلمة الأمة ومزق وحدتها . وقد اتبع بعض الخلفاء العباسيين نظام تولية العهد اثنين يلى أحدهما الآخر كما فعل الأمويون ، فانقسمت الأسرة المالكة على نفسها .

أضف إلى ذلك اعتماد بعض هؤلاء الخلفاء على الأتراك الذين طمعوا فى

انتزاع السلطة من الخلفاء حتى أصبحت الدولة ميداناً للدسائس والخيانة . وقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك وتغلغل نفوذهم فى جسم الدولة حتى غدا الخلفاء فريسة لثورات الجند . فاختل توازن الدولة وسادتها الفوضى وأصبح الخلفاء ألعوبة فى يد القواد من الأتراك . وكثيراً ما كان يقع النزاع بين الجنود من الأتراك والأهالى . ومما زاد الحالة سوءاً وقوع التنافس والتشاحن بين القواد .

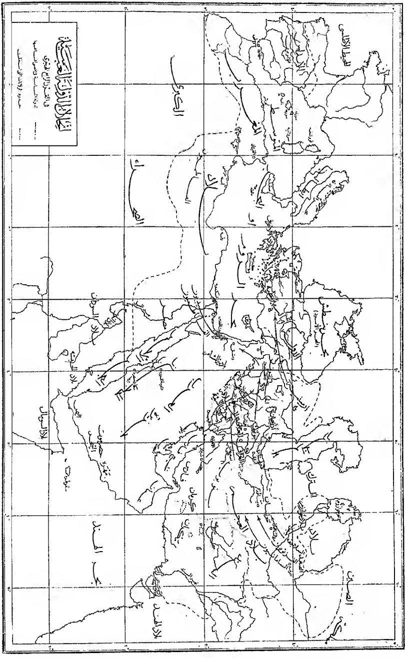
وقد انتهز ولاة الأقاليم فرصة ضعف الحكومة المركزية فى بغداد فاستقلوا بأقاليمهم ، وبذلك انفرط عقد الدولة العباسية وقامت على انقاضها دويلات كثيرة .

٣ ــ الدول التى قامت على انقاض الدولة العباسية

استقل عبد الرحمن الداخل ببلاد الأندلس سنة ١٣٨ ﻫ (٨٥٦ م) والدولة العباسية لا تزال فى عنفوانها وعظمتها . ثم تأسست دولة الأدارسة فى مراكش (١٧٢ — ٣١١ ﻫ و ٨٨٨ — ٩٢٣ م) فى عهد هارون الرشيد ، كما منح الرشيد ابراهيم بن الأغلب استقلالا داخلياً فى تونس ، فقامت دولة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ ﻫ و ٨٠٠ — ٩٠٨ م) فى بلاد المغرب ، وقامت الدولة الطاهرية فى خراسان (٢٠٥-٢٥٩ ﻫ و ٨٢٠ - ٨٧٢ م) فى أيام المأمون .

وقد زادت حركة الخروج على الدولة العباسية على أثر ضعف الخلفاء العباسيين واستبداد الأتراك بالسلطان ، فاستقل الطولونيون بمصر (٢٥٤-٢٩٢ ﻫ و ٨٦٨ - ٩٠٥ م) ثم الاخشيديون (٣٢٣ - ٣٥٨ ﻫ و ٩٣٥ - ٩٦٩ م) حتى فتحها الفاطميون سنة ٣٥٨ ﻫ (٩٦٩ م)

وقيام هذه الدويلات وإن كان مظهراً من مظاهر ضعف الدولة العباسية الا أنه كان له أثر كبير فى الحضارة الأسلامية . فقد ظهرت مراكز أخرى



تنافس العباسيين مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة العلماء والشعراء بعد أن كانت بغداد وحدها مركز هذه الحضارة .

كذلك قامت فى بلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر (التركستان) دويلات عدة أهمهــا :

الدولة الصفّارية

٢٥٤ - ٢٩٠ هـ و ٨٦٨ - ٩٠٣ م

أسس هذه الدولة يعقوب بن الليث الصفار (الذى يشتغل بعمل النحاس) على انقاض الدولة الطاهرية بخراسان . ولم يرد فى أول أمره أن يستقل عن الدولة العباسية ، وإنما كان يرغب فى أن يولى أميراً عليها من قبل الخليفة ليتمكن بذلك من الاستيلاء على ما بيد آل طاهر ، فأقره الخليفة على هذه البلاد . غير أنه لم يكتف بهذا ، ففتح بلاد فارس وأراد الشخوص إلى دار الخلافة ، فحاربه الخليفة وهزمه ورده إلى بلاد فارس .

وقد بقيت هذه الدولة ٣٦ سنة .

الدولة السامانية

٢٦١ - ٣٨٩ هـ و ٨٧٤ - ٩٩٩ م

تنسب هذه الدولة إلى اسماعيل بن سامان ، وهو من أسرة فارسية عريقة فى المجد . وقد نال حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاه بلاد ما وراء النهر . ولما ضعفت الدولة العباســـية استقل بهذه البلاد ، ثم استولى على أملاك الدولة الصفارية .

ولأمراء السامانيين فضــل كبير فى تشجيع العلوم والآداب وبخاصة الأدب الفارسى . وقد نبغ فى عهدهم كثير من العلماء وضعوا كتباً كثيرة فى الطب والفلك والفلسفة . ويروى ابن سينا الفيلسوف أنه رأى بمكتبة بخارى

حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل وذلك عند زيارته لتلك المدينة .

دولة بني بويه

٣٣٤ - ٤٤٧ هـ و ٩٤٥ - ١٠٥٥ م

أسس هذه الدولة علي والحسن وأحمد أولاد بويه من زعماء بلاد الديلم (في الجنوب الغربي من بحر قزوين) . وقد ظهر أمرهم في أوائل القرن الرابع الهجري حيث دخلوا في خدمة أحد قواد الديلم وكان له النفوذ في جهات قزوين وفارس ، ونالوا الحظوة عنده حتى صار لهم النفوذ في جنوب فارس وشرق العراق .

ولما حل الاضطراب في بغداد كتب الخليفة العباسي الى علي بن بويه يستنجد به ، فسار بنو بويه إلى بغداد وقابلهم الخليفة واحتفى بهم ولقب علياً « عماد الدولة » وحسنا « ركن الدولة » واحمد « معز الدولة » ، كما أمر أن تكتب أسماؤهم وألقابهم على السكة . ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهي في بغداد ، ولم يعد للخليفة من مظاهر الخلافة سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ، وذلك لأغراض سياسية . وكان الغرض من ذلك احتفاظ الحكام بمراكزهم أمام الرأي العام .

وأول من تولى من بني بويه هو معز الدولة احمد بن بويه ، وكان أصغر اخوته . وفي عهده ظهر التنافس بين جنود الديلم والأتراك مما كاد يؤدي إلى خلعه ، هذا إلى ماكان من الانقسامات التي ظهرت بين السنة والشيعة (وكان بنو بويه شيعة متطرفين) ، حتى أصبحت بغداد وبلاد فارس والري ميدانا للقلاقل والاضطرابات .

وقد انتهز البيزنطيون فرصة ضعف الدولة العباسية ، فاستعادوا مافقدوه في آسيا الصغرى والجزيرة وعبروا الفرات وهددوا بغداد .

وظلت السلطة الفعلية فى يد بنى بويه ١٣٠ سنة فى العراق والجزيرة وفارس وجهات بحر قزوين، فساعدوا على تقدم العلوم والمعارف، وقصدهم الكتاب والشعراء وأنشأوا المعاهد ومنحوا العلماء وطلبة العلم الجوائز العلمية للتفرغ للبحث والدرس.

وكانت هناك ثلاث دويلات إسلامية تعاصر الدولة البويهية فى العراق: هى الدولة الغزنوية فى أفغانستان والحمدانية فى سوريا والفاطمية فى مصر.

الدولة الغزنوية

٣٥١ - ٥٨٢ ﻫ و ٩٦٢ - ١١٨٦ م

أسس هذه الدولة البتكين (وكان مملوكا تركياً) فى مدينة غزنة من بلاد أفغانستان. ولأحد أحفاده محمود (٣٨٨ - ٤٢٤ﻫ) شهرة عظيمة فى التاريخ. وجه محمود همته بعد أن قضى على الدولة السامانية إلى الاغاره على شمال الهند، فغزاها ثلاث عشرة مرة واستولى على قسم كبير منها، فازداد انتشار الاسلام فى تلك الجهات كما امتدت املاكه إلى لاهور وسمرقند وشمال فارس.

الدولة الحمدانية

٣١٧ - ٣٩٤ ﻫ و ٩٢٩ - ١٠٠٣ م

بينما كانت الولايات الاسلامية فى الشرق فى أيدى الأتراك والفرس كانت لا تزال هنـــاك أسرات عربية تحكم جهات أخرى فى غرب الدولة العباسية. وكان من بين هذه الأسر أسرة الحمدانيين فى الموصل والشام. ففى القرن الرابع الهجرى استولى سيف الدولة الحمدانى على شمال الشام واتخذ مدينة حلب عاصمة لملكه. وظل سيف الدولة نحو ثلاث وعشرين سنة فى نضال مع الروم فى آسيا الصغرى.

ولكن ملكه الصغير مالبث أن اقتسمه البيزنطيون فى الشمال والفاطميون فى الجنوب ومع ذلك فان سيف الدولة قد استطاع على قصر عهده وقلة

موارد دولته أن ينشر العلم ، فنبغ فى عهده كثير من العلماء والشعراء ، نخص بالذكر منهم أبا الطيب المتنبى وأبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى الذى أجازه عليه سيف الدولة بألف دينار .

الدولة السلجوقية

٤٤٧ - ٦٥٦ هـ و ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م

تنتسب هذه الدولة الى سلجوق أحد زعماء بلاد التركستان . وقد رحل منها إلى بخارى ثم اعتنق الاسلام ، وغزا حفيده طغرلبك بلاد خراسان واستولى على الولايات الغربية للدولة الغزنوية ، كما أدخل تحت سلطانه أملاك بنى بويه ، ثم استولى على العراق ودخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ

ولما كان السلاجقة يدينون بالمذهب السنى - وهو مذهب العباسيين - تركوا للخلفاء كثيرا من النفوذ ولم يستبدوا بهم كما فعل بنو بويه .

والى السلاجقة يرجع الفضل فى تجديد قوة المسلمين وإعادة تكوين وحدتهم السياسية ، ولهم أهمية خاصة فى التاريخ لقيام الحروب الصليبية فى أيامهم . وقد امتد سلطان السلاجقة على بلاد الروم فى آسيا الصغرى (أرضروم) وأسسوا دولة سلجوقية عظيمة (بقونية) ، فخاف البيزنطيون على ما بقى لهم من الأملاك فى آسيا . كذلك امتد ملك هذه الدولة على بلاد سوريا وأنشأوا بها دولة حاضرتها دمشق .

ولكن سرعان ما تفرقت كلمة السلاجقة بعد موت السلطان ملكشاه وانقسمت دولتهم بين أولاده وأقاربه الذين كان يعينهم أمراء ويطلق عليهم اسم « الأتابكة » (جمع أتابك . و « أتا » معناه المربى و « بك » معناه الأمير) .

وقد شجع ملكشاه الحضارة الاسلامية ، وساعد على تقدمها لحفر الترع وحصن المدن وأقام الجسور ، كما ولع بالفلك . وشجع دراسة العلوم الدينية ، وذلك بمعونة وزيره العظيم نظام الملك (الفارسى الأصل) الذى أسس فى بغداد

ونيسابور المدرستين الشهيرتين اللتين تعرفان باسمه (المدرسة النظامية) ، كذلك أسس المدرسة الحنفية فى بغداد .

وقد أخذت دولة السلاجقة بعد ملكشاه فى الضعف والانحلال حتى أغار عليها التتار (المغول) بقيادة زعيمهم هولاكو الذى فتح بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨ م) بعد حصار دام خمسين يوماً . وقد أسر التتار الخليفة المستعصم وذبحوا السواد الأعظم من الأهلين كما تذبح الشياه ونهبوا المدينة وأضرموا النيران فيها. فأتلفت المساجد والقصور والمساكن حتى أصبحت أثراً بعد عين. وهكذا انتهت هذه الحادثة المحزنة بقتل الخليفة وأولاده وزوال الدولة العباسية

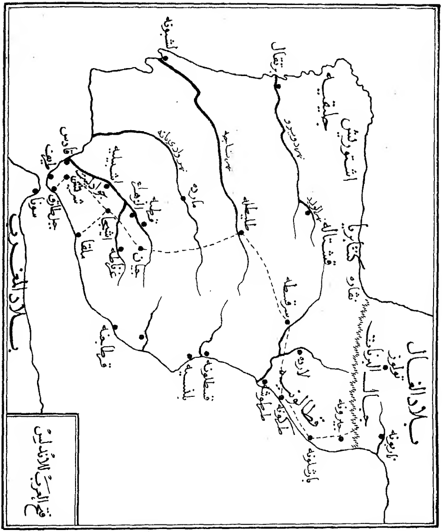
الفصل الخامس

العرب فى الأندلس

(ا) الفتوح فى الأندلس وما وراء البرانس

حالة أسبانيا قبل الفتح العربى :— ظلت بلاد أسبانيا تحت حكم الرومان إلى أن أغارت عليها قبائل الوندال فى أوائل القرن الخامس الميلادى . ومن ذلك الوقت أطلق على هذه البلاد فاندلوسيا ، أى بلد الوندال ، ويسميها العرب بلاد الأندلس .

ثم أغار عليها قبائل القوط الغربيين وطردوا الوندال الى إفريقية ، وكونوا بها دولة لهم . وكانت دولتهم قوية فى بادىء الأمر ، وما لبثوا أن ضعف أمرهم وسرت فيهم روح التخاذل ، فقسم الأشراف ورجال الدين البلاد إلى اقطاعات كبيرة ، وسكنوا القصور الفخمة ، وصرفوا أوقاتهم فى اللهو ، وتركوا أمر الصناعة والزراعة فى يد الأرقاء الذين كانوا يعيشون فى ذل وضعة . كما أثقلوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب ،


فتح العرب للأندلس
بلاد الغال

فآلت حالة الشعب إلى الخراب والبؤس . وكان اليهود مضطهدين ، فحاولوا الثورة مراراً فأخفقوا ، ونهبت ديارهم واضطر الكثير منهم الى اعتناق المسيحية

تلك هى الحالة التى كان عليها أهل بلاد الأندلس فى الوقت الذى كان فيه أهل شمال إفريقية يتمتعون بحكم العرب وينعمون بعدلهم . فلا عجب اذا تمنى الأسبان وبخاصة اليهود الخلاص من نير الحكم القوطى الجائر .

فتح العرب الأندلس

فتح موسى بن نصير بلاد المغرب عدا مدينة سبتة الحصينة التى كانت فى يد الكونت جوليان Julian حاكمها من قبل القوط . وكان العرب يتطلعون الى فتح بلاد الأندلس ويتحينون الفرصة لغزوها . وفى سنة ٨١٠ م مات Witica الذى يسميه العرب « غَيطشه » ملك القوط فى بلاد الأندلس ، ثم اغتصب العرش رودريك Roderic قائد الجيش (ويسميه العرب لذريق) فعمل أبناء غيطشة على استرداد عرش أبيهم، وتحالف معهم الكونت جوليان بسبب العداء الذى كان بينه وبين رودريك . فاستعان جوليان بموسى بن نصير على قلب الحكومة والتخلص من رودريك .

رحب موسى بهذه الفكرة ، واستشار الخليفة الوليد بن عبد الملك فوافق عليها ، وأمره أن يرتاد الطريق أولا حتى يتأكد من أن جوليان لم يرد التغرير بالمسلمين . فأرسل موسى « طريف بن مالك » على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) ، فغزا بعض الثغور الجنوبية فى بلاد الأندلس بمساعدة جوليان وعاد بالغنائم . وقد شجع هذا موسى بن نصير فأعد جيشاً مكوناً من سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر ، وولى قيادته مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة .

طارق بن زياد : — عبر طارق البحر سنة ٩٢ هـ فى سفن جوليان ، ونزل بالمكان المعروف الآن باسمه (جبل طارق) . ثم غزا « ولاية الجزيرة »

واحتل قلاعها ، وعزم على الزحف على طُليطلة . وكان رودريك مشغولا بالحرب فى شمال الأندلس ، فعاد مسرعا لانقاذ بلاده ، وجمع جيشاً كبيراً بلغ عدده زهاء مائة ألف مقاتل . ولولا ما كان ينقصه من النظام والاخلاص لقضى على جيش طارق . ولما رأى طارق كثرة عدد العدو طلب المدد من موسى . فأمده بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ جيش المسلمين اثنى عشر ألفاً . والتقى طارق بجيش رودريك بالقرب من قادس حيث دارت موقعة شريش.

وقد راع جند المسلمين كثرة العدو ، وأخذ اليأس يدب فى قلوبهم ، فخطبهم طارق تلك الخطبة الخالدة : « أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه ، وأسلحته وأقواته موفورة . وأنتم لاوَزرلكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ... الخ »

وأخذ طارق وجنده يحملون على العدو حتى تم له النصر . ومما ساعد على هذا الانتصار انضمام ابنى غيطشة وأنصارهما إلى العرب أثناء المعركة ، كما استطاع جوليان أن يستميل اليه كثيراً من جند رودريك وأن يبذر بينهم بذور الشقاق والتفرق .

وبعد انتصار طارق فى شريش ، استولى على قرطبة ومالقة وغرناطة ، ثم زحف على طليطلة (عاصمة القوط) فأخلاها القوط ، حتى لم يبق فيها إلا اليهود وبعض رجال الدين . فلما دخلها لم يتعرض للكنائس بسوء وترك لرجال الدين الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية .

اشتراك موسى فى الفتح :— علم موسى بن نصير بما ناله طارق من النصر المبين فى موقعة شريش ، فدبت فى نفسه روح الغيرة ، وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس ، وأن يكون له نصيب من الغنائم . وأخذ يعد جيشاً كبيراً لاتمام فتح هذه البلاد ، وكتب إلى طارق يأمره بالبقاء حيث

هو حتى يلحق به . ولكن طارقا لم يذعن لهذا الأمر ، لأنه رأى بعد استشارة رؤساء جيشه أن وقف القتال يعرض المسلمين للخطر ويعطي للقوط فرصة لجمع كلمتهم ولم شعثهم ، فواصل فتوحه حتى دخل طليطلة .

وخرج موسى بجيشه سنة ٩٣ هـ وسار إلى طليطلة فى طريق غير الطريق الذى سلكه طارق ، ففتح أشبيلية بعد أن حاصرها شهراً ، ثم سار إلى مارده Merida واستولى عليها ، ثم واصل السير حتى لقى طارقاً وأنبه على مخالفته أمره وطالبه بالأموال والنفائس التى غنمها ثم سجنه .

واستطاع طارق وهو فى سجنه أن يبث شكواه إلى الخليفة الوليد ، فكتب هذا إلى موسى يأمره بتخلية سبيله ورده إلى عمله . ثم سار موسى وطارق لفتح شمال بلاد الأندلس ، ففتحا أقاليم أرغونة Aragon وقشتالة Castile وكتالونيا ، واستوليا على سرقسطة وبرشلونة ، ثم سارا حتى بلغا جبال البرانس فتم بذلك فتح شبه الجزيرة عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى التى التجأ اليها أشراف القوط وكبراؤهم .

* * *

ولم تقف أطماع موسى عند جبال البرانس، بل عزم على مواصلة الفتوح فى الجزء الجنوبى من بلاد غالة (فرنسا الحالية) على أن يتجه شرقاً حتى يصل إلى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها ، وبذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية . ولما بلغ الخليفة ذلك لم يرد أن يعرض المسلمين للخطر . أضف إلى هذا ما كان يخشاه من ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد إذا ما تم له فتحها ، فأمره هو وطارقاً بالكف عن التوسع فى الفتح واستدعاهما إلى دمشق .

وقبل وصول موسى إلى دمشق مرض الوليد مرض الموت ، فطلب سليمان بن عبد الملك (ولى العهد) إلى موسى أن يبطىء السير إلى دمشق حتى يموت الوليد ، وذلك طمعاً فى الحصول على الغنائم والتحف التى كان

يحملها موسى . غير أن موسى لم يعمل بهذا الرأى ، فحقد عليه سليمان . فلما ولى الخلافة انتقم منه فحبسه وفرض عليه غرامة فادحة ضاقت بها ثروته . ومات قاهر البربر وفاتح بلاد الأندلس فقيراً معدماً .

وقبل رحيل موسى إلى دمشق أقام ابنه عبد العزيز والياً على بلاد الأندلس. فنظم الحكومة ، وكون مجلساً خاصاً لاستنباط الأحكام الشرعية التى تتفق مع حالة السكان ، وعنى بالزراعة وتنظيم الطرق ، ورفع عن الاسبانيين مظالم القوط ، فخفف الضرائب التى أثقلت كاهلهم وساوى فيها بين طبقات الأمة من غير تفرقة فى الدين والجنس ، كما أمن الأهلين على دينهم وأموالهم وأنفسهم وحريتهم ، وشجع العرب على الاختلاط والتصاهر معهم ، وتزوج هو بأرملة رودريك التى بقيت على دينها .

وكان من أثر مغالاة عبد العزيز بن موسى فى ارضاء المسيحيين أن نقم عليه بعض أعدائه ووشوا به عند الخليفة سليمان بن عبد الملك ، فدبر الخليفة قتله لذلك ولما كان يخافه من خروجه عليه انتقاما لأبيه .

وبعد قتل عبد العزيز بن موسى أقام الجند قائدهم أيوب بن حبيب (ابن أخت موسى بن نصير) والياً على بلاد الأندلس . فأخذ يطوف البلاد وينشر لواء العدل فى أرجائها ، واتخذ قرطبة عاصمة لولايته . غير أن مدة ولايته لم تطل ، فقد عزل لعدم موافقة والى افريقية على تعيينه ، إذ كان لهذا الوالى حق تعيين الأمراء على بلاد الأندلس .

حروب العرب فيما وراء البرانس

لم يتم لموسى بن نصير تحقيق فكرته الجريئة التى كانت ترمى الى فتح جنوب أوربا ، ولم تتعد فتوح العرب جبال البرانس ، إلى أن ولى بلاد الأندلس السمح بن مالك الخولانى (١٠٠ – ١٠٢ ه) فجدد عهد الفتوح واخترق جبال البرانس ، وزحف على مقاطعتى سبتمانيا وبروفانس ، ثم أغار على اكيتانيا Aquitaine (مقاطعة مستقلة فى جنوب اللوار) وحاصر

تولوز (طلوشة) ، فقابله يودو Eudo دوق اكيتانيا بجيش كبير . ونشبت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها السمح وأكثر رجاله ، فتولى عبد الرحمن الغافقي قيادة الجند ، فانسحب بفلول الجيش الى مدينة نربونه Narbonne .

وفى سنة ١٠٤ هـ تولى على بلاد الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي ، فعاود غزو بلاد غالة واستولى على سبتمانيا ووصل الى حوض الرون ، وتوغل فى اقليم برغندية حتى بلغ مدينة ليون واستولى عليها . ولكنه قتل أثناء عودته ، فاضطر العرب الى التقهقر ثانية الى نربونة سنة ١٠٧ هـ . ووقف تيار الفتح أربع سنوات بسبب قيام الاضطرابات الداخلية فى بلاد الأندلس الى أن تولى عبد الرحمن الغافقي سنة ١١١ هـ فى عهد هشام بن عبد الملك ، فوطد النظام فى أنحاء البلاد وأصلح الخلل الذى أصاب الادارة والجيش، ثم تفرغ للقتال فى بلاد غالة ، فخرج فى ثمانية آلاف مقاتل واستولى على دوقية اكيتانيا .

موقعة تور :— استعان دوق اكيتانيا بالفرنجة ، فجمع شارل مارتل جيشاً ضخماً لقى العرب بالقرب من بواتييه ، ودارت بينهم المعركة المشهورة بموقعة تور Tours . وكانت الغنائم التى غنمها جند المسلمين فى أكيتانيا من الكثرة بحيث خشى عبد الرحمن أن تشغل الجند وتعطل حركات الجيش . وبعد مناوشات دامت ثمانية أيام دارت رحى القتال إلى أن غابت الشمس . وفى اليوم التالى هجم المسلمون على الأعداء ، وكاد النصر يتم لهم لولا ما أشيع فى صفوفهم من أن ما خلفوه من الغنائم قد نهبه العدو . فهرول الجند لحمايتها ووقع الاضطراب في صفوفهم ، وأصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته . فتفرقت كلمة المسلمين ، واختلف رؤساء الجند فيما بينهم واضطروا إلى الانسحاب فى ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون . ولم يتعقب شارل مارتل فلول جنود المسلمين خشية أن يكون انسحابهم تدبيراً للايقاع به.

وتعتبر موقعة تور من المواقع الحاسمة في التاريخ إذ لو تم النصر للعرب لوقعت أوربا فى يدهم وانتشر فيها الاسلام .

لم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعه ، بل بدءوا يتراجعون تدريجياً إلى بلاد الأندلس . حتى لم يبق لهم فيما وراء البرانس إلا مقاطعة سبتمانيا . ولم تكن حروبهم بعد ذلك إلا غارات لا أهمية لها

(٢) الدولة الأموية فى الأندلس

لما قامت الدولة العباسية وبالغ العباسيون فى اضطهاد بنى أمية وعملوا على استئصال أفراد البيت الأموى . فر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إلى بلاد المغرب الأقصى ونزل فى قبيلة من البربر يمت إليها بصلة الخئولة واختفى مدة

وكان يلى بلاد الاندلس فى ذلك الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفهرى، وفى عهده اشتد الخلاف بين القبائل العربية من جهة وبينهم وبين البربر من جهة أخرى فانتهز عبد الرحمن فرصة الانقسامات الداخلية وأرسل مولاه بدراً ليمهد له سبيل دخول هذه البلاد . فرحب بعض القبائل بعبد الرحمن ، واستطاع بذلك أن يدخل بلاد الأندلس حيث كثر أتباعه ، ووقعت بينه وبين الفهرى وأنصاره موقعة المصارة بالقرب من قرطبة سنة ١٣٩هـ ، فكان النصر فيها لعبد الرحمن ، وأسر الفهرى . ودخل عبد الرحمن قرطبة دخول المنتصر ، وأسس الدولة الأموية فى الأندلس التى استقلت عن حكم العباسيين .

وعرف عبد الرحمن بالداخل لأنه أول من دخل بلاد الأندلس من أفراد البيت الأموى .

عبد الرحمن الداخل

١٣٨ – ١٧٢ هـ و ٦٥٧ – ٧٨٨ م

قضى عبد الرحمن حياته فى كفاح مستمر لتثبيت دولته ومقاومة خصومه فى الداخل والخارج . فقد خرج عليه أمراء العرب والبربر وأرادوا أن يقسموا البلاد بينهم الى أمارات صغيرة على أن يتحدوا جميعاً اذا دعت الحاجة لرد غارات المسيحيين . ولم يكن لهؤلاء الأمراء زعيم يجمع شملهم ويوحد كلمتهم وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يقضى عليهم .

ولم يكن هذا كل ما قام فى وجه عبد الرحمن من الصعاب . فقد عمل على تقويض دعائم دولته الناشئة فى بلاد الأندلس أبو جعفر المنصور ويبين

Pippin ثم شرلمان (من ملوك الفرنجة) . ففى سنة ١٤٦ هـ بعث المنصور العلاء بن مغيث إلى بلاد الأندلس ، حيث انضم إليه بعض الساخطين على حكم بنى أميه ، ولكن عبد الرحمن قضى على هذه المؤامرة وهى فى مهدها .

وفى سنة ١٦٠ هـ دبر عبد الرحمن الفهرى وسليمان بن الأعرابى مؤامرة للقضاء على دولة عبد الرحمن ، واتفقا مع شرلمان على أن يجند الفهرى جيشاً فى شمال إفريقية يغير به على جنوب بلاد الأندلس ، في الوقت الذى يقوم فيه ابن الأعرابى بثورة فى الشمال ، ويمهدا بذلك السبيل لدخول شرلمان ، على أن يحكم هذا بلاد الأندلس باسم الخليفة المنصور .

غير أن هذه المؤامرة لم تنفذ بدقة . فقد وصل جيش الفهرى قبل جيش شرلمان ، فهاجمه عبد الرحمن وهزمه ، واستطاع بعد **ذلك** أن يتفرغ لقتال ابن الأعرابي وشرلمان فى الشمال . فاضطر شرلمان للعودة إلى بلاده بعد أن حاصر مدينة سرقسطة . وتتبع عبد الرحمن جيش الفرنجة وأجلاهم عن بلاد الأندلس .

وقد صدق أبو جعفر المنصور حين لقب عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » لشدة عزيمته وحرصه وسياسته . فانه دخل الأندلس هارباً شريداً فاستطاع بعد قليل أن يؤسس دولة قوية تهابها الدولة العباسية وهى فى أوج عظمتها ، كما كانت تهابها دولة الفرنجة فى أيام شرلمان . وكان المنصور يخشى بأس عبد الرحمن حتى قال فيه « نحمد الله الذى جعل البحر بيننا وبينه » .

وقد أقام عبد الرحمن دولته على أساس متين ، ونظمها على مثال الحكومة الاسلامية فى المشرق ، وشجع العرب على تعمير بلاد الأندلس والعمل على تنمية مواردها الطبيعية ، فظهر من بين المسلمين القضاة والعلماء والصناع وغيرهم . فلما مات سنة ١١٢ هـ (٧٨٨م) ترك دولته قوية ثابتة الدعائم .

هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم الأول

١٧٢ — ٢٠٦ هـ و ٧٨٨ — ٨٢٢ م

خلف هشام أباه عبد الرحمن ، وكان تقياً صالحاً على مثال عمر بن عبد العزيز . صرف عهده فيما يعود على بلاده بالخير والسعادة ، فجمل مدينة قرطبة وزينها بالمبانى الفخمة والبساتين ، كما أتم المسجد الذى أسسه أبوه وشيد غيره من المساجد فى أنحاء البلاد . وقد قوى نفوذ الفقهاء فى عهد هشام ، وأصبح للقضاة مكانة كبيرة فى الدولة ، عنى بنشر اللغة العربية حتى أصبحت تدرس فى مدارس اليهود . وبلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة ويختلط بالرعية . وينظر فى المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ويشهد الجنائز .

ولما توفى هشام سنة ٢٠٦ هـ خلفه ابنه الحكم ، وكان يختلف عن أبيه اختلافاً كبيراً . فقد كانت سياسته ترمى الى إبعاد الفقهاء عن التدخل في شئون الدولة ، فقصر عملهم على اقامة الشعائر الدينية والفصل فى القضايا ، فثارت ثائرتهم وأخذوا يرمونه بكل نقيصة وحرضوا العامة على الهياج والعصيان. وساعدهم على ذلك اتخاذ الحكم الجند المرتزقة من زنوج إفريقية حرساً له ، فعاثوا فى الطرقات فساداً . فقام المولدون (وهم الأسبانيون الذين اعتنقوا الاسلام) بثورات فى طليطلة وقرطبة . وقد استعمل الحكم ضروب الدهاء فى إخمادها .

وقد خرج على الحكم عماه واستوليا على طليطلة وبلنسية ، واستعان أحدهما بشرلمان ، فحاربهم الحكم واسترد ما استوليا عليه من البلاد . وقد انتهز الأمراء المسيحيون فى الشمال فرصة هذه الحروب الأهلية بين المسلمين ، فأغاروا على ولاية أرغونة ، فحاربهم الحكم وردهم عنها . ثم ثار والى برشلونة ، أكبر معاقل المسلمين . واستعان بشرلمان ، فأرسل الحكم جيشاً استولى عليها وطرده منها .

عبد الرحمن الثانى (الأوسط)

٢٠٦ — ٢٣٨ هـ و ٨٢٢ — ٨٥٢ م

سياسته الداخلية:— تفرغ عبد الرحمن الثانى لاصلاح البلاد والعمل على مايعود عليها بالخير بعد أن استتب له الأمن ببلاد الأندلس، فنمت ثروة البلاد حتى نافست الدولة العباسية فى العظمة والنهضة العلمية .

وقد زاد فى تجميل مدينة قرطبة ، فأقام بها البساتين والحمامات العامة والمتنزهات ، وجلب إليها الماء من الجبال ، ونظم شوارعها ، وأقام بها الجسور . وزاد فى بناء جامعها الكبير ، كما أنشأ المساجد فى أكثر مدن الأندلس ، وجعل إلى جانب كل مسجد مدرسة ومستشفى ، وأصلح الطرق الرومانية القديمة . كذلك شجع عبد الرحمن العلوم والآداب والفلسفة ، فظهر فى بلاد الأندلس فى أيامه نوابغ العلماء فى كل فن .

وكان عبد الرحمن الأوسط من أكثر الملوك أبهة فى بلاطه . وقد امتازت حاشيته بكثير من الصفات العربية الكريمة . ويرجع الفضل في ذلك إلى الموسيقى « زرياب » . وكان أسود اللون حلو الصوت حسن الذوق ، وفد من بغداد فانزله عبد الرحمن داراً فخمة ، وأجرى عليه الأرزاق. ولم يكن زرياب مغنياً فحسب ، بل كان أديباً ظريفاً ، وكان فى زيه مثالا يحتذيه أهل بلاد الأندلس فى ملابس الفصول المختلفة .

وقد منح عبد الرحمن ومن جاء قبله من الأمراء الأمويين أهل بلاد الأندلس الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية . وكثيراً ما حارب المسيحيون مع المسلمين جنباً لجنب ، كما كانوا يعينون فى أرقى المناصب الحربية والسياسية . ومن ثم اعتنق الكثير منهم الاسلام . وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر ، كما تخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم .

وعلى الرغم من هـذا التسامح الديني الذي تمتع به أهل بلاد الأندلس ، فقد بذر بعض القسس بذور الفتنة في أواخر عهد عبـــد الرحمن الأوسط ، فحرضوا المسيحيين على الغض من النبي عليه الصلاة والسلام والمجاهرة بسب دينه . ولما كان سب الدين جريمة يعاقب مرتكبها بالقتل أمر عبد الرحمن بقتل كثير من المحرضين . فخشي رجال الكنيسة أن تنقلب هذه الحركة إلى اضطهاد حقيقي ، فعقدوا مؤتمراً أصدر قراراً يحرم المجاهرة بسب النبي أو القرآن ؛ فهدأت الأحوال .

سياسته الخارجية :— وفى عهد عبد الرحمن الثانى أغار النرمنديون من أهل اسكنديناوة بسفنهم على سواحل بلاد الأندلس ، وعاثوا فيهـا فساداً . ولم يكن لدولة الأندلس اسطول يصد عنها هذه الغارات ، فأنشأ عبد الرحمن أسطولا لحمـاية الثغور .

كذلك أغار الفونس الثانى أمير ليون (ولاية أستوريش أو ليون في شمـال غربى الأندلس) على البلاد الاسلامية الشمالية ، وحذا حذوه بعض القبائل المسيحية فى الشمال . فأرسل عبد الرحمن إليهم قوات ردت غاراتهم وخربت بلادهم وألزمت الثوار بدفع الجزية .

وقد بلغت بلاد الأندلس درجة كبيرة من القوة والعظمة فى عهد عبـد الرحمن الأوسط لمـا اشتهر به من حسن السياسة ، حتى أصبح مهيب الجانب لدى ملوك المسيحيين وامرائهم . فى سنة ٨٣٦ م وفدت عليه رسل امبراطور القسطنطينية بالهدايا وطلبوا اليه عقد معاهدة ، ورغبوه في ملك أجداده بالمشرق . وكانت الدولة العباسية فى خلف مع شرلمان ثم مع ابنه لويس التقى . ومما يدل على حسن سياسة عبد الرحمن تحالفه مع مقاطعة نافار Navarre (شمال البرانس) ليكون حاجزاً بين بلاده وبلاد الفرنجة .

عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى

٣٠٠ - ٣٦٦ هـ و ٩١١ - ٩٧٦ م

تعاقب على عرش بلاد الأندلس بعد عبد الرحمن الأوسط أمراء ثلاثة حكموها بين سنتى ٢٣٨ و ٣٠٠ هـ . وقد ضعفت سلطة الحكومة فى هذا العصر ، وانقسمت البلاد إلى دويلات كثيرة تحكمها أسرات من العرب أو البربر أو المولدين ، حتى أصبح نفوذ الأمير الأموى لا يكاد يتعدى حاضرة هذه البلاد . وقد ظلت بلاد الأندلس على هذه الحالة من الضعف والانقسام والتدهور حتى وليها عبد الرحمن الثالث .

سياسته الداخلية : — صرف عبد الرحمن همته في إعادة وحدة البلاد السياسية . فأعلن أن كل من نزل من الثوار عن حصنه خلع عليه وقربه وأدر عليه الأرزاق والهبات ، ومن أبى حاربه ونكل به . فخضع له كثير من هؤلاء الثوار طائعين ، وبذلك تفرغ لقتال من بقى من الثائرين ومن بينهم عمر بن حفصون وأولاده من بعده . وقد ظل عبد الرحمن يقاتلهم ويطاردهم إلى أن توفى ابن حفصون وسلم أولاده بعد حروب طويلة . ولم تأت سنة ٣٢٠ هـ حتى كانت البلاد كلها خاضعة لحكم عبد الرحمن .

بعد ذلك تفرغ عبد الرحمن لترقية شئون بلاده ، فأعاد تنظيم الحكومة ، وفتح المدارس الكثيرة التى أصبحت كعبة يؤمها الطلاب من جميع أنحاء أوربا ، كما قام بنهضة علمية عظيمة . وبذلك بلغت البلاد فى أيامه درجة كبيرة من المجد .

وفى عهده صارت قرطبة من أعظم مدن العالم من حيث عمائرها الفخمة ومساجدها العظيمة وجسورها الكبيرة التى أقيمت على « الوادى الكبير » . وتدل مدينة الزهراء (إحدى ضواحى قرطبة) التى بدأ فى بنائها سنة ٣٢٠ هـ على رقى الذوق ومقدار ثروة البلاد فى ذلك العصر . فقد أنفق عبد الرحمن

على بنائها سبعة ملايين من الدنانير ، وبنى فيها قصراً فخما ومسجداً عظيما يحيط بهما الدواوين والبساتين التى غرس فيها أنواع الأشجار . وقد بلغ عدد مساجد قرطبة ستمائة مسجداً فى حين لم يتجاوز عدد سكانها النصف مليون ، وعدد أحيائها الثمانية والعشرين . كذلك نشطت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم حتى نافست بغداد حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين .

وكان جيش عبد الرحمن أعظم جيوش عصره ، مما جعل له النفوذ على مسيحي شمال بلاد الأندلس . ولما رأى عبد الرحمن ميل أمراء العرب إلى الاستقلال وأن العناصر التى يتكون منها الجيش من العرب والبربر والمولدين لا يوثق بهم ولا يعتمد عليهم ، أكثر من شراء الأرقاء من فرنجة وإيطاليين وصقالبة . وكان يجلبهم أطفالا وينشئهم تنشئة إسلامية عسكرية ، ويسند إليهم المناصب الهامة .

سياسته الخارجية :— كانت بلاد الأندلس يحيط بها الأعداء من كل جانب فى عهد عبد الرحمن . فكان الفرنجة فى الشمال يطمعون فى توسيع أملاكهم جنوباً ، ولا سيما بعد استيلائهم على برشلونة ، وكانت الأمارات المسيحية فى الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده . أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين ، وكان الأخيرون أشدهم خطراً على بلاد الأندلس وبخاصة فى عهد المعز لدين الله . فعمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته مادياً وأدبياً ، فبنى أسطولا مؤلفاً من مائتى سفينة ، وتلقب بلقب خليفة . ومن ثم أصبح فى العالم الاسلامى ثلاثة خلفاء : الخليفة العباسى فى المشرق ، والخليفة الفاطمى فى إفريقية ، ثم الخليفة الأموى فى الأندلس . وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت .

وقد حارب عبد الرحمن الثالث مسيحيي الشمال وانتصر عليهم في وقائع كثيرة ، غير أنه هزم في موقعة الخندق سنة ٣٢٧ هـ . ويرجع ذلك إلى

اعتماده على الصقالبة، وتقديمه إياهم على العرب والبربر مما أثار حنقهم، فخرجوا عليه . وقد تمكن عبد الرحمن من الفرار هو وقليل من أصحابه . على أنه سرعان ما تفرقت كلمة أمراء المسيحيين بعد هذه الموقعـــة حتى أصبحوا يحتكمون اليه فيما يقع بينهم من الخصومات .

وقد خلف الحكم الثانى (٣٥٠ هـ) أباه عبد الرحمن الثالث . وكان ميالا إلى السلم والدعة لا يخوض غمار الحرب إلا مضطراً ، لا جبناً منه ولكن حباً فى التفرغ للعلم والبحث . وقد أتم بناء ضاحية الزهراء ، ووسع مسجد قرطبة ، وشيد بهذه المدينة مكتبة فخمة . وبلغ من شغفه بجمع الكتب النادرة فى الأدب والفلسفة والفقه أن كان له وسطاء يجوبون بلاد الشرق ومصر والعراق وبلاد المغرب لجمع الكتب ، حتى بلغ ما جمعه أربعمائة الف كتاب مع أن الطباعة لم تكن معروفة فى ذلك الوقت . وقد استفادت بلاد الأندلس من هذه الكتب، فأمها العلماء من بلاد المشرق، وأصبح مسجد قرطبة جامعة من أهم الجامعات فى ذلك العصر .

(٣) عصر الاضمحلال

بعد موت الحكم سنة (٣٦٦ هـ) خلفه ابنه هشام الثانى . وكان طفلا لم يتجاوز الحادية عشرة . فقامت أمه « صبيح » بالوصاية عليه ، واتخذت محمد بن عبد الله بن أبى عامر الذى عرف بالمنصور حاجباً للدولة (رئيس الوزارة) وأسندت اليه مقاليد الحكم . وقد كسب محمد بن أبي عامر محبة الشعب ورجال الدين بعلمه وكرم أخلاقه . ولم يكن للأمير هشام من الصفات ما يؤهله لأن يكون من عظماء الرجال ، فقد انزوى فى قصره وقضى أوقاته في اللهو . وكانت لابن أبى عامر مطامع خفية فحجر على هشام ومنع الناس من مقابلته ، حتى لم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط . وقتل ابن أبى عامر كل من وقف في سبيله من الأمراء الأمويين وزعماء القبائل إدعاء بأنه انما كان يفعل ذلك لحماية الخليفة . وبذلك أفنى كل من يصلح منهم للولاية . كما شرد حرس الخليفة

من الصقالبة ، واهتم بتنظيم الجيش ، فأنشأ جنداً جديداً من المرتزقة من قبائل البربر ومن المسيحيين من جهات ليون وقشتالة ونافار ، ومنحهم الرواتب الكبيرة ، وقدم البربر على العرب الذين أقصاهم عن مناصبهم .

وفى سنة ٣٦٨ ﻫ بنى محمد بن أبى عامر بظاهر قرطبة مدينته المعروفة «بالزاهرة» ونقل اليها خزائن الدولة ودواوين الحكومة . وتشبه بالخلفاء فاتخذ لنفسه حرساً وحاشية ، وذكر اسمه فى الخطبة ، ونقش على السكة ، وتلقب بالحاجب المنصور .

وكان الحاجب المنصور فوق ذلك قائداً ماهراً . فقد حارب مسيحى الشمال وقضى على استقلالهم ، غير أنه لم يتمكن من القضاء عليهم .

ومات الحاجب المنصور سنة ٣٩٣ ﻫ (١٠٠٢ م) فخلفه ابنه عبد الملك المظفر ، فسار سيرة أبيه مع هشام الذى بقى فى معزل عن الناس . ولما مات عبد الملك سنة ٤٢٠ ﻫ (١٠٢٩ م) خلفه أخوه عبد الرحمن . وقام فى قرطبة فى ذلك الوقت حزبان : حزب يشايع بيت الخليفة الأموى والآخر يشايع بيت الحاجب ، مما أدى إلى قيام الحروب الداخلية

(١) ملوك الطوائف

قامت الثورة فى قرطبة وقتل الحاجب عبد الرحمن ، فانتهز الأمراء هذه الفرصة واستقلوا بما فى أيديهم من الولايات . وبذلك قامت فى بلاد الأندلس دويلات عديدة من بينها « دولة بنى عباد » فى أشبيلية « وبنى ذى النون » فى طليطلة « وبنى هود » فى شرق بلاد الاندلس « والزاويين » فى غرناطة . ويعرف أمراء هذه الدويلات بملوك الطوائف .

وقد أدى تجزؤ بلاد الاندلس إلى ضعف المسلمين ومهد السبيل للامارات المسيحية فى الشمال للقيام فى وجه أمراء العرب على أثر ما قام بينهم من التنافس والتنازع على السلطة ، حتى بلغ من تنافسهم أن كان بعضهم يستعين بالمسيحيين على منافسيه . وبلغ الفونس الرابع حاكم قشتالة من القوة

بحيث أرغم أمراء المسلمين المجاورين له على دفع الجزية .

وعلى الرغم من ذلك الانحلال الذى دب إلى جسم الدولة الأموية فى الأندلس ، فقد كان عصر ملوك الطوائف من أزهى العصور في العلوم والفنون والآداب . ولا غرو فقد نافس كل من أشبيلية وطليطلة ومالقة وبلنسية وغيرها من جواضر هذه الدويلات مدينة قرطبة بعد أن كانت هى وحدها مركزاً للعلوم والفنون فى بلاد الاندلس .

(ب) دولة المرابطين (١)

٤٧٩ - ٥٤٠ ﻫ و ١٠٩٠ - ١١٤٥ م

قوى أمر المسيحيين فى شمال بلاد الأندلس حتى أصبحوا خطراً على الدويلات الاسلامية . فقد استولى الفونس أمير قشتالة على مدينة طليطلة سنة ٤٧٧ ﻫ (١٠٨٤ م) وأرسل إلى المعتمد أمير قرطبة يهدده بالحرب إذا لم يسلم اليه ما بيده من الحصون . وقد ثارت ثائرة المعتمد فضرب رسول الفونس وقتل كل من معه . فلما بلغ الفونس ذلك أعلن الحرب عليه .

ولما رأى العلماء والشيوخ فى أشبيلية ما آلت اليه حالة المسلمين من تفرق الكلمة وسقوط أملاكهم فى يد المسيحيين ، طلبوا النجدة من أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ملك المرابطين في المغرب الأقصى ، ووافقهم المعتمد أمير قرطبة على ذلك . وقد رحب ابن تاشفين بهذا الطلب وعبر إلى بلاد الأندلس في عشرة آلاف مقاتل . ونهض المسلمون فى اشبيلية وقرطبة وغيرهما والتقوا بجيش الفونس الذى بلغ عدده أربعين ألف مقاتل ، فانتصر المسلمون فى موقعة الزلّاقة سنة ٤٧٥ ﻫ (١٠٨٦ م) وقضوا على جيش الفونس . وتعتبر موقعة الزلاقة بدء عصر جديد فى تاريخ بلاد الأندلس .

وقد أدرك المعتمد فيما بعد أنه حفر قبره بيده . فقد طمع ابن تاشفين

---

(١) معنى المرابطين الاتقياء المجاهدون فى سبيل الله . وهذا اللفظ مشتق من الرباط وهو حراسة الحدود ، اذ كان المخلصون للدين يذهبون الى الحدود لمساعدة حامياتها .

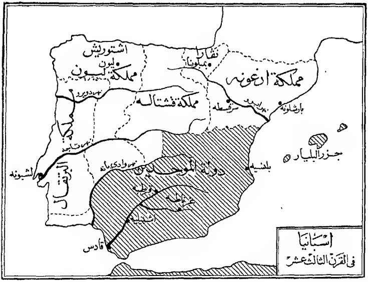
فى بلاد الأندلس لما رآه من خيراتها وما كانت عليه من الضعف، ففتحها سنة ٤٧٩ ﻫ واستولى على غرناطة ثم على اشبيلية وقرطبة وغيرها من الولايات الاسلامية، وقابله البربر مقابلة المنقذ المخلص .

ولم يكن عرب افريقية على شئ من الحضارة والمدنية . لذلك تأخرت البلاد فى عهدهم، وذوت العلوم والآداب، وساءت الأعمال الادارية، وأصيبت البلاد بالقحط، وقامت الحروب الأهلية بين العرب والبربر . فقوى بذلك نفوذ الأمارات المسيحية فى الشمال، فتقدموا الى الجنوب وهددوا قرطبة . فاستعان عرب الأندلس بالموحدين فى مراكش سنة ٥٤٠ ﻫ (١١٤٥ م) .

(ﺣ) دولة الموحدين

٥٤٠ - ٦٣٤ ﻫ و ١١٤٥ - ١٢٣٦ م

نشأتهم :— ظهر من بين البربر فى بلاد مراكش زعيم دينى اسمه محمد ابن تومرت . وقد طاف بلاد المشرق، وتفقه فى الدين ونبغ فى



الفلسفة التى درسها على الامام الغزالى . ولما عاد إلى بلاد المغرب أخذ ينشر

مبدأ التوحيد ، وادعى أنه الامام المعصوم، وأنه من سلالة على بن أبى طالب، وسمى نفسه « الموحد » ، فأطلق على أتباعه « الموحدون » . ولما مات ابن تومرت سنة ٥٢٤ ﻫ (١١٣٠ م)، خلفه عبد المؤمن ، فحارب المرابطين فى بلاد المغرب وقضى على ملكهم فى مراكش سنة ٥٤١ ﻫ (١١٤٧ م) . ولم يأت عام ١١٥٨ م حتى امتد نفوذه من حدود طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسى غرباً . ولما استنجد عرب الأندلس بالموحدين سنة ٥٤٠ ﻫ خرج عبد المؤمن بجيش إلى بلاد الأندلس وانتزعها من المرابطين .

ويعتبر عصر الموحدين من أزهى عصور بلاد الأندلس . ولا غرو فقد كان ملوكهم من العلماء فشجعوا العلوم والآداب . وقد اشتهر من بينهم يوسف بن عبد المؤمن وكان عالماً بالفلسفة ، ثم ابنه يعقوب بن يوسف الذى بلغت بلاد الأندلس فى عهده درجة كبيرة فى العلوم والآداب . ونبغ فى عصره كثير من العلماء والفلاسفة ، نخص بالذكر منهم ابن رُشد وابن زُهر ، كما كثرت فى أيامه المساجد والمستشفيات .

وقد حارب يعقوب الفونس السابع ملك قشتالة ، وانتصر عليه واسترد كثيراً من الحصون سنة ٥٩٢ ﻫ (١١٩٥ م) . ولما مات يعقوب خلفه ابنه محمد الملقب بالناصر لدين الله . وفى عهده حرض البابا انوسنت الثالث Innocent III الأمارات المسيحية فى شمال بلاد الأندلس على القيام بحرب صليبية ضد المسلمين ، فانتصر المسيحيون بقيادة الفونس الثامن Alfonso VIII ملك قشتالة سنة ٦٥٩ ﻫ (١٢١٢ م) فى موقعة لاس نافاس Las Navas واستولوا على كثير من المدن التى كانت بيد الموحدين .

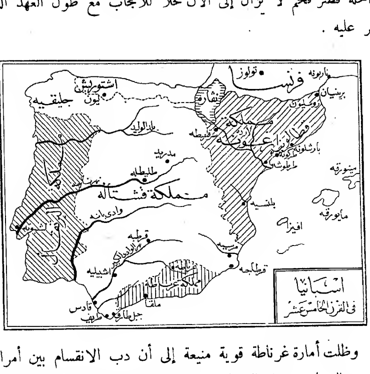
ومن ذلك الوقت ضعفت دولة الموحدين ، وتجزأت بين أمراء العرب . وما زال المسيحيون يهاجمون قرطبة حتى استولوا عليها سنة ٦٣٤ ﻫ (١٢٣٦ م) . ولم يقف فى وجههم سوى « بنى نصر » أو بنى الأحمر الذين استقلوا بغرناطة سنة ٦٣٠ ﻫ (١٢٣٢ م) .

(د) بنو نصر أو بنو الأحمر

٦٣٠ - ٨٩٨ هـ و ١٢٣٢ - ١٤٩٢ م

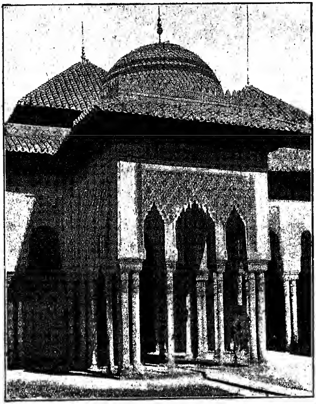
انكمشت دولة المسلمين فى إمارة غرناطة التى أسس بها محمد بن الأحمر دولة قوية وقفت فى وجـــه المسيحيين مدة قرنين ونصف . وساعدها على ذلك مناعة موقعها وعدم اتحاد الأمراء المسيحيين ضدها. وقد عمل أمراء بنى الأحمر على تنمية ثروة إمارتهم ، فارتقت صناعتها وراجت تجارتها ، وتقدمت الزراعة حتى أصبحت أوديتها مكسوة بالحقول والبساتين ، كما شجع بنو الأحمر العلوم والآداب .

ومن أشهر آثارهم قصر الحمراء . وهو عبارة عن حصن أحمر اللون داخله قصر فخم لا يزال إلى الآن محلا للاعجاب مع طول العهد الذى مر عليه .



وظلت أمارة غرناطة قوية منيعة إلى أن دب الانقسام بين أمرائها بسبب التنـافس على السلطة . وكان الأمراء المسيحيون يعملون على

توحيد كلمتهم . فلما زادت قوتهم باتحاد أرغونة وقشتالة استولوا على غرناطة سنة ٨٩٨ ﻫ (١٤٩٢ م) . وبذلك انتهى حكم المسلمين فى بلاد الأندلس .



بهو بقصر الحمراء بغرناطة

الفصل السادس

مدنية العرب وأثرها فى اوربا

بلغ العرب مبلغاً كبيراً من الحضارة ، فقد أسسوا الحكومات المنظمة وعنوا بتنمية موارد الثروة ونبغوا في العلوم والفنون والصناعات .

(١) نظم الحكم

لم يعين القرآن ، وهو دستور الاسلام ، نظاماً خاصاً للحكم ، بل اقتصر فى ذلك على وضع المبادىء العامة ، تاركا للعرب الحرية فى اختيار نظام الحكومة الذى يلائم أحوالهم ويتمشى مع تطور حياتهم .

(ا) الخلافة : — لما مات النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لم ير المسلمون بدأ من إقامة خليفة له يقوم بنشر الدين ، ويدبر شئون المسلمين . فانتخب ابو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة ، وإن كانوا قد اختلفوا بعض الاختلاف فى بادىء الأمر . وقد عهد أبو بكر قبل وفاته بالخلافة إلى عمر مستأنساً فى ذلك بآراء كبار الصحابة . ولما شعر عمر بدنو أجله اتبع طريقة جديدة لانتخاب الخليفة ، فقصر الخلافة على واحد من ستة من الصحابة . وبعد قتل عثمان أقام الثوار علياً بن ابى طالب بموافقة بعض الصحابة .

من ذلك يتضح أن المسلمين لم يتبعوا طريقة واحدة فى اختيار الخليفة ، وإن عامة المسلمين لم يشتركوا فى انتخابه ، بل كان ذلك مقصوراً على أهل المدينة . وانما كانت تأتي وفود الأمصار الاسلامية الى مركز الخلافة للموافقة على هذا الانتخاب .

فلما ولى معاوية الخلافة جعلها وراثية ، متأثراً فى ذلك بنظم الحكم عند الرومان . ثم جاء العباسيون فساروا على هذا النظام متأثرين فى ذلك بنظم الحكم عند الفرس .

ولم يكن عمل الخليفة مقصوراً على الرياسة الدينية ، بل جمع فى يده كل أمور الدولة الدينية والسياسية والقضائية والادارية . ولما اتسعت الدولة العربية استعان الخلفاء فى ادارة شئون الدولة بعدد من كبار الموظفين، منهم الوزير ، والكاتب ، والحاجب ، وولاة الأقاليم ، وعمال الخراج والبريد والشرطة ، وقواد الجيش .

« الوزير » : — كان النبى صلى الله عليه وسلم يشاور الصحابة فى الأمور العامة ويختص ابا بكر فى مهام الأمور ، حتى إن العرب الذين اختلطوا بالفرس والروم قبل الاسلام كانوا يسمون ابا بكر وزير النبى . وكذلك كان شأن عمر مع أبى بكر وشأن على وعثمان مع عمر . ولكن لقب الوزير لم يعرف عند العرب فى ذلك العصر لبعد الخلفاء الراشدين عن أبهة الملك .

ولما انتقلت الخلافة الى بنى أمية اتخذ الخلفاء رجالا يستشيرونهم فى أمور الدولة ، فكانوا يقومون بعمل الوزير وان لم يلقبوا بهذا اللقب . وكان العباسيون أول من اتخذوا الوزراء بالمعنى المعروف الآن .

وكان الوزير واسطة بين الخليفة والرعية ، وعليه تنفيذ رغبات الخليفة وأوامره ، واسداء النصح والارشاد لمولاه اذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة .

« الكاتب » : — عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى بعض الصحابة بمكاتبة الملوك والأمراء . ولما ولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتبا له ليكتب إلى العمال والقواد . ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية تعدد الكتاب بتعدد مصالح الدولة فكان منهم كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى .

وكان لكاتب الرسائل أهمية خاصة . فكان ينوب عن الخليفة فى مكاتبة الملوك والأمراء . لذلك كان الخلفاء لا يولون هذا المنصب الا أقرباءهم وخاصتهم .

« الحاجب » : — كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ، فيخاطبون الفقير والغنى والضعيف والقوى دون أن يحجبهم عنهم أحد . فلما جاء بنو أمية اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة قتل على، وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس، وتلافيا لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر فى مهام دولتهم. وقد اقتدى العباسيون فى ذلك ببنى أمية.

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى أيامنا . وكان يشغل منصباً سامياً فى البلاط ، ومهنته ادخال الناس على الخليفة ، مراعياً فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم .

« ولاة الأقاليم » :— وكان الخلفاء يعينون ولاة ينوبون عنهم فى حكم الأقاليم . وكان الوالى الرئيس الأعلى للقضاء والخراج والجند والشرطه وما اليها من الأعمال ، كما كان ينوب عن الخليفة فى الصلاة بالناس ولاسيما فى الجمع والأعياد .

وكان الوالى يستعين فى إدارة شئون ولايته بطائفة من كبار الموظفين ، من بينهم عامل الخراج (اشبه بوزير المالية) والقاضى والقائد وصاحب الشرطة (المحافظ) . وكان الخراج أهم هذه الأعمال . وكان الوالى يحتفظ بهذا المنصب لنفسه ، وربما أسنده الخليفة الى رجل من قبله يعمل مع الوالى جنبا لجنب ، هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى الشئون المالية .

وقد عُنى الولاة بأمر الرى لضمان جباية الخراج . فانشئت مصلحة خاصة به فى كل ولاية ، تقوم بمراقبة السدود وإنشاء الترع والجسور والعمل على صيانتها . أما ما عدا ذلك من الأعمال العامة فقد ترك فى أيدى الأهلين ، فكونوا النقابات الصناعية والتجارية ، وانشأوا المجالس المحلية فى القرى والمدن . فتمتع الأهلون بقسط وافر من الحرية الدينية والسياسية والاقتصادية ، اذ كانت الحكومة لا تتدخل فى أعمالهم طالما كانوا يؤدون ما عليهم من الضرائب ويخلدون الى السكينة والنظام .

وكان عمر أول من نظم الادارة. فاختار الولاة من العرب وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين . وبلغ من اهتمام الخلفاء باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب العظيم الى أفراد من البيت المالك . ولما جاء العباسيون أسندوا ولاية الأقاليم إلى الفرس أولا ثم الى الأتراك .

« البريد » :— كانت مهمة صاحب البريد التجسس على الأعداء (أشبه بقلم المخابرات فى وزارة الحربيه الآن) ومراقبة ولاة الأقاليم وموافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة . وأول من اتخذ البريد من المسلمين معاوية بن أبى سفيان . وقد أخذه عن الروم أثناء ولايته على الشام .

وفى عهد الدولة العباسية أصبح للبريد ديوان كبير فى بغداد أشبه بمصلحة البريد الآن ، إلا أنه كان خاصاً بالأعمال الحكومية .

وكان عمال البريد عيوناً للخلفاء وعوناً لهم على الاشراف على أمور الدولة ، فلم يكن ثمة خوف من استقلال الولاة بالولايات البعيدة عن الحكومة المركزية .

« الشرطة » : — هى الجند التى كان يعتمد عليها الخليفة والولاة على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الأعمال الادارية التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم .

وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم . وهو أشبه بالمحافظ فى هذا العصر .

(ب) النظام القضائى :— كان القضاء للخلفاء، لأن الخلافة مركز دينى ينوب صاحبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام قاضياً كما كان للشريعة مبلغاً . ولم يكن للمسلمين فى عهده ولا فى عهد أبى بكر قاض سواهما .

ولما انتشرت الفتوح الاسلامية فى عهد عمر وارتبط العرب بغيرهم من

الأمم ، دعت الحالة الى ادخال نظام تشريعى للفصل فيما يقوم بين الأفراد من العرب وغيرهم من النزاع . وقضى هذا النظام بتعيين قضاة فى الأقاليم ينوبون عن الخليفة لفض هذه المشاكل .

وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة مباشرة ، حتى لا يكون للولاة نفوذ عليهم . وقد أقام المهدى العباسى قاضياً كبيراً فى بغداد لقب بقاضى القضاة (أشبه بوزير الحقانية الآن) ، ومهنته الاشراف على قضاة الأقاليم .

وكانت الأعمال القضائية موزعة بين القاضى والمحتسب. فكان يعهد الى القاضى الفصل فى القضايا الدينية . أما المحتسب فمهنته النظر فيما يتعلق بالنظام العام مما يستدعى أمر الفصل فيها الى السرعة ، كمراقبة الموازين والمكاييل والاشراف على نظافة الأغذية ، كما كان له حق النظر فى الجنايات أحيانا .

ولضمان العدل والمساواة بين الناس كانت القضايا الهامة الخاصة بذوى الجاه والحسب فى الدولة تعرض على محكمة عليا تشبه محكمة الاستئناف ، يتولاها رجل جليل القدر كثير الورع ويلقب « بصاحب المظالم » . وقد أدخل هذا النظام عبد الملك بن مروان .

(حـ) الجيش والاسطول :— استمدت الدولة العربية قوتها من الجيش الذى نما نموا عظيما إثر دخول كثير من الناس فى الاسلام وانضوائهم تحت لوائه . وقد بلغ عدده فى العصر العباسى الأول مئات الألوف من الجند. ورتب عمر بن الخطاب الأرزاق للجند وأوجد لهم ديواناً أحصاهم ونظم أحوالهم . وفى عهد الدولة العباسية كان الجندى يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً . وكان الجيش من الفرسان والمشاة . أما الآلات الحربية التى كانت تجهز بها الجنود فلم تختلف كثيراً عن الآلات البيزنطية . فكان من أسلحتهم القسى والسهام والرماح والحراب والفؤوس الحربية (البلط) والسيوف التى كانوا يعنون بصناعتها ويحلونها بالفضة . وكانت ملابس الجنود هى الخوذة والدرع والمنطقة .

وكانت أنظمة الجيش تماثل أنظمته فى العصر الحديث . من ذلك نظام الجاسوسية عند العباسيين ، فقد كانوا يستخدمون كلا الجنسين من الرجال والنساء الذين كانوا يوفدون إلى البلاد الأجنبية متنكرين فى زى التجار والأطباء لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم .

وقد اكتسب العرب خبرة ودراية بالفنون الحربية على أثر اتصالهم بالفرس والروم ، فعرفوا كيف يصفون الجند ويقسمونه إلى كتائب . كما وقفوا على كيفية حفر الخنادق وإقامة الحصون واستعمال الآلات الحربية وآلات الحصار وهدم الأسوار ، فلم يلبثوا أن تفوقوا على الفرس والروم في ذلك المضمار .

ولم يُعن العرب بالحروب البحرية فى صدر الاسلام لبداوتهم وعدم مهارتهم فى ركوب البحر . وكان معاوية أول من بنى أسطولا عربيا أثناء ولايته على بلاد الشام . ثم عظم شأن الأسطول فى عهد الأمويين والعباسيين ، فأنشأ الخلفاء السفن والشوانى فى الثغور الاسلامية بالشام ومصر والمغرب ، وعبأوا الأساطيل بالرجال والسلاح لحماية البلاد الاسلامية من غارات الروم المتواصلة .

(٢) الحضارة المادية

(١) موارد الدولة : — كانت موارد الدولة تتكون من «خمس الغنائم» التى يصيبها المسلمون فى حروبهم من غير المسلمين ، و «الزكاة» وهى ربع عشر ما يمتلكه المسلم من المال والتجارة ، و «الخراج» وهو ضريبة الأرض ، وجزية أهل الذمة ثم «العشور» (عشر قيمة السلع) على التجارة الواردة . وكان عمر أول من فرض هذه الضريبة . هذا عدا الضرائب التى كانت تحصل من أرباب الحرف والصناعات من غير المسلمين . كما فرضت ضريبة أخرى مقدارها نصف العشر على تجارة أهل

الذمة وربع العشر على المسلمين . وكانت الضرائب المفروضة على الأرض تقدر على حسب مساحة الاراضى؛ ولم تكن تدفع كلها نقدا ، بل كان البعض يدفع عينا . وقد عمل الخلفاء على عدم إرهاق المزارعين ، فوضعوا قواعد ثابتة لمقدار الخراج حسب نوع المحصول وجودة الأرض. وكانوا يخفضون الضرائب فى بعض الأحيان إذا قل المحصول لسبب من الأسباب . وكان يصرف من بيت المال ارزاق القضاة والولاة والعمال وأعطيات الجند ، ثم نفقات كرى الأنهار واصلاح مجاريها وحفر الترع وغير ذلك من الأعمال العامة التى كانت تقوم بها الدولة .

(ب) الزراعة : — لم يعرف قوم أحسنوا الاستفادة من الماء للزراعة كما عرفها أولئك العرب الذين نشأوا فى الصحراء تحت الشمس المحرقة . فقد اهتموا بتنظيم الرى فحفروا الترع والمصارف وأقاموا الجسور والقناطر ، فتقدمت الزراعة وفلاحة البساتين . وقامت الزراعة عندهم على دراسة علمية ، وذلك بفضل إنشاء المدارس الزراعية ، فعرفوا أنواع النبات وصلاحية التربة وملاءمة الجو لكل نوع منها . كما استعملوا الأسمدة وعرفوا التطعيم وتوليد الأصناف المختلفة من الأشجار والفاكهة وغيرها . وان بساتين بغداد والقاهرة وقرطبة والزهراء وغيرها من العواصم لتدل على براعة العرب وسلامة ذوقهم فى غرس الحدائق وتنسيقها .

(ح) الصناعة : أحسن العرب استغلال موارد الثروة المعدنية ، فاستخرجوا الحديد والفضة والرصاص والكبريت والنفط والمرمر والرخام من مناجم فارس وخراسان وبلاد الأندلس ، مما ساعدهم على النبوغ فى صناعة المعادن لاسيما صناعة الأوانى النحاسية المطعمة بالفضة والذهب. واشتهرت طليطلة وغرناطة ودمشق واليمن بصناعة الأسلحة .

ومهر المسلمون في صنع الأوانى الخزفية والصينية والزجاجية ، والمصابيح البلورية المحلاة بالذهب والصدف والياقوت . ولا تزال دور الآثار بالقاهرة

ولندن وباريس وبرلين عامرة بالمجموعات الفنية التى تدل على تقدم هذه الصناعة وبخاصة فى مصر وفارس .

وقد نبغ العرب بنوع خاص فى صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية وعمل السجاجيد والفساطيط (الخيام) . فاشتهرت دمشق بصناعة الكتان ، والموصل بالشاش ، وخراسان بالسجاجيد والأصواف ، ومهرت الكوفة وقرطبة فى صناعة الحرير . وكان لمصر مركز ممتاز فى صناعة المنسوجات . فقد اشتهرت دمياط بصنع الفوط والبشاكير ، كما اشتهرت تنيس بالأقمشه الحريرية الملونة .

كذلك مهر العرب فى صناعة السروج ودبغ الجلود . وقد صنع فى مصر نوع من السروج مجوف ومبطن بصفائح من القصدير ليحمل فيها الجند الماء فى الحروب . وكان لمعامل الجلد القرطبى شهرة عظيمة .

وقد أخذ العرب صناعة الورق عن الصينيين ، فمهر فيها أهل سمرقند وبغداد . كما امتازوا بصناعة الصابون واستخراج الزيوت والأعطار .

(ى) الفنون : أخذ العرب فن العمارة عن الفرس والبيزنطيين ، فاسسوا العواصم العامرة وبنوا بها القصور الفخمة والمساجد العظيمة . وتشهد مساجد دمشق والقاهرة وأصفهان وقصر الحمراء البديع فى قرطبة بسلامة ذوق العرب فى البناء والزخرفة ومهارتهم فى الهندسة .

ولم يعن العرب بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء لكراهتهم الأوثان . ولذلك اقتصرت الزخرفة على المناظر الطبيعية والأشكال الهندسية والحيوانية والنباتية .

(و) التجارة : انتشرت تجارة العرب فى جميع أنحاء العالم المعروف وقتئذ . فكانت السفن الاسلامية تمخر عباب البحار تنقل المتاجر من الشرق الأقصى إلى الخليج الفارسى ومنها إلى عدن ومصر . واتصل العرب بسواحل إفريقية الشرقية حيث أقاموا مراكز تجارية ؛ فكانت السفن تذهب بالتجارة

من ثغور الشام ومن الاسكندرية وموانيء بلاد الأندلس إلى القسطنطينية وفرنسا وصقلية والجمهوريات الايطالية .

وقد عنى الخلفاء والأمراء بتأمين الطرق وحفر الآبار وإقامة المحاط فى طرق القوافل ، كما أقاموا المنائر فى الثغور وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من غارات القرصان .

وانتشرت قوافل التجارة من الصين والهند إلى جهات بحر قزوين والبحر الأسود والقسطنطينية حتى أواسط بلاد الروسيا ، ومن بغداد إلى الشام ومصر والمغرب الأقصى ، كما توغلت فى جهات البحيرات العظمى الافريقية واخترقت صحراء إفريقية إلى بلاد النيجر .

(٣) الحضارة العلمية

عنى العرب فى صدر الدولة الاسلامية بالعلوم الدينية . فتفرغوا لدراسة القرآن مصدر الدين والتشريع والأخلاق والآداب ، كما درسوا الحديث واللغة . ولما اختلطوا بالأمم الأخرى على أثر الفتوحات الاسلامية ، اقتبسوا الكثير من علوم الفرس والاغريق والهنود .

وقد بلغت النهضة العلمية أوجها فى صدر الدولة العباسية بفضل تشجيع المنصور والرشيد والمأمون . فكانوا يبعثون البعوث للتنقيب عن الكتب القديمة فى الكنائس والأديرة . وأرسل المأمون بعثات علمية إلى الهند والقسطنطينية لنقل الكتب النفيسة . ونشطت حركة الترجمة فى ذلك العصر نشاطاً عظيما ، فنقلت الكتب الفارسية والهندية والاغريقية الى العربية ، ومن بينها فلسفة ارسطو وهندسة إقليدس وجغرافية بطليموس وغير ذلك من الكتب فى الطب والفلك . وكان من أشهر المترجمين حنين بن اسحق ويعقوب بن اسحق الكندى . وقد نهج الفاطميون والأيوبيون فى مصر نهج العباسيين ، وكذلك أمراء بلاد الأندلس فى الغرب .

وكان العرب يلحقون المدارس بالمساجد . وقد أنشأوا معاهد علمية

فى بغداد وبخارى وقرطبة والقاهرة وغيرها . ولا يزال الأزهر الشريف أكبر جامعة إسلامية إلى اليوم . وقد وقف الخلفاء الأوقاف على المعاهد العلمية واغدقوا العطايا والأرزاق على العلماء والشعراء وطلاب العلم، فانصرفوا للبحث حتى ظهر منهم المؤلفون فى كل علم وفن .

كذلك اهتم العرب اهتماماً كبيراً بدور الكتب العامة حتى بلغ عدد المجلدات فى مكتبة القاهرة فى عهد الفاطميين خمسمائة ألف مجلد، و فى مكتبة قرطبة أكثر من أربعمائة الف مجلد .

و لم تقتصر علوم العرب على ما نقلوه عن غيرهم . فقد فاقوا أساتذتهم من الفرس والاغريق ، فكشفوا أسرار علم « الكيمياء » بفضل مجهودات جابر بن حيان والرازى . وعرفوا عمليات التقطير وتحضير الكحول ، كما كشفوا الحوامض المعدنية والقلويات . وقد ساعدت دراستهم للكيمياء على تقدم الطب . كذلك أتقن العرب فن الصيدلة واخترعوا العقاقير ، وكانوا أول من أقام الصيدليات والمستشفيات . وممن نبغ منهم فى فن الصيدلة عبد الملك بن زُهر الأشبيلى . كما ساعدت الكيمياء على رقى الصناعات حتى فاق العرب غيرهم فى صبغ الأصواف بالألوان البديعة ودبغ الجلود، واستخراج العطور ، وعمل الأشربة والمربيات .

أما « الطب » فقدبرع العرب فيه . فأجادوا التشريح والجراحة وتشخيص الأمراض . وفى مقدمة علماء الطب ابن زهر وابن سينا وأبو القاسم خلف أكبرجراحى القرن الحادى عشرالميلادى،وكانت له طرق فى الجراحة لاتقل دقة عن الطرق الحديثة . كذلك مارس النساء الطب في قرطبة حتى نبغن فيه .

ونبغ العرب فى « الرياضيات » فابتكر جبرالاشبيلى المتوفى سنة ١١٩٦م علم الجبر . كما نبغوا فى الهندسة والميكانيكا فاخترعوا المزاول والبوصلة ، وأقاموا المراصد فى بغداد والقاهرة وقرطبة ، وقاس علماء الفلك الزوايا وضبطوا الأبعاد وحركات الكواكب . ولا تزال معظم مجموعات النجوم

تحتفظ بأسمائها العربية إلى اليوم . وممن نبغ فى الفلك ابن يونس المصرى الذى اخترع بندول الساعة الدقاقة وبنى مرصداً بجبل المقطم .

كذلك عنى العرب بعلم « التاريخ الطبيعى » فدرسوا غرائز الحيوان وخواص النبات ، كما استخرجوا المعادن من المناجم . وقد نبغ ابن البيطار المالقى فى علم النبات وجال فى كل أنحاء العالم القديم للوقوف على خواص الأعشاب والعقاقير الطبية .

وقدشجع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وانتشارالتجارة فيها على رقىعلم «الجغرافيا».ولاعجبفالعرب بدو رحل بطبيعتهم.ومن أشهرالرحالةمنالعرب المسعودى وابن جبير وابن بطوطة الذين طافوا الأقطار ووصفوا الجهات المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدات، فمهدوا بذلكسبيل الكشف الجغرافى. وكشف العرب جزر أزوره Azores فى المحيط الأطلسىوالصحراء الكبرى الافريقية ، ووضع علماؤهم المصورات القيمة . من ذلك المصور الذى رسمه الادريسىلروجرالثانى Roger II ملكصقلية ونابلىسنة ١١٥٠م والمصورات النادرة المثال التى صنعت في أيام المعز لدين الله الفاطمى فى مصر .

كذلك اهتم العرب « بعلم التاريخ » فوضعوا فيه المؤلفات القيمة . ولا تزال كتب الطبرى والمسعودى وابن الأثير وأبى الفداء وابن خلدون والمقريزى من أهم المراجع فى هذا العلم .

وقد نبغ العرب فى الشعر والأدب . ولا غرو فقد أثرت فيهم بلاغة القرآن . وساعدت مظاهر الحضارة المادية وجمال المناظر الطبيعية وبخاصة فى بلاد الأندلسعلى رقى الخيال ورقة الشعر .

وقد برع العرب فى فن الغناء والعزف على الآلات الموسيقية كالصفارة والعود والقيثارة والأرغن . وممن نبغ من العرب في الموسيقى والغناء اسحق الموصلى ببغداد وتلميذه زرياب بقرطبة حيث أسس مدرسة للموسيقى تخرج فيها كثير من مشاهير الموسيقيين .

أثر مدنية العرب فى أوربا

كانت الدول الاسلامية فى المشرق ومصر وبلاد الأندلس مركز الفنون والصناعات ومنار العلوم والآداب فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى بحار الجهل . وقد اتصل الأوربيون بالعرب واقتبسوا من علومهم واستفادوا من حضارتهم عن طريق مصر والشام أثناء الحروب الصليبية التى قامت فى القرن الحادى عشر الميلادى .

فقد نزح الى بلاد الأندلس طلاب العلم من أنحاء أوربا ، فالتحقوا بمدارسها وجامعاتها وانتفعوا بدور الكتب الكثيرة بها . فلما عادوا إلى بلادهم نشروا علوم العرب .

وبلغ من اهتمام الغربيين بعلوم العرب أن أنشأوا فى باريس في القرن الثانى عشر الميلادى مدرسة لتعليم اللغات الشرقية . وقد ظهر من الأوربيين علماء تشبعوا بعلوم العرب وطرق أبحاثهم ، نخص بالذكر منهم العالم الانجليزى روجر بيكن Roger Bacon الذى دعا الناس الى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والاعتماد على التجارب للوصول إلى الحقائق العلمية . فبدأ الأوربيون يبحثون العلوم بحثاً علميا كان له أثر عظيم فى قيام النهضة العلمية فى أوربا ورقى الحضارة الغربية .

وقد نقل الأوربيون العلوم الطبية عن ابن زهر وابن البيطار ، وعرفوا بصفة خاصة طرق معالجة الجدرى والحصبة . وطالما كان يستدعى ملوك أوربا وأمراؤها الأطباء من العرب لمعالجتهم . وأسس الفرنسيون مدرسة للطب فى مدينة مونبيليه Montpellier قام بالتدريس فيها أساتذة من بلاد الأندلس. كذلك استفاد الأوربيون من نبوغ العرب فى الكيمياء. ولا تزال أسماء بعض المركبات الكيميائية كالكحول Alcohol والكافور Camphor والقلويات Alkali والأشربة Syrups تدل على أصلها العربى .

وأخذ الأوربيون عن العرب كثيراً من أنواع النبات كالأرز وقصب السكر والخرشوف، والمشمش والبرتقال، والزعفران وأنواع الورد والياسمين، كما أخذوا عنهم الطواحين الهوائية لطحن الغلال ورفع الماء. وأقاموا أول طاحونة منها فى مقاطعة نورمنديه سنة ١١٠٥م، كما أقاموا غيرها فى هولندة. ولا تزال سهول بلنسية فى أسبانيا تروى الى الآن بطارق الرى الفنية التى ابتكرها العرب.

وقد نقل الأوربيون عن العرب كثيراً من الصناعات كصناعة السكر والحرير والورق، كما عرفوا عنهم البوصلة، فكان لاستعمالها فضل كبير فى توسيع نطاق الملاحة وتشجيع الكشف الجغرافى.

وقد نبغ العرب فى الفنون الحربية وصناعة السفن حتى اصبحوا أساتذة أوربا فى ذلك المضمار. فكانت أساطيل الدول الاسلامية نماذج لأساطيل البلاد المسيحية فى حوض البحر الأبيض المتوسط. ولا يزال كثير من الاصطلاحات العربية البحرية شائعا على ألسنة البحارة فى جنوة حتى اليوم. من ذلك كلمة Cable المحرفة عن كلمة حبل، وكلمة Darsonal الايطالية المحرفة عن لفظ دار الصناعة.

ولم تقتصر استفادة الأوربيين من العرب على العلوم والصناعات. فقد تأثر طلاب العلم من الأوربيين بالأدب فى اسبانيا وبخاصة الشعر والموسيقى، فنقلوا إلى بلادهم أشعار العرب وأناشيدهم وأغانيهم. وكان لذلك أثر كبير فى الآداب الأوربية.

وقد نقل الأوربيون إلى لغاتهم كثير من الكتب العربية المعربة عن الاغريقية كجغرافية بطليموس وهندسة إقليدس وفلسفة أرسطو. وبذلك انتقلت الثقافة الاغريقية الى أوربا. وبذلك كان العرب حلقة الاتصال بين المدنية القديمة والمدنية الأوربية الحديثة.

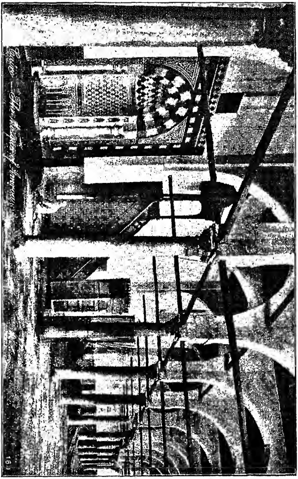
الفصل السابع
مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين

(١) مصر فى عهد الخلفاء الراشدين
١١ - ٤٠ هـ و ٦٣٢ - ٦٦٠ م

أصبحت مصر ولاية اسلامية بعد استيلاء العرب على الاسكندرية حاضرة الديار المصرية منذ عهد الاسكندر . فعين عمر بن الخطاب عمرو ابن العاص والياً عليها ، ولما لم تكن العرب أمة بحرية بنى عمرو مدينة « القسطاط » واتخذها حاضرة للبلاد بدلا من الاسكندرية .

وقد أحسن عمرو اختيار المكان الذى أسس فيه حاضرة مصر . لأنه يمكن الأشراف منه على قسمى الديار المصرية شمالا وجنوباً ، كما يسهل معه الاتصال ببلاد العرب . لذلك حفر عمرو القناة القديمة لتوصيل الأقوات إلى الحجاز . وكانت تصل البحر الأحمر بالنيل قريباً من الفسطاط ، وسماها خليج أمـــير المؤمنين . ثم بنى مسجده الذى لا يزال يعرف باسمه الى اليوم ، واختطت القبائل العربية حوله الدور والمساكن . وسرعان ما اتسع نطاق الفسطاط وأصبحت من أمهات المدن الاسلامية .

وكانت ترمى سياسـة الدولة الجديدة إلى التحبب إلى المصريين وإلى إرجاع الأمن الى نصابه ، لكى يتسنى لها التفرغ إلى إدارة البلاد والقيام بما تتطلبه من وجوه الاصـلاح . وكان عمرو سياسياً بعيد النظر ، فمنع جند العرب من امتلاك الأراضى حتى لا يصرفهم الاشتغال بها وحرصهم عليهـا عن تلبية نداء الجهاد فى كل وقت . وقد نصحهم عمرو فى أولى خطبه بتعهد الخيل التى هى عدتهم فى حروبهم ليكون الجيش على تمام الاستعداد للدفاع عن البلاد ضد الروم اذا ما حاولوا استرداد مصر . كما ذكرهم بقول النبى عليه الصلاة والسلام « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بالقبط خيرا



جامع عمرو بن العاص

فان لهم فيكم صهراً وذمة ». ولا غرو فان مارية أم ابراهيم بن النبى التى أرسلها المقوقس حاكم مصر هدية إلى النبى عليه الصلاة والسلام كانت قبطية.

استطاع عمرو أن يؤلف بين القبط والمسلمين؛ فكتب كتاب الأمان إلى بنيامين بطريرق القبط ورده إلى كرسيه بعد أن غاب عن البلاد زهاء ثلاث عشرة سنة فراراً من عسف الروم وظلمهم، ومنحه السلطان المطلق لادارة شئون الكنيسة. ناهيك بسياسة عمرو من إطلاقه الحرية الدينية للمصريين، وعدم التعرض لهم فى عاداتهم، وتأمينهم على أموالهم ونسائهم وأولادهم، وما قام به من ضروب الاصلاح وتنظيم الادارة وتنصيب القضاة ورسم الخطة لجباية الخراج، إلى العناية بالرى مما أدى الى إسعاد المصريين.

وقد أبقى عمرو النظام الادارى الذى سنه الرومان بعد ادخال التعديلات التى تتفق مع الدين الاسلامى كنظام القضاء مثلا.

وقد خفف عمرو عن المصريين عبء الضرائب التى أثقلت كاهلهم فى عهد الروم، وساوى فيها بين الأهلين. ففرض «جزية الرءوس»، وكان يدفعها أهل الذمة، ومقدارها ديناران فى السنة عن كل شخص. وأعفى منها النساء والشيوخ والأطفال. ثم «الخراج» أو ضريبة الأرض، وكان يراعى في جبايتها حال النيل فى الزيادة والنقصان. لذلك كان يختلف مقدارها فى كل عام. فجمع عمرو عشرة ملايين من الدنانير فى السنة الاولى واثنى عشر مليوناً فى السنة التالية. وقد بلغ الخراج فى عهد خلفه عبد الله بن سعد بن أبى سرح أربعة عشر مليوناً. ولما كان محصول البلاد مرتبطا بحالة النيل أنشأ عمرو مقياساً فى حلوان، ثم عنى الولاة من بعده باقامة المقاييس على النيل لتكون عونا لهم على ضبط الخراج وتوزيعه.

وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة وأحياناً من قبل الوالى لفض المشاكل طبقا لاحكام الشريعة الأسلامية. وظل قضاء مصر فى يد عمرو بن العاص إلى سنة ٢٣هـ حيث أسنده عمر بن الخطاب إلى قيس بن أبى العاص

فكان أول قضاة المسلمين فى هذه البلاد . وكان يراعى فى القاضى أن يكون عفيفاً ورعاً عالماً مجتهداً لا يخشى فى الحق لومة لائم .

وقد لعبت مصر دوراً هاماً فى الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان . فقد استاء المصريون من سياسته ولا سيما في ولاية عبد الله بن أبى سرح الذى أثقل كاهلهم بالضرائب ، ووجدت دعوة ابن سبأ مرعى خصيباً فى نفوسهم فقاموا بالثورة بزعامة محمد بن أبى حذيفة الذى قاتل أنصار عثمان وأقام نفسه واليا على الفسطاط .

ولما قام النزاع بين معاوية وعلى انتصر فريق من المصريين لمعاوية الذى أخذ يعمل على سلخ مصر من على ، فأرسل جيشاً حارب محمد بن أبى حذيفة وانتصر عليه وساقه إلى الشام حيث قتل هو بعض أنصاره

وبعد انتهاء التحكيم أرسل معاوية جيشا بقيادة عمرو بن العاص لاستخلاص مصر من محمد بن أبى بكر والى هذه البلاد من قبل على ، فهزم عمرو « محمد بن أبى بكر » وقبض عليه وقتله . وولى معاوية عمرو بن العاص على مصر ولاية مطلقة وجعلها له طعمة ، له خراجها يصرف منه على ما تتطلبه البلاد من ضروب الاصلاح ، وما بقى بعد ذلك فهو له .

(٢) مصر فى عهد بنى أمية والعصر العباسى الأول

٤٠ — ٢٥٤ هـ و ٦٦٠ — ٩٠٥ م

امتاز تاريخ مصر فى هـــذا العصر بقيام الفتن والثورات الداخلية وعلى الأخص بعد كتابة الدواوين بالعربية فى عهد الوليد بن عبد الملك ابن مروان سنة ٨٧ هـ بعد أن كانت تكتب بالقبطية ، وماتبع هذا العمل من إقصاء القبط عن كثير من مناصب الدولة ، إذ كانوا يقومون بجباية الخراج واليهم وحدهم تسند الأعمال الكتابية الهامة . مما أدى إلى إحياء روح القومية عند القبط ، ودفع بهم إلى الهياج والثورة فى وجه الولاة .

ومما امتاز به هذا العصر أيضا اشتطاط العمال فى جمع الخراج . فلا عجب

إذا لم تستفد البلاد فى هذا العهد الطويل فائدة تذكر ، فقد حملهم قصر عهد الولاة وتزعزع مراكزهم على التفرغ لجمع الضرائب لسد جشعهم واستدرار عطف الخلفاء عليهم . هذا فضلا عما كان لتدخل عرب مصر فى الخلافات الخارجية التى نشأت بين الخلفاء والخارجين عليهم ، كفتنة عبد الله بن الزبير والفتنة التى انتهت بقيام الدولة العباسية ، ثم الفتنة التى أدت إلى قتل الأمين .

على أنه لا يفوتنا أن نذكر ما شمل مصر من ضروب الاصلاح فى هذا العصر . فقد تولى هذه البلاد بين حين وآخر رجال عرفوا بالمقدرة وحسن السياسة ، فنشروا العدل بين الناس وعملوا على ترقية الزراعة والصناعة وفن العمارة وغيرها . ومن هؤلاء الولاة مَسلمة بن مُخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) الذى بنى فى الروضة مقياساً للنيل وداراً لصناعة السفن ، وجدد بناء جامع عمرو ، كما رد الروم على أعقابهم حين نزلوا البرلس . وقد اشتهر بالورع والتقوى والتسامح الدينى فسمح للقبط بأن يبنوا كنيسة لهم فى الفسطاط .

ومن هؤلاء الولاة أيضاً « عبد العزيز بن مروان » (٦٥ — ٨٦ هـ) الذى جاء إلى مصر مع أبيه مروان بن الحكم لاستردادها من عامل عبد الله بن الزبير . وقد طالت ولايته على مصر فقام بكثير من ضروب الاصلاح . ولا غرو فقد رسم له أبوه الخطة لكسب رضاء المصريين فى تلك النصيحة : « يابنى ! عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصفو لك مودتهم . وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره وينقاد قومه إليك » . وقد عمل عبد العزيز بنصيحة أبيه فنجحت سياسته فى مصر . ومن إصلاحاته بناء مقياس للنيل ، وزيادته فى الجامع العتيق (جامع عمرو) ، كما بنى قنطرة بطرف الفسطاط على خليج أمير المؤمنين سنة ٦٩ هـ . كذلك حوّل حاضرة مصر إلى حلوان سنة ٧٣ هـ ونقل اليها بيت المال ، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق اليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر تصل عيون الماء بالبركة ، وكانت مشيدة على أعمدة . وقد

أخذ الأمويون هذا النوع من القناطر عن الرومان. وقد شاد الشعراء بما أتاه هذا الوالى من أعمال البر والاحسان .

ومن الولاة الذين ولوا مصر في العصر العباسي وعرفوا بالعدل والخير واكتساب محبة الأهلين « صالح بن على » العباسى الذى تتبع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية إلى الصعيد وهزمه وقتله سنة ١٣٢ ﻫ ، ثم أسس مدينة «العسكر» واتخذها حاضرة لولايته ومقراً لعسكره. ومن هؤلاء الولاة أيضاً موسى ابن عيسى الذى ولى هذه البلاد ثلاث مرات (سنة ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ﻫ) . فقد تحبب إلى القبط ، فأذن لهم ببناء الكنائس التى هدمها سلفه على بن سليمان .

وكان من أحسن الولاة الذين حكموا مصر فى هذا العصر أيضاً « عنبسة بن اسحاق » (٢٣٨ - ٢٤٢ ﻫ) ، وكان آخر من ولى مصر من العرب ، كما كان آخر الولاة الذين أمّوا الناس بالمسجد . فقد حصن دمياط وتنيس ورد البيزنطيين عن مصر سنة ٢٣٨ ﻫ .

ولى مصر بعد عنبسة ولاة كلهم من الأتراك كانوا يقطعون هذه البلاد على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة . وقد جرت عادة هؤلاء الولاة أن يستخلفوا نواباً عنهم يحكمون هذه البلاد باسمهم ، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة بسامرا وما فيها من بذخ وترف ويأتوا إلى مصر للاقامة فيها . وفى سنة ٢٥٤ ﻫ ولى مصر باكباك أحد هؤلاء الأتراك ، فأناب عنه أحمد بن طولون .

الفصل الثامن

الطولونيون والإخشيديون والفاطميون فى مصر

١ — الطولونيون فى مصر

٢٥٤ — ٢٩٢ هـ و ٨٦٨ — ٩٠٥ م

احمــــد بن طولون

٢٥٤ — ٢٧٠ هـ و ٨٦٨ — ٨٨٣ م

كان طولون مملوكا تركيا لأحد أمراء السامانيين ، أرسله إلى المأمون سنة ٢٠٠ هـ ضمن ما أرسله إليه من الرقيق والهدايا . وولد لطولون هذا بسامرا ولد سماه أحمد. وقد عرف أحمد بعلو الهمة وحسن الأدب ، وشغف بطلب العلم ، وصحب الزهاد وأهل الورع فتأدب بآدابهم ، كما اشتهر بحب الغزو ، فخرج إلى طرسوس مرات لحرب الروم وتزوج احمد ابنة « بارجوج » أحد كبار الأتراك فى دار الخلافة ، فساعده على تولية بعض أعمال طرسوس . وفى سنة ٢٥٤ هـ تقلد « باكباك » ولاية مصر ، فاستخلف أحمد بن طولون على حاضرتها فقط .

تثبيت ولاية ابن طولون على مصر :— لم تصفُ لأحمــــد بن طولون ولاية مصر ، لأنه تقلد حاضرة هذه البلاد دون غيرها من قبل باكباك . وكان فى استطاعة باكباك هذا أن يعزله متى شاء . أضف إلى ذلك منافسة ابن المدبر عامل الخراج له ودأبه على الايقاع به عند الخليفة . هذا إلى ما كان من وقوع العداء بينه وبين الموفق أخى الخليفة العباسى وصاحب الأمر والنهى فى دار الخلافة. وقد عمل ابن طولون على التغلب على هذه الصعاب.

منافسة ابن المدبر :— عرف ابن المدبر بالدهاء ، وكان له أتباع

وأنصار لايستهان بقوتهم . فسعى لدى الخليفة فى عزل ابن طولون واتهمه بالعمل على الاستقلال بمصر. وكان لابن طولون فى دار الخلافة عيون وأنصار استمالهم إليه بالهدايا النفيسة ، فأطلعوه على ما كان يدبره له ابن المدبر . ومن حسن حظ ابن طولون أن عين بارجوج (حمو ابن طولون) خلفاً لباكباك على ولاية مصر ، فأنابه عنه على هذه البلاد كلها. وبذلك استطاع ابن طولون أن يتخلص من ابن المدبر باقصائه عن مصر . وما لبث أن استقل بخراجها أيضاً سنة ٢٦٣ هـ .

العداء بين ابن طولون والموفق :— كان الموفق أخو الخليفة المهتدى والياً على القسم الشرقى من الدولة العباسية . وفى سنة ٢٥٦ هـ امتنع والى الشام عن دفع الجزية الى الخليفة وطمع فى أخذ مصر . فطلب الخليفة الى ابن طولون أن يغزو الشام على أن تكون له ولايتها . فلما خرج ابن طولون لغزو هذه البلاد خشى الموفق ازدياد نفوذه ، فعمل لدى الخليفة على صرفه عن الشام . وبذلك حال بين ابن طولون وبين ما كان يطمح إليه من ضم بلاد الشام الى مصر .

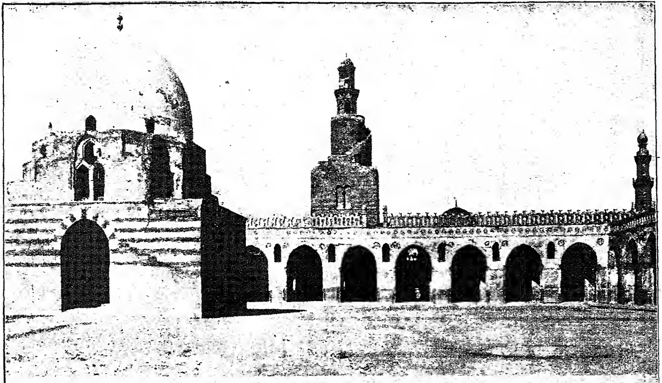
ولما توفى ماجور خرج ابن طولون بجيشه الى الشام سنة ٢٦٤ هـ واستولى على جزء كبير منها ، غير أنه اضطر للعودة إلى مصر حين اتصل به نبأ خروج ابنه العباس عليه . وقد فر العباس الى برقة ، فكتب اليه أبوه ينصح له بالرجوع إلى طاعته ، فلم يذعن . وفى سنة ٢٦٨ هـ بعث إليه ابن طولون جيشاً هزمه وقبض عليه وساقه الى الفسطاط حيث حبس .

وما زال الموفق يدس الدسائس لابن طولون ويحث موسى بن بغا (صاحب النفوذ فى القسم الغربى للدولة) على طرده من الشام ومصر . فجمع موسى جيشاً لغزو هذه البلاد ، الا أن منيته وافته قبل تحقيق غرضه . وقد استعد ابن طولون للدفاع عن مصر ، فبنى حصناً منيعاً بجزيرة الروضة ليكون معقلا له ولحرمه . كذلك أنشأ ابن طولون السفن الحربية وحصن الثغور ثم خرج لفتح بلاد الشام من جديد (٢٦٥ هـ) ، واستولى على تلك البلاد ، وما زال فى فتوحه حتى وصل الى آسيا الصغرى .

آثار ابن طولون : — ولما ضاقت مدينة العسكر بجند ابن طولون وعبيده أسس حاضرة جديدة لمصر سنة ٢٥٦ هـ بين قلعة الجبل وزين العابدين ، واتخذ لنفسه داراً جعل أمامها ميداناً فسيحاً . ثم اختط كبار رجال دولته وقواده وغلمانه دورهم حول ذلك الميدان ، واتخذ كل منهم قطيعة خاصة به ، كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك لأرباب الحرف والصناعات والتجار قطائع يقيمون بها . وكانت كل قطيعة تسمى باسم الطائفة التى تسكنها ، فسميت المدينة كلها بالقطائع . ثم أخذ الناس فى البناء فعمرت المدينة حتى اتصلت أبنيتها بالفسطاط .

وقد قام ابن طولون بكثير من ضروب الاصلاح . فأقام العمائر الكثيرة وبنى جامعه المشهور الذى شرع فى بنائه سنة ٢٦٣ هـ . وقد بناه على مثال جامع سامرا ، وجعل فيه خزانة للأدوية ، وعين له طبيباً خاصاً يقوم بمداواة ما قد يطرأ على المصلين في يوم الجمعة . كما أصلح مقياس الروضة وحفر خليج الاسكندرية ورمّ منارها . وأقام السقاية ، وهى خزان كبير يصل إليه الماء بواسطة قناطر مقامة على أعمدة لتوصيل الماء إلى خارج المدينة لسقاية سكان الجهات الصحراوية . ومن الآثار التى خلدت اسم ابن طولون هذا العمل الانسانى الجليل الذى لم يسبقه اليه أحد فى مصر ، وهو بناء المارستان سنة ٢٥٩ هـ . وهو مستشفى كان يقيم فيه المرضى بلا مقابل كما كانت تصرف لهم الأدوية بالمجان من غير تمييز فى الأديان والمذاهب . وقد جعل ابن طولون فى المارستان حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء ، كما كان يتفقد هذا المارستان فى يوم الجمعة ويبالغ فى مؤاساة المرضى وإدخال السرور عليهم .

وتوفى ابن طولون سنة ٢٧٠هـ بعد أن استردت مصر فى عهده شيئاً كبيراً من قوتها وعظمتها واستقلالها . فنهضت فيها الفنون والآداب والصناعات وزادت موارد البلاد ، وعمها الرخاء حتى بلغ ثمن الأردب من القمح ما يوازى خمسة قروش ، وذلك بفضل اصلاحاته العديدة وسياسته الرشيدة .



جامع ابن طولون — إيوان الجامع وصحنه ، تعلوه المنارة ، وتظهر فيه قبة الميضأة

خمارويه بن احمـــد بن طولون

٢٧٠ - ٢٨٢ ه‍ و ٨٨٣ - ٨٩٥ م

لما توفى احمد بن طولون اجتمع الجند على ما قضت به العادة فى ذلك الوقت وولوا مكانه خمارويه ، وكان فى العشرين من عمره ، ثم أقر الخليفة هذا التعيين . وقد ظلت مصر فى عهد خمارويه كما كانت فى عهد أبيه محط أطماع المتنافسين من قواد الأتراك ومثار حسد الموفق . فكان أول ما قام به خمارويه من الأعمال أن بعث الواسطى كاتب أبيه (وزيره) على رأس جيش كثيف وأسطول كبير إلى الشـام . ولكن الواسطى خرج عليه وانضم إلى الموفق وحرضـه على السـير لقتال خمارويه . ويرجع السبب فى ذلك الى ما كان يخشاه الواسطى من قتل خمارويه له أخذاً بثأر أخيه ، فقد أشـار عليه بقتله اتقاء لما قد تجر إليه حياته من الشر .

<u>الحروب فى الشام</u> :ـــ خرج الموفق من بغداد وانضم اليه والى أرمينية وعامل الموصل ، فاستولى على دمشق ، ثم تقدم جنوباً الى الرملة حيث دارت بينه وبين خمارويه موقعة كبيرة انهزم فيها خمارويه وعاد أدراجه الى الفسطاط ، غير أن بعض فلول جيشه انقضوا على العدو حال انشغاله بجمع الأسلاب والغنائم وهزموه . فلما علم خمارويه بهذا الانتصـار تجددت فى نفسه روح الأمل وخرج ثانية إلى الشـام سنة ٢٧٣ ه‍ . فدخل دمشق ثم حارب عامل الموصل وانتصر عليه بعد حروب طويلة . ومن ثم بدأ أعداء خمارويه يخشون بأسه . وقد تم الصلح بينه وبين الخليفة على أن تكون له وأولاده من بعده ولاية مصر والشام ثلاثين سنة .

وقد انتهز خمارويه فرصة قيام النزاع بين عامل الموصل وعامل الأنبار ، فاستولى على الرقة ، ونشر نفوذه فى الموصل والجزيرة ، وخضع له عامل الأنبار . إلا أن خضوعه لم يدم طويلا . فقد عاد إلى غزو الشـام ، فحاربه

خمارويه وأوقع به الهزيمة سنة ٢٧٦ ﻫ . وتقدمت جيوشه حتى وصلت إلى نهر دجلة ، ثم تقدم إلى طرسوس فاعترف واليها بنفوذه كما هاجم الولايات البيزنطية فى آسيا الصغرى عدة مرات .

ولما مات الموفق والمعتمد سنة ٢٧٩ ﻫ استطاع خمارويه أن يكسب رضاء الخليفة المعتضد . فأقره هو وأولاده على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة على أن يحمل الى دار الخلافة ثلثمائة ألف دينار جزية سنوية .

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم بينه وبين الخليفة أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء (قطر الندى) من ابن الخليفة ، فتزوجها الخليفة نفسه . وقد أسرف خمارويه فى تجهيز ابنته ، حتى قيل انه بنى لها على كل رأس مرحلة منزلا فخما تنزل فيه فى طريقها الى بغداد وأعد هذه المنازل بكل ما تحتاج العروس . فكانت في سفرها ممتعة بكل وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت فى قصر أبيها .

آثار خمارويه : — اشتهر خمارويه بحبه للترف فزاد فى القصر الذى بناه أبوه وجمّله ، وأنشأ فيه بيت الذهب ، وهو حجرة كبيرة ذات إيوان فسيح . وقد طليت حيطانه بالذهب المنقوش نقشاً بديعاً . كما بنى داراً للسباع وبيوتاً للنمور والفهود والفيلة والزرافات وغيرها . حتى أصبح هذا المكان أشبه بحديقة للحيوان .

كذلك اهتم خمارويه بتربية الماشية على اختلافها ، وحول الميدان الفسيح الذى جعله أبوه أمام القصر إلى بستان جميل غرس فيه الثمار على اختلاف أنواعها ، وأقام فيه برجا للطيور الشجية الصوت ، كما شق فيه جداول الماء وأقام حلبات للسباق كانت أشبه بالأعياد لما كان يصحبها من رفع معالم الزينة وركوب الغلمان والعساكر بالعدد الكاملة والأسلحة التامة .

ومما يدل على حب خمارويه للترف هذه الفسقية التى ملأها بالزئبق ووضع

فوقها حشية (مرتبة) تنفخ بالهواء ثم تشتد بالزنانير الحريرية . فكان الفراش يرتج بحركة الزئبق . ويقال فى سبب بناء هذه الفسقية إنه شكا الى طبيبه ما كان يعانيه من الأرق فأشار عليه بذلك .

ويدلنا بذخ خمارويه على وفره موارد ثروة مصر فى ذلك العصر . ولا غرو فقد تقدمت الصناعة فى عهده وراجت التجارة وعمرت الأسواق . غير أن هذا الأسراف قد أفقر خزانة الدولة وأضعفها . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن زواج الخليفة بقطر الندى كان زواجاً سياسياً يرمى إلى إيقاع مصر فى عسر مالى ، وبذلك يسهل على العباسيين إعادتها إلى حكمهم المطلق .

ضعف الدولة الطولونية وسقوطها

توفى خمارويه بدمشق سنة ٢٨٢ هـ ، فخلفه ابنه أبو العساكر جيش . ولكن الناس لم يرضوا عنه لقتله عمه (مضر بن أحمد بن طولون) ، وأفتى الفقهاء والقضاة بعزله . فقبض عليه وسجن وظل فى سجنه حتى مات . فخلفه هارون بن خمارويه ، ولم يكن يصلح للولاية لصغره . وفي عهده أغار القرامطة على الشام سنة ٢٩٠ هـ ، فأنفذ هارون جيشاً لمحاربتهم فحلت به الهزيمة ، مما يدل على مبلغ الضعف الذى وصلت إليه مصر فى ذلك الحين . وقد بعث الخليفة المكتفى أسطولا بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ، والتقى الاسطولان العباسى والمصرى عند « تنيس » ، فحلت الهزيمة بالمصريين ، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان وفر هارون إلى مدينة العباسة (بجوار الزقازيق) حيث قتله عمه « شيبان » ، وخلفه على الولاية . وفى عهده سقطت مصر فى يد محمد بن سليمان الذى دخل مدينة القطائع وألقى فيها النار ، ونهب رجاله الفسطاط وكسروا أبواب السجون وأخرجوا أولاد ابن طولون وأنصارهم من مصر . وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت هذه البلاد ثمان وثلاثين سنة .

✡✡✡

استمر الاضطراب فى مصر أثر عودتها إلى سلطان العباسيين المطلق ، وذلك لضعف الخلفاء العباسيين وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم ، لازدياد نفوذ الأتراك فى بغداد ، وضعف مصر نفسها لقيام المنافسة بين الولاة والقواد وعمال الخراج .

وقد أصبح الوالى من الضعف بحيث استبد به الجند وعمال الخراج . وقد جرت العادة فى ذلك العهد أن يكون تعيين الوالى أو عزله على يد الجند. فلم يكن بد من أن يكسب الوالى رضاءهم ليضمن بقاءه فى مركزه ، كما لم يكن فى استطاعة الوالى الحصول على الأموال اللازمة لسد جشع الجند إلا بموافقة عامل الخراج ، وكان نفوذه يفوق نفوذ الوالى .

وليس أدل على ضعف الولاة واضطراب الحكومة فى ذلك العصر من حضور ابن الخلنج (أحد قواد الطولونيين) إلى مصر واستيلائه على الفسطاط بقوة صغيرة وفرار الوالى إلى الأسكندرية . وبقى ابن الخلنج فى مصر ثمانية أشهر يقلق بال الخلافة ويحارب القوات التى أرسلها الخليفة الى أن غلب على أمره وقبض عليه وأرسل إلى بغداد حيث قتل .

وقد تعرضت مصر فى ذلك الوقت لغزوات الفاطميين الذين أسسوا دولتهم فى بلاد المغرب سنة ٢٩٧ هـ وحاولوا الاستيلاء على مصر غير مرة لاتخاذها مركزاً لبث دعوتهم ونشر نفوذهم فى الشرق .

وظلت مصر فى هذه الفوضى إلى أن وليها محمد بن طغج الأخشيد سنة ٣٢٣ هـ . فأعاد الأمن إلى نصابه فدخلت مصر فى عهده فى طور جديد من التقدم والاصلاح .

٢ — الأخشيديون فى مصر

٣٢٣ - ٣٥٨ هـ و ٩٣٥ - ٩٦٩ م .

الاخشيـــــــــد

٣٢٣ - ٣٣٤ هـ و ٩٣٥ - ٩٤٦ م

أسس هذه الدولة محمد بن طُغج من أولاد ملوك فَرغانة . وكان يلقب ملك هذه البلاد بالاخشيد ، كما كان يلقب ملك الفرس بكسرى ، وملك الروم بقيصر ، وملك الحبشة بالنجاشى .

وقد اتصل طغج بخدمة الطولونيين . فولاه خمارويه دمشق وطبرية . وكان لطغج ضلع كبير فى خلع أبى العساكر جيش بن خماريه ٢٨٣ هـ ، وساعد العباسيين على استرداد مصر سنة ٢٩٢هـ ، وقد قربه اليه محمد بن سليمان القائد العباسى وصحبه إلى بغداد . إلا أن وزير الخليفة قد غضب عليه لأنه لم ينزل عن جواده عند لقائه له . فأمر بحبسه هو وابنيه . وقد ظل طغج في السجن إلى أن توفى سنة ٢٩٤ هـ ، فأطلق الوزير ابنيه وأدخلهما فى خدمته . واشتهر محمد ابن طغج بالشجاعة والمهارة الحربية . وفى سنة ٣٠٦ هـ أنابه « تكين » والى مصر والشام على بعض أعمال فلسطين . وقد اشترك ابن طغج فى صد غزوات الفاطميين عن مصر سنة ٣٠٧ هـ ، فولاه « تكين » على الاسكندرية وقد أبلى البلاء الحسن فى رد الفاطميين عن مصر حين غزوها للمرة الثانية ، فولاه الخليفة العباسى على مصر سنة ٣٢٣ هـ ، فأخذ يعمل على تثبيت مركزه والاستقلال بهذه البلاد رغم ما قام فى طريقه من العقبات .

خطر الفاطميين :— فى سنة ٣٢١ هـ أرسل الفاطميون حملة لغزو مصر فجد الاخشيد فى حربهم وانتصر عليهم ، وأرغمهم على طلب الصلح سنة ٣٢٤ هـ فعادوا إلى بلادهم .

النزاع مع الخليفة : — وفى سنه ٣٢٨ ﻫ ولى الخليفة محمد بن رائق على مصر . فحنق الاخشيد على الخليفة وألغى الخطبة له مدة ، وأعد جيشاً قابل ابن رائق عند العريش وانتصر عليه . وعلى الرغم من انتصار الأخشيد فقد عقد الصلح مع ابن رائق وترك له الأراض الواقعة شمالى الرملة . كما تعهد بأن يدفع اليه جزية سنوية مقدارها ١٤٠٠٠٠ دينار . والذى حدا إلى عقد الصلح على هذه الصورة ما كان يخشاه من تجدد القتال بينه وبين الخليفة فى الوقت الذى كان الفاطميون يهددون فيه مصر من الغرب والحمدانيون فى شمال الشام . ثم زوج الاخشيد ابنته من ولد ابن رائق توثيقاً لعرى الصداقة مع ابن رائق . وقد عادت ولاية الشام كلها إلى حوزة الاخشيد بعد وفاة ابن رائق سنة ٣٣٠ ﻫ من غير حرب ، كما اعترفت مكة والمدينه بنفوذه .

الحرب مع الحمدانيين : — وبعد أن انتهى الاخشيد من ابن رائق تفرغ لقتال سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب الذى كان يناوىء الاخشيد فى شمال الشام . فخرج اليه الاخشيد بجيش كثيف سنة ٣٣٣ ﻫ . وأوقع بجنده فى حمص واستولى على حلب حاضرة الحمدانيين . الا أن الاخشيد على الرغم من هذا الانتصار عقد الصلح مع سيف الدولة وترك له حلب كما تعهد أن يدفع له الجزية . وانما قصد الاخشيد بذلك أن تبقى الدولة الحمدانية حصنا منيعا لصد غارات البيزنطيين عن بلاد الشام .

توفى الاخشيد سنة ٣٣٤ ﻫ فى فلسطين ودفن فى بيت المقدس بعد أن ثبتت قدمه فى مصر والشام والحجاز وأصبح من القوة بحيث استطاع أن يأمر عماله وقواده بأخذ البيعة لابنه انوجور . وبعد أن أقر الخليفة العباسى نظام الوراثة الذى سنه الاخشيد . وقد تمتعت البلاد فى عهده بشىء كثير من الراحة والطمأنينه .

استبداد كافور بالسلطة

٣٣٤ - ٣٤٩ هـ . و ٩٤٦ - ٩٦٠ م

خلف الاخشيد بعد وفاته ابنه أبو القاسم أنوجور ولما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره . فقام بتدبير أمره أبو المسك كافور. وكان عبدا خصيا اشتراه محمد بن طغج من الأهالى بثمانية عشر دينارا . ولما آلت ولاية مصر إلى ابن طغج ترقى كافور فى بلاطه حتى جعله « أتابك » (مربى) ولديه لما توسمه فيه الأخشيد من النجابة والهمة .

وفى أوائل عهد أنوجور عاود سيف الدولة الحمدانى الأغارة على دمشق ، وعول على السير إلى الرملة والاستيلاء على مصر فنجح كافور فى اخراج سيف الدولة من دمشق وحال دون مسيره إلى مصر وغنم منه الغنائم الوفيرة . فعظم شأن كافور وزادت شهرته ، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام ، وخاطبه علية القوم «بالأستاذ» ، ودعى له على منابر مصر والشام والحجاز . وأتيح له أن يكسب محبة القواد وكبار رجال الدولة بما كان يغدقه عليهم من العطايا والهبات

ولما كبر أنوجور وشعر بحرمانه من سلطته ظهرت الوحشة بينه وبين كافور ، وانقسم الجند فريقين ـ الأخشيدية والكافورية . وقد أمن كافور شر الفتنة بموت أنوجور سنة ٣٤٩هـ وولاية على بن الأخشيد (٣٤٩-٣٥٥هـ و٩٦٠ - ٩٦٦ م .) وكان فى الثالثة والعشرين من العمر . فأصبح كافور وصيا عليه كما كان على أخيه من قبل ، وأستبد بالأمر دونه . فظهرت الوحشة بينه وبين كافور الذى ضيق عليه ومنع الناس من الدخول عليه . وظل هذا الوالى على ذلك الى أن توفى سنة ٣٥٥ هـ . فحال كافور دون تعيين ابنه أحمد لصغر سنه ، وحصل من الخليفة العباسى على كتاب بتقليده ولاية مصر .

حالة مصر العامة فى عهد كافور : — وفى عهد كافور حل بمصر البؤس والغلاء وبلغ درجة لم ترها هذه البلاد من قبل ، وذلك بسبب انخفاض

النيل الذى بدأ سنة ٣٥١ هـ وظل تسع سنوات قاست فيها البلاد الأمرين مما أصابها من القحط والوباء . وقد ندرت الأقوات وعز ورود القمح ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم ، حتى قيل إنه كان يلقى بالجثث فى النيل لكثرتها ، وأن عدد الموتى بلغ ٦٠٠,٠٠٠ — وكان من أثر هذا القحط أن عم السلب والنهب واضطرب الأمن فى البلاد ، واختلت أعمال الحكومة ، ولم يستطع كافور أن يدفع رواتب حرسه من الأتراك والروم فثاروا عليه .

ومما زاد هذه الحالة سوءا توغل جند ملك النوبة فى الديار المصرية حتى وصلوا إلى إخميم فأحرقوا البلاد ونهبوا الأموال ، كما أغار القرامطة على الشام سنة ٣٥٣ هـ . ونهبوا حجاج مصر وهم فى طريقهم إلى مكة سنة ٣٥٥ هـ .

حالة مصر بعد وفاة كافور :— حل بمصر البؤس وعمتها الفوضى بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ . (٩٦٨ م) . وقد اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الأخشيد واليا على هذه البلاد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر . فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج (والى الشام) وصيا عليه . فاستبد الحسن بالأمر وقبض على الوزير جعفر بن الفرات وصادر أمواله ، وأساء معاملة الأهلين ، فسخطوا عليه . فعاد إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ . وأصبحت ادارة البلاد فى يد الوزير ابن الفرات الذى لم يستطع أن يدفع رواتب الجند ويخفف عن المصريين ما هم فيه من بؤس وشقاء . لهذا لا نعجب اذا عجزت البلاد عن صد هجمات الفاطميين .

وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمى فرصة ضعف بغداد عن الدفاع عن مصر وانشغالها بصد غارات البيزنطيين ، الذين توغلوا فى بلاد الدولة العباسية وعبروا الفرات حتى وصلت جيوشهم الى قلب سورية ، فوجه جيشا لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ هـ .

الفاطميون فى مصر

٣٥٨ — ٥٦٧ هـ و ٩٦٩ — ١١٧١ م

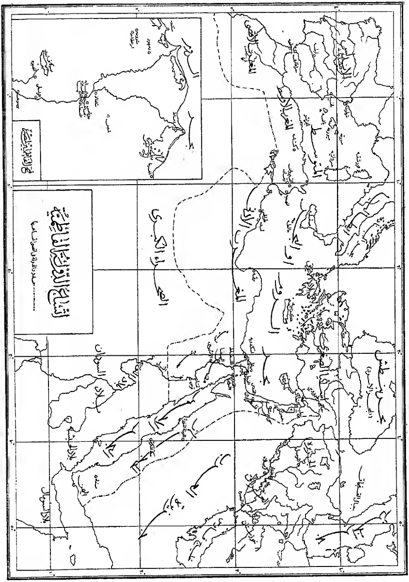
كان من أثر ما حل بالعلويين من الاضطهاد بعد قيام الدولة العباسية أن لجأ بعضهم إلى أطراف الدولة حيث وجدوا مرعى خصيبا لنشر دعوتهم الشيعية وتأسيس دولة لهم . وكان شمال إفريقية أكثر الأقاليم صلاحية لقبول هذه الدعوة ، لبعده عن مركز الخلافة ، ولكراهة البربر ولاة العباسيين الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب .

وفى سنة ٢٨٨ هـ ٩٠١ م ظهر فى تلك البلاد أبو عبد الله الشيعى ودعا لأولاد على من فاطمة ونشر المذهب الشيعى وقضى على دولة الأغالبة فى تونس ، ثم أقام عبيد الله المهدى (من نسل الحسين بن على) خليفة فى هذه البلاد ، فبايعه الناس . وقد أسس عبيد الله المهدى مدينة المهدية واتخذها حاضرة لدولته ، ونشر نفوذه فى بلاد المغرب ، فدانت له معظم القبائل . وقد حاول فتح مصر ، ولكنه لم يفلح ومات سنة ٣٢٢ هـ ، فخلفه ابنه القائم ، فحاول فتح مصر ، فقاومه محمد بن طغج الأخشيد على ما تقدم . ولما توفى القائم سنة ٣٣٤ هـ خلفه إبنه المنصور الذى عمل على فتح مصر لولا أن شغلته الثورات فى بلاد المغرب . ثم جاء بعده ابنه المعز سنة ٣٤١ هـ الذى تم فتح مصر على يديه .

المعز لدين الله

٣٤١ - ٣٦٥ هـ و ٩٥٢ - ٩٧٥ م

دانت قبائل البربر لسلطان المعز ، وأتيح له بذلك أن يقضى على دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى . فانتشر سلطانه من حدود طرابلس الغرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ، كما استولى على جزيرة صقلية فى البحر الأبيض المتوسط .


اتساع الدولة الفاطمية
حدود الدولة في أقصى اتساعها

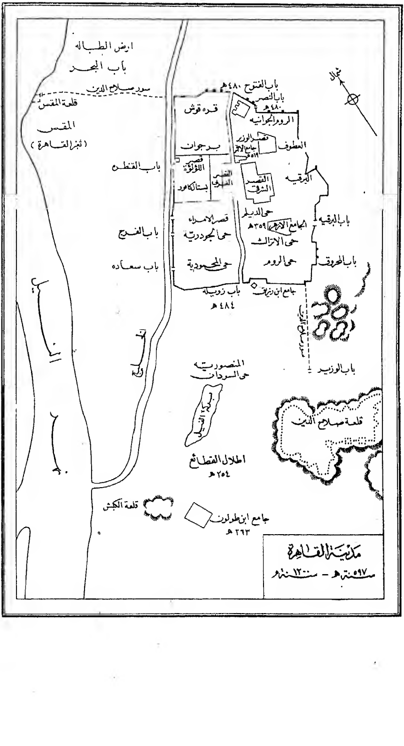
فتـــح مصر

ولما ساد الهدوء كل أرجاء شمال إفريقية ، فكر المعز فى فتح مصر ليتخذها مركزاً للدعوة الشيعية لثروتها وقربها من المراكز الاسلامية كالمدينة ودمشق وبغداد . ومما شجعه على غزو مصر تلك الفوضى التى عمت هذه البلاد التى انتشر فيها القحط والوباء وسادها الاضطراب وسوء النظام بعد وفاة كافور ولذلك أعد جيشاً يقرب من المائة الف أسند قيادته إلى جوهر الصقلى .

سار جوهر إلى مصر سنة ٣٥٨ ه (٩٦٩ م) حتى وصل إلى الاسكندرية فسلمت هذه المدينة اليه بعد أن أجاب أهلها إلى ما التمسوه من شروط أهمها المحافظة على أرواحهم وأموالهم ثم تقدم جنوباً واستولى على الفسطاط . ولم يجد أية مقاومة إلا من أنصار الأخشيدية الذين تغلب عليهم . وقد منح جوهر أهل الفسطاط الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية ، وعمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التى انتابت البلاد . وساعده على ذلك ما بعثه المعز إلى جوهر من السفن المحملة بالحبوب ، فأنشأ جوهر مخزناً عاماً لها عهد برقابته إلى المحتسب ، ومهمته منع احتكار الحبوب وجلد كل من لم ينزل عند أوامره من أصحاب المطاحن . وبذلك كسب جوهر محبة المصريين .

وقد قطع جوهر الخطبة للعباسيين ودعا للمعز وضرب السكة باسمه وأبقى الوزير بن الفرات فى مركزه ليستعين به فى إدارة شئون الدولة ، كما أنه لم يدع عملا من الأعمال إلا جعل فيه مغربياً شريكا لمن فيه ، لكى يدرب المغاربة على إدارة الأعمال تمهيداً لحلولهم محل المصريين .

بناء القاهرة :— وقد وضع جوهر أساس حاضرة جديدة لهذه البلاد، لتكون مركزا للدعوة الشيعية ومعقلا حصيناً يقف فى وجه القرامطه ، الذين كانوا يهددون الشام ومصر . فوضع أساس القاهرة سنة ٣٥٨ ه .


ارض الطباله
باب البحر
سور صلاح الدين
قلعة المقس
المقس
(ثغر القاهرة)
باب القنطرة
باب الفرج
باب سعاده
باب الفتوح ٤٨٠هـ
باب النصر
٤٨٠هـ
شمال
قره قوش
الروم الجوانيه
قصر الوزير
جامع الاقمر
٥١٩هـ
العطوف
برجوان
قصر اللؤلؤة
القصر الغربي
بستان كافور
القصر الشرقي
البرقيه
حي الديلم
قصر الامراء
حي الجودرية
الجامع الازهر ٣٥٩هـ
باب البرقيه
حي الاتراك
حي المحمودية
حي الروم
باب المحروق
باب زويله
٤٨٤هـ
جامع ابن زريق
سور صلاح الدين
باب الوزير
المنصورية
حي السودان
بركة الفيل
قلعة صلاح الدين
اطلال القطائع
٢٥٤هـ
قلعة الكبش
جامع ابن طولون
٢٦٣هـ
مدينة القاهرة
سنة ٥٩٧هـ - سنة ١٢٠٠م

وأحاطها بسور كبير . وبنى قصراً للخليفة المعز . وفى سنة ٣٥٩ هـ وضع أساس الجامع الأزهر الذى تم بناؤه سنة ٣٦١ هـ .

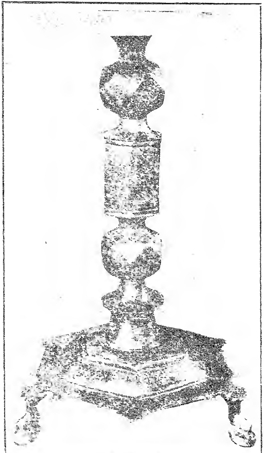


الجامع الأزهر

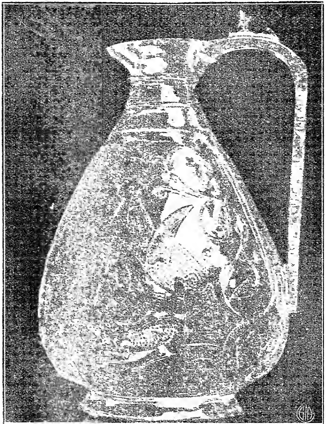
وكان الغرض الأول من بناء هذا الجامع نشر الدعوة الشيعية . وما لبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون . وكان يزين الأزهر ومناراته بأفخر الزينات ويضاء بالأنوار الساطعة في أيام المواسم العامة مما حدا بالمعز الى بناء منظرة ليشاهد منها هذه الزينات .

فتح بلاد الشام :— وبعد أن استقر سلطان الفاطميين فى مصر فكر جوهر فى فتح بلاد الشام للقضاء على سلطة الاخشيديين فى تلك البلاد ، فبعث جيشاً حارب الحسن الأخشيدى وكان مستقلا بولاية الرملة وهزمه . ثم تقدم الى طبرية ثم دمشق فاستولى عليهما سنة ٣٥٩ هـ .

وقد قطعت دمشق الجزية التى كانت تدفعها للقرامطة بعد استيلاء



شمعدان من الشبهان



ابريق من البلور الصخري مزين بحفر يصور طيوراً وحيوانات مختلفة [illegible]

الفاطميين عليها. ومن هنا وقعت الحرب بين الفاطميين والقرامطة سنة ٣٦٠هـ، فاستولى القرامطة على دمشق ثم هاجموا مصر براً وبحراً سنة ٣٦٢ هـ، واستمروا فى تقدمهم حتى بلغوا عين شمس. فما زال جوهر يحاربهم حتى ردهم على أعقابهم. وساعده على ذلك وصول المدد اليه من بلاد المغرب.

رحيل المعز الى مصر :— ولما استقر الأمر لجوهر فى مصر كتب إلى مولاه المعز بالحضور، فخرج المعز من المنصورية (التى بناها أبوه المنصور) عاصمة ملكه ببلاد المغرب، ومعه الأموال ورفات آبائه، فوصل الى الاسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ هـ. وسار منها إلى الجيزة فالقاهرة التى سميت منذ ذلك الوقت «القاهرة المعزية» نسبة اليه، والتى أصبحت مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء.

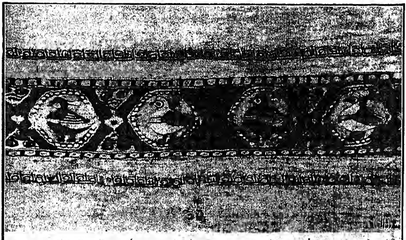
ثروة مصر :— عمل المعز على تنمية موارد الثروة في مصر وترقية دولته حتى تنافس الدولة العباسية، وتبعه في ذلك من جاء بعده من الخلفاء. فعنى بترقية الزراعة والتجارة والصناعة، ولا سيما صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها، والفرش النادرة المثال والبسط وصناعة الكسوة والسروج، والمعادن، وبخاصة صناعة الذهب والفضة، والأوانى الزجاجية والسكر، والأدوية والعقاقير.

وبنى المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم كسوة الشتاء والصيف. وحذا حذوه الخلفاء من بعده. وأنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة سفينة حربية كانت ترابط فى دمياط والاسكندرية وعكاء وصور وعسقلان.

ولما جاء المعز إلى مصر صرف قائده جوهر عن إدرة شئون الدولة وأسندها إلى يعقوب بن كلس (وكان يهودياً ثم أسلم) وعسلوج بن الحسن وعهد اليهما بسن نظام جديد للضرائب. فوضعا نظاماً عادلا حمى دافعى الضرائب من دفع الأموال كرهاً وعسفاً. وكان من أثر ذلك أن امتلأت

خزائن الدولة بالأموال . وتجلى ذلك فى مظاهر العظمة التى ظهر بها المعز ، فقد أمر بعمل كسوة فاخرة للكعبة زينت حافاتها باثنى عشر هلالا ذهبياً ، وحليت بالدر والياقوت المختلف الألوان ونقشت عليها آيات الحج بالزمرد الأخضر ، وزينت الكتابة بالجواهر الثمينة .

ويقال إن المعز اشترى من بلاد فارس ستارة من الديباج يقرب ثمنها من اثنى عشر ألف جنيه ، وإن إحدى بناته تركت ثروة تقدر بمليون ونصف مليون من الجنيهات ، كما كان من مخلفاته خريطة من الحرير الأزرق رسم عليها بالذهب كافة أقطار العالم . وبلغت نفقات هذا المصور ٢٢ ألف دينار .



قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات على أرضية حمراء

نشر المذهب الفاطمى :— وقد اهتم المعز ومن جاء بعده من الخلفاء بنشر المذهب الفاطمى الشيعى فى مصر وغيرها من البلاد . وكان المعز سياسيا حكيما ، فعمل على نشر هذا المذهب تدريجياً حتى لا يثير سخط السنيين وكانوا السواد الأعظم من الأهلين ، وأبقى القاضى السنى فى منصبه مراعاة لشعور المصريين ، ثم لم يلبث أن أشرك معه قاضياً شيعياً . وتدرج فى ذلك

إلى أن حتم على قاضي القضاة أن يصدر أحكامه طبقاً لعقائد المذهب الشيعي.

وأسند المعز جميع المناصب الكبيرة الى أنصاره من المغاربة . ولم تأت سنة ٣٧٩ هـ حتى أصبحت أكثر أمور الدولة الدينية والمدنية والحربية فى أيدى الشيعيين، ولم يبق بيد السنيين الا الأعمال الصغيرة مما أدى الى تحول الكثيرين من المصريين الى المذهب الشيعي رغبة فى تقلد مناصب الدولة أو طمعاً فى الترقى.

العزيز

٣٦٥ - ٣٨٦ هـ و ٩٧٥ - ٩٩٦ م

توفى المعز سنة ٣٦٥ هـ بعد أن وطد دعائم دولته على أساس متين، فولى الخلافة بعده ابنه العزيز . وقد ورث عنه مواهبه السياسية ، وقام بكثير من الاصلاحات لزيادة ثروة البلاد . فحفر كثيراً من الترع ، وأقام الجسور وأصلح المرافيء ، وشجع الصناعة والتجارة ، فعم الرخاء وامتلأت خزائن العزيز بالمال . وبذلك استطاع أن يبنى القصور الفخمة ، ويؤسس الجامع العظيم المعروف بجامع الحاكم سنة ٣٨٠ هـ (تم فى عهد ابنه الحاكم) .

وكان العزيز يميل الى البذخ والترف . فكانت سروجه معترة بالعنبر وأسلحته مطعمة بالذهب . وابتدع نوعا من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، حتى وصلت قيمة العمامة منها إلى خمسمائة دينار . كذلك شغف العزيز بجوارح الطير الغريبة ، كما كان مغرماً بالصيد وبخاصة صيد السباع .

تحول الأزهر الى جامعة :— وكان العزيز أديباً شغوفاً بالعلم . وهو الذى حول الأزهر من مسجد تقام فيه الصلاة إلى دار للعلم ووقف عليه الأوقاف سنة ٣٧٨ هـ . وكان يقدم لطلابه المسكن والمأكل . وعين له خمسة وثلاثين عالماً لقراءة القرآن وتدريس العلوم ، وبنى لهم أماكن للسكنى وأجرى عليهم الأرزاق . ويرجع الفضل فى ذلك إلى وزيره يعقوب

ابن كلس الذى ألف عدة كتب فى المذهب الشيعى ، وكانت داره مجمع العلماء .

نشر المذهب الشيعي :— وقد عمل العزيز على نشر المذهب الشيعى ، فأمر بلعن أبي بكر وعمر وعثمان على كافة منابر مصر ، كما أمر بنقش فضائل على وأولاده على السكة وعلى جدران المساجد ، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وَفق قوانين المذهب الفاطمى .

وعمل العزيز على كسب قلوب الناس بالعطايا والهبات الوفيرة وبالاكثار من الاحتفالات والافراط فى البذخ . فكان يقيم الولائم فى الأعياد والمواسم، ويدعو الناس اليها من كل الطبقات، ويسمح للعامة أن تأخذ من الطعام ما تحب . وتبعه فى ذلك من جاء بعده من الخلفاء . فكانوا يحتفلون بمولد النبى والحسين وفاطمة ومولد الخليفة ، وكذا بالأعياد وليالى رمضان، وأول ومنتصف شهرى رجب وشعبان، وجبر الخليج ، حيث كانت تضاء المساجد بالأنوار الساطعة و تسير المواكب التى يشترك فيها الآلوف من الأهلين ، وتقرع الطبول ويقرأ القرآن بنغمات شجية . وكان الخليفة يجلس فى إحدى المناظر (كمنظرة باب الفتوح) وحوله الشموع الساطعة ، حيث يشتد الزحام للتيمن بطلعته .

وكان لسياسة العزيز أثر كبير فى تحويل كثير من السنيين الى المذهب الشيعى.وهذه السياسة وإن كانت قد لاقت شيئاً من النجاح، إلا أن إسراف العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين قد أدى الى إضعاف دولتهم .

سياسته مع أهل الذمة :— وقد اشتهر العزيز بعطفه على النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب . فقد تزوج من نصرانية فعين أحد أخويها بطريقا لكنيسة الأسكندرية والآخر لكنيسة بيت المقدس . ثم توالى عطف العزيز على الكنيسة القبطية ، فسمح للبطريرق القبطى إفراهام باعادة

كنيسة أبي سيفين المخربة بظاهر الفسطاط ، ورفع عيسى بن نسطورس الى كرسى الوزارة . وشمل هذا العطف اليهود أيضا ، فعين منشًا اليهودى والياً على الشام . وقد بلغ من عطفه على المسيحيين أن احتفل بعيد النيروز وخميس العهد وعيد الميلاد مشاركة لهم فى شعورهم .

حروبه فى الشام :— وفى عهد العزيز اشتد خطر القرامطة وإفتكين التركى ببلاد الشام ، فوجه اليهم جوهراً القائد فأحلوا به الهزيمة حتى اضطر الى عقد الصلح مع إفتكين الذى استبد بدمشق . ومن ثم لم يجد العزيز بداً من الخروج بنفسه لمحاربة إفتكين. وقد انتصر عليه وعلى القرامطة وجاء به أسيراً الى القاهرة ، ثم عفا عنه وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية ، ووصله بهبات كثيرة وخصص له داراً لاقامته ، وأذن له بدخول البلاط ضيفاً مكرماً.

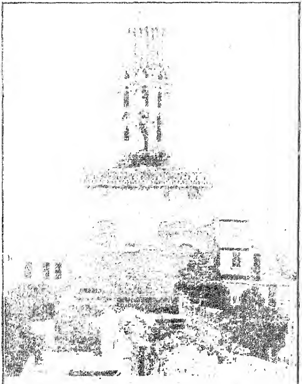
الحـــاكم

٣٨٦ – ٤١١ ه و ٩٩٦ – ١٠٢٠ م

خلف الحاكم أباه العزيز وكان فى الخامسة عشرة من عمره ، فقام بالوصاية عليه مربيه بَرْجوان ، فاستبد بالأمر دونه ولقب بأمين الدولة . ولما شب الحاكم أراد أن ينفرد بالحكم ، فقتل أستاذه برجوان وتخلص من نفوذه .

وقد أتم الحاكم بناء الجامع الذى أسسه العزيز (ويعرف الآن بجامع الحاكم)، كما زاد فى بناء الأزهر ووقف عليه الأوقاف الكثيرة ، ونقل اليه كثيراً من الكتب ، وشيد «دار الحكمة» لدراسة العلوم ونشر مذهب الشيعة وألحق بها مكتبة كبيرة ، وبنى فى سفح المقطم رَصَداً عرف بالرصد الحاكمى .

اضطراب سياسته :— وكانت حياة الحاكم متناقضة مضطربة . ففى سنة ٣٩٢ ه بدأ يتجول فى مدينة القاهرة ، فكانت الأنوار تسطع فى جنباتها ، كما كانت محال التجارة تفتح فى الليل بدل النهار . ثم حرم



جامع الحاكم — منارة الجامع

الخروج من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر ، ومنع النساء من الخروج سافرات ، وأن لا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس فى حالة منافية للأدب والحشمة كما منعهن من الظهور فوق المنازل ، ومنع صانعى الأحذية من صنع الأحذية الخاصة بهن .

وفى سنة ٣٩٥ ﻫ أمر الحاكم بقتل جميع الكلاب عدا كلاب الصيد ، ونهى عن ذبح السليم من البقر إلا فى عيد الأضحى . وقد بذل الحاكم مجهودا كبيراً في نشر الدعوة الشيعية ، واتبع وسائل جائرة لحمل الناس على اعتناق المذهب الفاطمى . فأصدر مرسوماً يحرم فيه بيع الملوخية لما أثر عن معاوية أنه كان يحبها ، ونهى عن أكل الجرجير لأن عائشة كانت تأكله ، كما نهى عن أكل القرع لأن أبا بكر كان يحبه . وقد أوغر ذلك صدور السنيين وكانوا السواد الأعظم من المصريين . وسرعان ما عدل الحاكم عن هذه السياسة ، وبالغ فى التودد إلى السنيين إثر قيام أحد أفراد البيت الأموى ببلاد المغرب وتهديده حدود مصر . فأمر بمحو ما نقش من لعن الصحابة على جدران المساجد وغيرها من المبانى العامة ، وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب السنى .

وفى سنة ٤٠٢ ﻫ اضطهد الحاكم المسيحيين ، فأمر بهدم كثير من كنائسهم ، من بينها كنيسة القيامة فى بيت المقدس . ثم عدل عن هذه السياسة سنة ٤٠٨ ﻫ وأمر باعادة بعض الكنائس .

إدعاؤه الألوهية : — ادعى الحاكم الألوهية فزعم أن الأله قد تجسم فى شخصه ، وذلك بتأثير بعض انصاره ، منهم حمزة الدّرزى الذى نسب اليه بعض الصفات التى لا يتصف بها الا الله تعالى ، حتى اعتقد البعض أن بيده الحياة والموت . فكان إذا ظهر للناس في الطرقات خروا له سجدا وقبلوا الأرض ، ومن أبى كان نصيبه الموت .

وقد اتخذ الحاكم جواسيس من النساء يدخلن الدور ليقفن على أسرار أهلها ويقدمن له تقارير عن ذلك ، فيستدعى الحاكم هؤلاء الناس للمثول

بحضرته فيخبرهم بتفصيل ماحدث فى بيوتهم. كما كان له عيون فى الطرقات حتى اعتقد بعض الناس أنه يعلم الغيب.

وكان الحاكم مغرماً برصد النجوم. فكان يخرج الى الرصد الذى بناه بسفح المقطم. وقد قتل سنة ٤١١ ﻫ حين كان يتجول على حماره ليلا ولم يعثر له على أثر. وخلفه ابنه الظاهر (٤١١-٤٢٧ ﻫ و ١٠٢٠-١٠٣٥ م) فألغى القوانين التى أصدرها أبوه. فتمتع المصريون بالسلام والطمأنينة.

وفى عهده انخفض النيل واشتد الضيق بالبلاد. فكان من حسن سياسته أن عقد حلفا مع امبراطور الدولة البيزنطية على أن يمده هذا بالحبوب مقابل تجديد كنيسة القيامة التى هدمها الحاكم.

المستنصر

٤٢٧ - ٤٨٧ ﻫ و ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م

خلف أباه الظاهر وهو فى السابعة من عمره. وكان المستنصر أطول الخلفاء عهداً، فقد ظل فى الخلافة ستين سنة تقلبت البلاد خلالها فى أدوار شتى. وظهرت القاهرة في أوائل خلافته (الى سنة ٤٤٠ ﻫ) بمظهر القوة وفاقت غيرها من مدن العالم الأسلامى فى العظمة والعمران. فكانت دورها محكمة البناء مبنية بالحجر، يفصل بعضها عن بعض حدائق غناء. وكانت أسواقها وحوانيتها ملأى بالطرف النفيسة، والأهالى يرتعون فى رغد من العيش. وكان الأمن مستتبا لايخشى أحد سلبا أو تعديا، حتى كان التجار لا يحفلون باغلاق حوانيتهم فى الليل.

غير أن ذلك لم يدم طويلا. فقد انخفض النيل سنة ٤٤٠ ﻫ وانتشرت المجاعة فى البلاد وحل بها الوباء، فاختل الأمن وكثرت الجرائم وعمت الفوضى. وفى ذلك العهد خرجت بلاد المغرب على الفاطميين، وحذت حذوها بلاد اليمن. وقد قبض على زمام الأمور فى مصر الوزير أبو محمد الحسن اليازورى مدة تسع سنوات (٤٤١-٤٥٠ ﻫ)، وبذل قصارى جهده

فى معالجة خطر المجاعة ، فاستولى على مخازن الغلال وقام بتوزيعها على الأهلين.

الفوضى وثورات الجند : — وبعد وفاة اليازورى لم يكن هناك من يعادله فى كفاءته ، فكثرت الدسائس فى الجيش والقصر حتى تعاقب على الوزارة أربعون وزيرا فى تسع سنوات. وزاد هذه الحالة سوءا ذلك النزاع الذى قام بين عناصر الجيش من الأتراك والسودانيين وكان الأخيرون عماد الخليفة. وقد طرد الأتراك السودانيين إلى الصعيد — وكانوا خمسة عشر ألفا — فانتشر هؤلاء فى البلاد فأوقعوا الرعب فى قلوب الأهلين وحالوا دون زراعة الأرض، كما اكتسحوا بلاد الدلتا حتى وصلوا إلى الاسكندرية واستقروا بها.

وانتهز الأتراك تلك الفرصة ونهبوا القاهرة وارتكبوا أعمال العنف والشدة لايذاء الخليفة . وكانت الخزانة خالية من المال لارضاء مطالب هؤلاء الأتراك ، فلجأوا إلى القوة للحصول على أرزاقهم . فثاروا وأبادوا المجموعات الفنية ، وأتلفوا قصور الخلفاء وأخذوا ما فيها من الأسلحة والأكواب والصحاف والأوانى المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة ، كما أغاروا على المكاتب ونهبوا ما فيها من الكتب و باعوا كل ذلك بثمن بخس.

المجاعة :— وقد شل الحركة الزراعية والتجارية ذلك الرعب الذى ألقته الجنود السودانية المشتتة فى جميع أنحاء البلاد . فندرت الأقوات فى القاهرة والفسطاط حتى بلغ ثمن الرغيف خمسة عشر دينارا ، كما كانت تباع بعض المنازل بنصف كيلة من الدقيق ، وعرضت الجواهر الثمينة فلم يوجد من يشتريها فى مقابل شىء من الطعام . وكانت تباع الخيل والحمير والكلاب والقطط بأثمان باهظة. وسرعان ما فنيت هذه الحيوانات وصار الناس يخطف بعضهم بعضا فى الطرقات ، وغدا لحم الانسان يباع عند الجزارين .

ثم جاء الوباء فحصد الناس حصداً ذريعا ، فكان يكتسح الدور دارا بعد دار . ولم يكن هناك فرق بين عظيم وحقير ، بل نالت المصائب من الجميع على السواء . وظلت مصر فى ذلك البؤس سبع سنين إلى أن جاءت

سنة ٤٦٥ ﻫ وكانت غلتها وفيرة ، فانتهت أيام القحط . واستنجد الخليفة بيدر الجمالى والى عكاء للقضاء على هذه الفوضى ، وقلده الوزارة ولقبه « أمير الجيوش » . وهو أول الوزراء من أصحاب السيف والقلم (أى الذين جمعوا كل السلطات في يدهم) . ومن ذلك الوقت ضعف نفوذ الخلفاء فأصبحوا تحت نفوذ الوزراء .

قضى بدر الجمالى على هذه الفوضى وأعاد الأمن والسكينة فى البلاد بهمته وحسن إدارته . ثم تفرغ لاصلاح ما أفسده الأتراك ، فجدد بناء ما تخرب من مدينة القاهرة ، وحصن المدينة ضد هجمات المغيرين ، فأحاطها بالسور الذى يعرف بسور بدر الجمالى ، وبنى « باب الفتوح » و « باب النصر » وأصلح باب زويلة ، كما بنى جامعه المشهور على قلعة الجبل ويعرف بجامع الجيوشى. ومات بدر الجمالى والمستنصر سنة ٤٨٧ ﻫ .

ضعف الدولة الفاطمية وسقوطها

٤٨٧ – ٥٦٧ ﻫ و ١٠٩٤ – ١١٧١ م

بعد أن بلغت الدولة الفاطمية أوج عظمتها فى أوائل عهد المستنصر ، وامتد نفوذها من المحيط الأطلسى غرباً الى الفرات شرقاً ، ومن آسيا الصغرى شمالا الى اليمن جنوباً ، بدأت عوامل الضعف تدب في جسم هذه الدولة ، وذلك بسبب انقسام الجيش الذى كان خليطاً من المغاربة والأتراك والسودانيين ، ولضعف الخلفاء ، واستبداد الوزراء بالسلطة ، حتى أصبح هؤلاء الخلفاء أشبه بألاعيب في أيدى وزرائهم .

لذلك لا نعجب اذا أخذت الدولة الفاطمية فى الضعف والانحلال . ففى سنة ٤٤٣ ﻫ رفض أهل شمال إفريقية العقائد الشيعية ، وقامت دولة المرابطين فى مراكش سنة ٤٤٨ ﻫ . وخرجت بلاد اليمن على الفاطميين سنة ٤٧٣ ﻫ ، كما خرجت صقلية من حكمهم سنة ٤٨٤ ﻫ . ثم جاء بعد ذلك العهد المظلم الذى أعقب وفاة الوزير اليازورى ، فاضطرب حبل الأمن وقامت الثورات

وكثرت الدسائس والفتن . وخلف بدر الجمالى فى الوزارة ابنه « الأفضل » (٤٨٧ هـ) ومال الى السنيين ، حتى إنه ألغى الاحتفال بمولد النبى ومولد فاطمة وعلى ومولد الخليفة، فدبر له الخليفة مؤامرة انتهت بقتله سنة ٥١٥ هـ .

وتقلد الوزارة بعد الأفضل ابنه « أبو على الأكمل » ، فشل يد الخليفة الحافظ عن التصرف فى أمور الدولة ، ومنع الناس من زيارته إلا باذن منه ، كما أمر الخطباء بذكر اسمه فى الخطبة ، وعين سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة اثنين من الشيعة واثنين من السنة . فأثارت هذه السياسة غضب الشيعيين فدبروا مؤامرة لاغتياله سنة ٥٢٦ هـ

أسرعت الدولة الفاطمية بعد ذلك فى الانحلال بسبب منافسة الوزراء على السلطة . فكثرت الدسائس والثورات، وذهب الخليفة الظافر وأخواه ضحية هذه المنافسات . فاستغاثت نساء القصر « بطلائع بن رزّيك » (أحد ولاة الصعيد) للقضاء على هذه الفوضى ، وبعثن شعورهن تضرعا إليه . فجاء ابن رزيك واستولى على الوزارة وتلقب بالملك الصالح ، وأعاد الأمن الى نصابه.

وسرعان ماقتل طلائع بن رزيك ، فخلفه ابنه « العادل » . فعاد النزاع على الوزارة سيرته الاولى . فقد نازعه « شاور » والى الصعيد وخلعه سنة ٥٥٨ هـ ثم قتله ، فكرهه الشعب . ونافسه «ضرغام»أحد قواد الجيش من المغاربة ، فهرب شاور الى الشام واستنجد بنور الدين محمود بن زنكى لاعادته إلى الوزارة .

وفى ذلك الوقت كانت الحروب الصليبية مستعرة فى الشام بين المسلمين ومسيحيي غرب أوربا ، فكشف استنجاد شاور بنور الدين ما كانت عليه مصر من الضعف . لذلك اتجهت أنظار كل من نورالدين وعمورى ملك بيت المقدس إلى الاستيلاء عليها . وانتهى الأمر بسقوطها فى يد نور الدين ، وتقلد الوزارة شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية كما سيأتى .

الباب الثالث

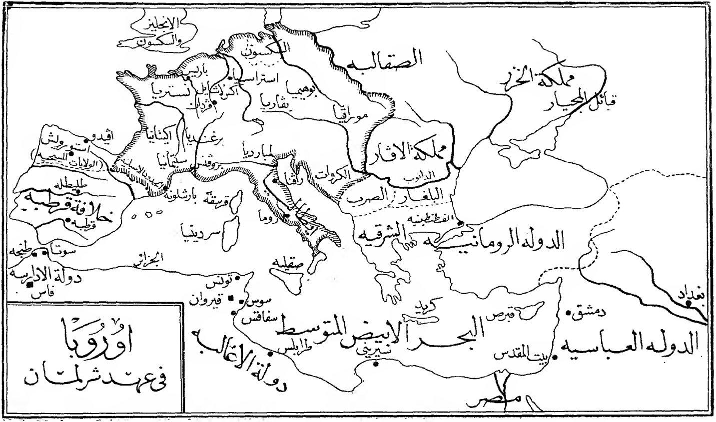
شرلمان ــــ نظام الاقطاع

الفصل الأول

شرلمان واحياء الدولة الرومانية الغربية

لما تسرب الضعف الى جسم الدولة الرومانية أغارت قبائل الفرنجة (من القبائل الجرمانية المتبربرة التى كانت تقيم فى البلاد الواقعة شمال الرين) Franks على بلاد غاله Gaul (فرنسا الحالية) للسلب والنهب. وقد اشتدت غاراتهم بعد سقوط رومة فى يد أودوكر سنة ٤٧٦ م، وأسسوا بزعامة كلوفس Clovis دولة لهم فى أواسط بلاد غاله (٤٨١ م). وقد وسع كلوفس رقعة مملكته. على أن هذه الدولة لم تلبث أن أخذت فى الضعف بعد موته سنة ٥١١م بسبب قيام الحروب الأهلية. فضعف سلطان الملوك، وأصبح النفوذ فى يد نظار السراى (أو حجاب القصر) الذين كانوا يهيمنون على كافة شئون الدولة، حتى أصبح الملوك أشبه بألاعيب فى أيديهم، ليس لهم من مظاهر الملك سوى حضور الحفلات الرسمية. وكان بيبين Pippin أول من استبد بالأمر من هؤلاء الحجاب، فجعل منصبه وراثياً. ولما مات خلفه ابنه شارل مارتل Charle Martel ثم بيبين الثاني (٧٤١ م) الذى أعلن نفسه ملكا على البلاد سنة ٧٥٢ م بموافقة البابا.

وقد قسم بيبين دولة الفرنجة قبل وفاته (٧٦٨ م) بين ولديه كارلمان وشارل. ولما مات كارلمان سنة ٧٧٠م انفرد شارل بالحكم، و يعرف باسم شارل الأكبر أو شرلمان Charlemagne.



اوروبا
في عهد شرلمان
الانجليز والسكسون
السكسون
الصقالبة
مملكة الخزر
قبائل المجيار
باريس
استراسبرج
بوهيميا
بفاريا
مورافيا
نستريا
اكيتانيا
برغنديا
سبتمانيا
لمبارديا
مملكة الافار
الداوب
الكروات
الصرب
البلغار
القسطنطينيه
الدوله الرومانيه الشرقيه
اقيدو
استوريش
الولايات البحريه
طليطله
خلافة قرطبه
قرطبه
برشلونه
قرسقة
سردينيا
روما
صقليه
سوتا
طنجه
دولة الادارسه
فاس
الجزائر
تونس
سوس
قيروان
سفاقس
طرابلس
دولة الاغالبه
البحر الابيض المتوسط
كريد
قبرص
دمشق
بغداد
بيت المقدس
الدوله العباسيه
مصر

أحياء الدوله الرومانية الغربية

كان من أهم الأغراض التى ترمى اليها سياسة شرلمان إعادة الامبراطورية الرومانية القديمة وجمع الأمم الجرمانية تحت لواء واحد ودين واحد. ومن ثم قام بحروب كثيرة :—

حروبه مع السكسون :— اشتبك شرلمان فى سلسلة حروب مع السكسون Saxons (قبائل وثنية جرمانية كانت تقطن الحوض الأسفل من نهرى الويزر والألب) بين ٧٧٢ و ٨٠٤ م . وقد لقى صعوبة فى إخضاعهم وتحويلهم إلى المسيحية ؛ فكان كلما أخضعهم ثاروا وارتدوا الى الوثنية . وقد ساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم حيث الغابات والمستنقعات الكثيرة .

ولم يتم إخضاعهم إلا بعد حروب دامت ثلاثين سنة أنهكت قواهم، فأرغموا على اعتناق المسيحية ، وأقيمت الكنائس فى بلادهم . وبذلك تحققت أغراض شرلمان السياسية والدينية معاً فى تلك البلاد .

حروبه مع الصقالبة Slavs :— وفى سنة ٧٩١ م أخضعت جيوش شرلمان القبائل الصقلبية التى كانت تسكن البلاد الواقعة بين الألب والرين ، كما عزل دوق بافاريا وأرغم بوهيميا على دفع الجزية ، وأزال مملكة الأفار (فى أواسط حوض الدانوب) وأرغم أهلها على اعتناق المسيحية . وبذلك تجاوزت حدود مملكة شرلمان من ناحيتى الشرق والشمال حدود الدولة الرومانية القديمة .

حروبه فى أسبانيا :— و فى سنة ٧٩٨ م اختلف أمراء العرب فى أسبانيا، واستعان بعضهم بشرلمان ، فانتهز هذه الفرصة واخترق جبال البرانس واستولى على برشلونة .

حروبه مع اللمبارد : — وقد استولت قبائل اللمبارد على الجزء الشمالى من إيطاليا وكونت به دولة فى شمالها . وعلى الرغم من اعتناقهم المسيحية فقد استحكم العداء بينهم وبين البابا ، وكان يحكم بعض الولايات كحاكم دنيوى ويعتبر نفسه صاحب النفوذ فى إيطاليا . لذلك تطلع الى ملك قوى يساعده ضد اللمبارد ، فوافق على تتويج بيبين (أب شرلمان) ملكا على الفرنجة ، وأفتى بأن صاحب القوة والنفوذ الفعلى أحق بالتاج . لذلك حارب بيبين اللمبارد وأعاد للبابا الولايات التى كان يحكمها .

وقد انتهز اللمبارد فرصة اشتغال شرلمان بحروبه مع السكسون واستردوا أملاكهم فى شمال إيطاليا . فاستغاث البابا بشرلمان ، فلبى نداءه وأرسل جيشاً انتصر عليهم واستولى على عاصمتهم بافيا Bavia سنة ٧٧٣ م ، وأعاد للبابا سلطته . وأصبح شرلمان يلقب بلقب « ملك الفرنجة واللمبارد وشريف الرومان » .

تتويج شرلمان امبراطوراً سنة ٨٠٠ م

كان من أثر أخضاع شرلمان للمبارد أن زادت علاقاته بايطاليا والبابوية معاً . وفى سنة ٧٩٧ م ثار أشراف روما على البابا ليو الثالث Leo III وسجنوه وأعلنوا الجمهورية . ولكنه تمكن من الفرار وسار إلى شرلمان واستنجد به لارجاعه إلى سلطته . فذهب شرلمان الى رومة وأعاده الى مركزه . وفى عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م ، بينما كان شرلمان راكعاً فى كنيسة القديس بطرس فى روما ، وضع البابا تاج أباطرة الرومان على رأسه وأقسم له يمين الولاء ، ونادى به الحاضرون امبراطوراً عليهم . وقد صادف هذا العمل هوى من نفس شرلمان إذ كان يطمع فى هذا اللقب من زمن بعيد .

وبذلك أحيا شرلمان الامبراطورية الرومانية الغربية . غير أن امبراطوريته لم تكن رومانية حقاً . فقد كان أباطرتها لا يمتون للرومان بصلة نسب أو

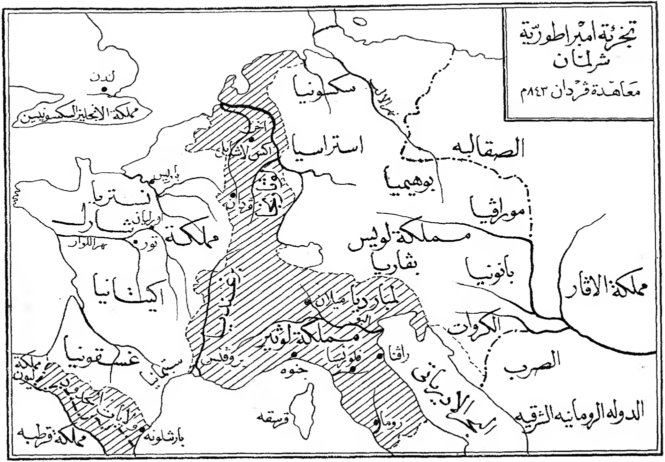
جنس ، كما كان معظم سكان الامبراطورية من الجرمان أعداء الرومان الذين كانوا يحتقرونهم ويسمونهم « البرابرة » .

اصلاحات شرلمان : — عمل شرلمان على المحافظة على امبراطوريته المتسعة الارجاء . فانشأ أسطولا كبيراً لحماية بلاده من غارات النورمنديين ، كما أنشأ لذلك الأبراج فى الموانئ وعند مصبات الأنهار ، وأقام الحصون لحماية الحدود . فبلغت الامبراطورية من القوة والعظمة مبلغا كبيرا حتى كان يهابها الملوك .

وقد ابتكر شرلمان نظما ادارية جديدة ، فقسم امبراطوريته إلى ولايات واقطاعات نصب على كل منها أميراً ، كونت Count ، كان يعين مدى الحياة ـولـكنه كان قابلا للعزلـعهد اليه بادارة شئون ولايته . وخوفا من استبداد أمراء الأقاليم بالسلطة شدد شرلمان الرقابة عليهم بأن عين رسلا يسمون Missi Dominici ومهمتهم التجول فى أنحاء الأقاليم ، والنظر فى شكاوى الأهالى وتفقد حالة الجيش والكنائس والمدارس والأعمال القضائية ، والأشراف على جمع الضرائب . وكان شرلمان نفسه يطوف فى أرجاء الامبراطورية لتفقد أحوال رعاياه . و بذلك انتشر الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد .

وعمل شرلمان على نشر المسيحية ، فبنى الكنائس فى كثير من المدن وبخاصة فى حاضرة ملكه آخن Aachen (اكس لاشابل) ، واعتبر نفسه سيداً لها ، كما كان يرأس المجالس الدينية بنفسه .

وكان الجهل منتشراً فى الشعوب التى أخضعها شرلمان ، كما لم تكن لها قوانين معروفة . فأمر بتدوين عادات هذه الشعوب وتهذيب القوانين التى ظهرت فى عهده . وشرع فى عمل قواعد للغات الفرنجة ، وهذب الأناجيل الأربعة ، وعنى بترقية التعليم ، فقرب اليه العلماء الذين كانوا يجتمعون فى قصره للمناظرات العلمية ، حتى غدا القصر أشبه بمجمع علمى . وقد أطلق على المكان الذى كان يجتمع فيه هؤلاء العلماء « مدرسة القصر » .



تجزئة امبراطورية شرلمان
معاهدة ڤردان ٨٤٣م
لندن
مملكة الإنجليز السكسونيين
سكسونيا
استراسيا
الصقالبه
بوهيميا
موراڤيا
مملكة لويس
بڤاريا
بانونيا
مملكة الاڤار
الكروات
الصرب
الدولة الرومانية الشرقيه
البحر الادرياتي
مملكة لوثير
لمباريا
ميلان
راڤنا
رومه
جنوه
قرسقه
ڤردان
اكس لاشابل
باريس
نستريا
مملكة شارل
اورليان
تور
نهر اللوار
اكيتانيا
غسقونيا
سبتمانيا
بارشلونه
مملكة قرطبه
مملكة ليون

ومن أشهر العلماء ورجال الأدب فى عصره الكوين Alcuin الراهب الانجليزى ، وكان ساعد شرلمان الأيمن فى إحياء العلوم والآداب.

تجزئة الامبراطورية وتقسيم فردان سنة ٨٤٣ م

سرعان ما تفككت أمبراطورية شرلمان بعد وفاته ، وذلك لاتساع رقعتها واختلاف سكانها فى الجنس واللغة والعادات . كما كان للفواصل الطبيعية بين الولايات على اختلافها أثر كبير فى هذا التفكك ، لا سيما أن المواصلات لم تكن من التقدم بحيث يسهل توطيد الأمن فى أرجاء الأمبراطورية ، وانما كان يرجع اتحاد هذه الأمبراطورية فى عهد شرلمان إلى ما امتاز به من الحزم وحسن السياسة . فلما خلفه ابنه لويس التقى Lewis the Pious (٨١٤ - ٨٤٠ م) كثرت الثورات وقويت سلطة الكنيسة حتى انتخب البابا بغير علمه . ثم جاء بعده أبناؤه الثلاثة : لوثير Lothair ولويس Lewis وشارل Charle ، فاحتدم النزاع بينهم . وأدى ذلك الى ضعف الأمبراطورية . ومما زاد فى ضعفها غارات النورمنديين من سكان اسكنديناوة والدانمرقة من الشمال ، والصقالبة والمجر من الشرق ، والعرب من الجنوب .

وفى سنة ٨٤٣ م اتفق أبناء لويس التقى على تقسيم الامبراطورية فى معاهدة فردان Verdun ، فاستقل لوثير (وهو أكبرهم) بالقسم الأوسط من الامبراطورية ـ ويشمل حوض الرين والبلاد المسماة الآن سويسرا وإيطاليا ـ ونال لقب إمبراطور واتخذ آخن عاصمة لملكه . واستقل لويس بالقسم الشرقى ، وشارل بالقسم الغربى .

الفصل الثانى

نظام الاقطاع Feudalism

نشأته ونموه :— ضعفت أمبراطورية شرلمان بعد وفاته بسبب تنازع أحفاده على الملك ، ذلك التنازع الذى أدى الى تجزئة الدولة ووقوع الفوضى والاضطراب فى البلاد . ومما زاد الحالة سوءاً اشتداد غارات النورمنديين على سواحل أوربا فى القرن التاسع الميلادى ، فكانت سفنهم تدخل فى مصاب الأنهار العظيمة وتنهب المدن والمزارع . أضف الى ذلك غارات قبائل المجر والصقالبة على البلاد الواقعة فى شرق وأواسط أوربا ، وكذا الغارات البحرية التى شنها العرب من بلاد الأندلس وبلاد المغرب على جنوب أوربا .

وكان من إثر ضعف الحكومات المركزية وعجزها عن الدفاع عن البلاد وحفظ الأمن فى أرجائها أن عمت الفوضى وأصبحت الغلبة للأقوياء ، فاغتصبوا حقوق الضعفاء ووضعوا أيديهم على متاجرهم . ولما لم يجد الضعفاء حكومة قوية تقوم على حمايتهم ، طلبوا حماية أمراء الأقاليم من البارونات والكونتات أصحاب النفوذ والقوة ، ونزلوا لهم عن أرضهم مقابل حمايتهم لهم ، واعتبروا أنفسهم أتباعاً لهم ، ثم تسلموا هذه الأرض من أسيادهم Feudal Lords ووضعوا يدهم عليها باعتبارهم أتباعا Tenants أو Vassals .

ولم تسلم الكنيسة من بطش المغتصبين والعابثين بالأمن ، فتعرضت ممتلكاتها للنهب وأرواح رجالها للخطر ، مما اضطر الكنائس والأديرة الى طلب حماية الأقوياء من الأشراف مقابل قيامها بخدمات خاصة لهم .

ولم يكن لأمراء الأقاليم فى عهد شرلمان مرتبات ثابتة ، وإنما كان

بمنحهم ثلث إيرادات الأرض التى تحت إشرافهم ، كما كان يهبهم جزءاً من الأرض يستغلونه لأنفسهم مكافأة لهم على خدماتهم . وتعرف هذه الأرض بالدومين Domain . وكانوا فوق ذلك يعفون من دفع الضرائب عن هذه الأرض . فلما ضعفت الدولة فى عهد أحفاده جعل الأمراء حقهم على هذه الأرض وراثياً فى أبنائهم مع اعترافهم بما للملك من حق ملكيتها .

من ذلك يتضح أن أرض الاقطاعات Fiefs قد آلت الى الأشراف . ما عن طريق الهبة أو الاغتصاب أو بنزول أصحابها عنها طوعاً .

ولم يأت القرن الثانى عشر حتى لم يبق هناك فى غرب وأواسط أوربا أرض يمتلكها صاحبها امتلاكا حرا ، وجرت القاعدة بأنه لا بد لكل قطيعة من الأرض من سيد ، وأن واضع اليد عليها يكون تابعاً لهذا السيد . وبذلك انقسم الناس الى سادة Feudal Lords ومسودين (أتباع Vassals) . وأصبح كل سيد إقطاعى تابعاً للملك وسيداً لأتباعه ، وكل تابع سيداً لمن هو دونه ومسوداً لمن هو فوقه . فتغير بذلك نظام المجتمع وتحول الى ما يعرف « بنظام الأقطاع » .

ولم تكن ملكية الأرض كما نعرفها الآن من تمتع المالك بحق التصرف فى أرضه بكل أنواع التصرفات من بيع ورهن وهبة واستبدال ووقف وغير ذلك . بل سادت النظرية القائلة بأن الأرض ملك لله ، وأن الملوك ـ وهم خلفاء الله فى الأرض ـ يتصرفون فيها كما يشاءون . فيمنحون منها اقطاعات لرجالهم المخلصين من الأمراء والأشراف يستغلونها لأنفسهم ، فيكون لهم حق الانتفاع بها مدى الحياة على أن لا يكون لهم حق ملكيتها ، ويكونون بذلك أتباعا للملك Vassals مقابل قيامهم بخدمات خاصة له .

وكان أمراء الاقطاع يمنحون مما فى أيديهم من الأرض إقطاعات لبعض أتباعهم ينتفعون بها مقابل خدمات خاصة يؤدونها لهم ، ثم يوزع هؤلاء الأتباع مما تحت أيديهم من الأرض على أتباع آخرين وهكذا .

وبذلك تحولت الدولة إلي مجتمع إقطاعى يسوده ذلك النظام التسلسلى من الملك — وهو السيد الأعظم Great Lord إلى الأمير — وهو السيد الاقطاعى Feudal Lord أو Seigneur - فأتباعه Tenants or Vassals ، ثم أتباع الأتباع . وهكذا أصبحت النظم الادارية والاجتماعية والاقتصادية كلها مرتبطة بنظام ملكية الأرض.

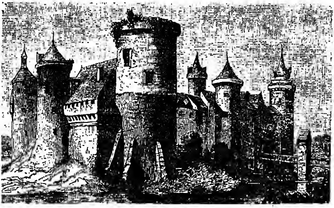
علاقة أمراء الاقطاع بالملك :- كان أمراء الأقاليم يعينون أيام شرلمان مدى الحياة ، ولكنهم كانوا قابلين للعزل إذا ما غضب عليهم الامبراطور . وكان هؤلاء يأتمرون بأوامره ويقسمون له يمين الاخلاص والولاء . فلما ضعفت امبراطورية شرلمان عمل الأمراء على ازدياد نفوذهم فجعلوا مناصبهم وراثية ، وقبض كل أمير فى إقطاعيته على كل السلطات . فأصبح هو الحاكم والقاضى والقائد ، يعلن الحرب ويعقد الصلح ، ويضرب النقود باسمه ، ويفرض الضرائب والرسوم على الاسواق ، والمكوس على التجارة عند مرورها بحدود إقطاعيته أو فى الطرق البحرية والانهار وأبواب المدن . ثم بنوا الحصون وكونوا جيوشاً من الفرسان . وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيون لا يعرف الاهالى سواهم ؛ فزاد نفوذهم واستبدوا بالحقوق الملكية التى لم تكن لهم إلا بصفتهم موظفين من قبل الملك ، وأصبحوا من القوة بحيث لم يستطع عزلهم .

ولم يعد يربط الامراء بالملك سوى يمين الولاء والاخلاص والتعهد بمساعدته فى الحروب باعتباره السيد الاعظم .

العلاقة بين السيد الاقطاعى والتابع

(ا) واجبات السيد :- كان على السيد واجب حماية أتباعه . ولذلك كان يقيم القلاع والحصون المنيعة ، ويجعل فى الحصن أبراجاً عالية ومخازن للمؤن والماء ، ويحيطه بالأسوار ويحفر حوله خندقاً يلتجىء الفلاحون

والتجار اليه وقت الخطر ، ويدافع عنهم الفرسان من أبناء الامراء الذين كانوا يدربون على القتال وأعمال الفروسية من سن السابعة .



قلعة الشريف

(ب) واجبات التابع :— كان على التابع أن يقسم يمين الاخلاص والولاء لسيده فى حفلة « الخضوع » ، فيقسم على الانجيل أو بعض مخلفات القديسين . بعد ذلك يمنحه السيد الارض بأن يضع فى يده حفنة من التراب أوغصناً من أشجار الغابات . وكان يتعهد التابع بتقديم خدمات خاصة منها :—

١ — أن يعاون السيد فى حروبه . وقد تطور هذا الالتزام فيما بعد حتى أصبح للتابع الحق فى أن لا يخدم فى الجيش إلا مرة واحدة فى السنة ولمدة لا تزيد على أربعين يوماً .

٢ — أن يقوم بمساعدات مالية للسيد إذا أراد أن يجعل أحد أولاده فارساً أو يزوج كبرى بناته ، وأن يفدى سيده بالمال إذا أسر فى الحرب ، وعليه أن يحتفى بالسيد (ومن معه) كلما مر به أثناء رحلاته أوعند خروجه للصيد .

٣ — أن يقوم بخدمة السيد فى بلاطه . فعليه أن يحضر مجلسه ويسدى له النصح ويبدى رأيه فى الامور الهامة كالحرب والسلم ، وأن يحضر محكمة السيد لمساعدته فى الفصل فى الخصومات ، وأن يخضع لاحكام محكمته .

وكان للسيد السلطة المطلقة فى اقطاعته الخاصة (الدومين). فكان يفرض على المستأجرين لأرضه مقداراً معيناً من المحصول. ويسخر الفلاحين والعمال فى حراثة الأرض وحفر الخنادق وبناء الحصون وتمهيد الطرق. وكان يحتكر لنفسه حق إنشاء مخازن الحبوب والطواحين والأفران والمعاصر. وكان الفلاح ملزماً أن يدفع رسوماً لدرس غلاته وطحنها وخبزها وعصر عنبه.

ومما يجب ملاحظته أن نظام الالتزام أو نظام الاقطاع إنما هو وليد الفوضى التى سادت غرب أوربا فى القرن التاسع على إثر انحلال امبراطورية شرلمان. لذلك لم يكن للاقطاع نظام واحد، فقد تعددت نظمه تبعاً لحالة كل إقليم. فكانت النظم الاقطاعية فى فرنسا مثلا غيرها فى انجلترا أو إيطاليا.

أثر النظام الأقطاعى فى أوربا :— كان لحصون الأشراف وجيوش الفرسان فضل كبير فى صد غارات النورمنديين والمجريين والعرب التى تعرضت لها البلاد فى أواسط أوربا وغربها على إثر تجزئة امبراطورية شرلمان. كما أن ازدياد نفوذ الأشراف قد قيد سلطة الملوك وحال دون استبدادهم. ومن أمثلة ذلك قيام طبقة الأشراف فى انجلترا فى وجه الملك « جون » ووضعهم حداً لاستبداده وغطرسته، وحصولهم على نصيب كبير من الحقوق والامتيازات لهم وللشعب الانجليزى (كما سيأتى فى تاريخ انجلترا). أضف إلى ذلك اعتماد الأشراف على الفرسان فى حروبهم مما أوجد نظام الفروسية الذى تسوده روح الشجاعة والاقدام. ولا غرو فقد كان من مبادىء الفروسية الانتصار للفضيلة وحماية الضعيف واحترام النساء.

وعلى الرغم مما كان لنظام الأقطاع من الفوائد، فقد كان عقبة كأداء فى سبيل توحيد الدول وفى وجود حكومات قومية. فقد تجزأت الدولة الواحدة إلى عدة حكومات تكاد تكون كل منها مستقلة عن الحكومة المركزية. وقد تجزأت فرنسا إلى ١٥٠ إقطاعية كبيرة وانقسمت تلك

الأقطاعات إلى إقطاعات صغيرة يربو عددها على ٧٠ الف . وبالرغم من اعتراف أمراء الأقطاع بسيادة ملك فرنسا فإن ذلك الاعتراف كان اسمياً فقط ، إذ كان بعض أمراء الاقطاع أغنى وأقوى من الملك ، إذ كان يمتلك اقطاعات أوسع من أملاكه بحيث إذا خرج عليه لا يقوى على رده إلي الطاعة . وكان من إثر هذا التفكك قيام المنازعات بين الأشراف بعضهم بعضاً ، وبينهم وبين الملك ، فساد الاضطراب واختل الأمن . وقد تجزأ الشعب الواحد إلى عدة طبقات . فبينما كان الأشراف والفرسان ينعمون بالثروة والنفوذ إذا بطبقة الأرقاء تسخر فى خدمة هؤلاء الأشراف فيقوم أفرادها لهم بأشق الأعمال .

أسباب اضمحلال نظام الأقطاع

كانت هناك عوامل كثيرة ساعدت على أضعاف سلطة أمراء الاقطاعات وتغيير نظام الاقطاع أهمها :—

(١) كره الملوك لهذا النظام :— فقد أضعف نظام الاقطاع سلطة الملوك إذ كانت الاقطاعات أشبه بحكومات صغيرة مستقلة داخل الدولة ، مما فكك وحدة الدول . فعمل الملوك على تقوية نفوذهم بمحاربة الأشراف وإضعافهم بكل الوسائل ، ولا سيما أن الأشراف كثيراً ما كانوا يحنثون فى يمينهم ويمتنعون عن تقديم الخدمات للملك . ولم يكن للملك جيش دائم سوى فرسان اقطاعيته الخاصة ، بل كان اعتماده على ما يقدمه له أمراء الأقطاعات من الخبز والمؤن .

(٢) التنافس بين الأشراف : - ومما ساعد على إضعاف هذا النظام تشاحن الأمراء ومنافسة بعضهم بعضاً . فكان كل شريف يطمع فى أرض جاره ليزداد نفوذاً وثروة ، كما كان كثير من الأتباع يخرجون عن طاعة أسيادهم ويحنثون فى يمينهم . وكان من إثر ذلك أن ضاعت حقوق الفلاحين والتجار ، تلك الحقوق التى لم ينشأ نظام الأقطاع إلا للمحافظة عليها . فنهبت

المتاجر والمزارع والكنائس بسبب تلك الحروب المستمرة والفوضى الشاملة. وقد حاولت الكنيسة تخفيف هذه المنازعات ، فاستعملت نفوذها فى حمل المتنافسين على الكف عن القتال فى أيام معلومة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين، ثم فى الأعياد الدينية - وقد عرفت هذه بهدنة الله - كما قررت غرامات على من يخرب الكنائس وينهب المتاجر ، وأصدرت قرار الحرمان من رحمة الكنيسة ضد من يرتكب هذه الجرائم .

ولما لم تأت هذه الاجراءات بالثمرة المطلوبة ، كونت الكنيسة قوات مسلحة لتنفيذ أوامرها، فتألفت جماعات أطلق عليها « دعاة السلام » . بيد أن كل هذه الجهود لم تضع حداً لهذه الفوضى ، فسخط الأهالى على الأشراف وساعدوا الملوك على القضاء على سلطتهم .

(٣) الحروب الصليبية : — ومما ساعد على إضعاف سلطة الأشراف قيام الحروب الصليبية . فقد مات فى هذه الحروب كثير من الأشراف والفرسان . فزاد نفوذ الملوك .

(٤) ظهور المدن الحرة :— نشأ نظام الاقطاع على أساس ملكية الأرض ، فكان أهل المدن من الصناع والتجار يقيمون حيث شاءوا . وقد نمت المدن بسرعة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، ونالت امتيازات كثيرة من الأشراف حتى أصبحت أشبه بجمهوريات مستقلة . فقرب الملوك اليهم الطبقة الوسطى من أهل المدن وعينوهم فى المناصب العالية ، فكانوا عوناً لهم ضد الأشراف .

(٥) اختراع البارود :— وكان اختراع البارود فى القرن الرابع عشر ضربة قاضية على نظام الاقطاع . فقد كان الفرسان هم الطبقة الحربية المنظمة التى يعتمد عليها الأشراف . ولم يسمح لعـامة الشعب بالاندماج فى سلكهم . فلما اخترع البارود استطاع الملوك أن يجندوا من العامة ، ولم تُجد حصون الأشراف ولا دروع الفرسان نفعاً أمام قوة البارود .

الباب الرابع

الحروب الصليبية وصلاح الدين والمماليك

الفصـــل الأول

الحروب الصليبية The Crusades

٤٨٩ - ٦٦٦ ھ و ١٩٠٦ - ١٢٧٣ م

هى الحملات التى وجهها مسيحيو غرب أوربا إلى الشرق من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر الميلادى لاستخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين وتكوين دول لاتينية فى الشرق. وسميت صليبية لأن المسيحيين اتخذوا فيها الصليب شارة لهم.

أسباب تلك الحروب: — كان من أهم الأسباب التى دفعت أوربا إلى خوض هذه الحروب ظهور الأتراك السلجوقيين الذين امتد سلطانهم على الدولة البيزنطية فى أواخر القرن الحادى عشر، وانتزعوا منها أرمينية وآسيا الصغرى، ثم هددوا القسطنطينية نفسها. فخشى الأمبراطور الكسيوس Alexius على بلاده واستنجد بالبابا وملوك غربى أوربا وأمرائها.

وكان المسيحيون يزورون بيت القدس فى أمن وطمأنينة إلى أن استولى السلاجقة على فلسطين، وكانوا حديثى عهد بالاسلام، فغلوا فى الدين الى حد أهاج خواطر الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين فى العصور الوسطى يعتقدون أن الحج إلى بيت المقدس يغفر الذنوب ويكفر السيئات. وقد بالغ بعض المسيحيين فى وصف تعصب السلاجقة وسوء معاملتهم للحجاج.

وصادفت استغاثة الكسيوس وشكوى الحجاج هوى فى نفس البابا ، كما وافقت رغبات الطبقات المختلفة من الأشراف والفرسان والأرقاء . فقد وجد البابا الفرصـــة سانحة لمد نفوذه على الكنائس الشرقية والسيطرة على جميع العالم المسيحي ليجعله تحت سلطة حكومة دينية واحدة هو رئيسها . كذلك رأى الأشراف فى تلك الحروب فرصة لتكوين إمارات لهم فى الشرق ، كما وجد الفرسان فيها ميدانا جديداً للحرب وركوب المخاطر فى سبيل الدفاع عن الكنيسة . أضف إلى ذلك رغبة الأرقاء فى التخلص من نظام الأقطاع وظلم الأشراف لهم تحت ستار الدين .

ومما ساعد المسيحيين على القيام بهذه الحروب انقســام دولة السلاجقة عقب موت ملكشاه ، وتفكك الوحدة الاسلامية . وعدم وجود زعيم قوى يجمع شتات القوات الاسلامية . أضف إلى ذلك تحول المسلمين من الوثنية إلى المسيحية ، مما سهل على الصليبيين المرور ببلاد المجر فى طريقهم براً إلى فلسطين ، ثم قيام المدن التجارية الغنية بسفنها (مثل جنوة والبندقية وبيزا) التى ساعدتهم على الانتقال إلى سواحل فلسطين .

الشروع فى الدعوة الى الحروب الصليبية : — فى سنة ١٠٩٥ م عقد البابا اربان الثانى Urban II مجمعاً فى مدينة كليرمونت Clermont فى فرنسا حضره كثير من رجال الدين والفرسان ، وخطب فيهم مبيناً لهم حالة بيت المقدس وما يلاقيه الحجاج من الآلام والمشاق ، ودعا المسيحيين إلى حمل السلاح والذود عن الهيكل المقدس ، وحث الفرسان على نسيان الأحقاد والعمل على إنقاذ إخوانهم فى الشرق ، ورغّب الفقراء فى الحرب بمـا سيجدونه من الخيرات فى تلك الأرض الطيبه المباركة (فلسطين) . ولم يكد البابا يتم خطبته حتى التف حوله الألوف من الناس واقسموا الأيمان على مناصرة دينهم . فعلق البابا شارة الصليب لكل منهم على ذراعه الأيمن . وبذلك أصبح هذا الصليب شعار هذه الحروب . ثم أعلن البابا حماية

الكنيسة لأملاك المحاربين وأسراتهم ، ومضاعفة جزاء من اشترك فيها وغفران ذنوب الخاطئين ودخول من يستشهدون منهم جنات النعيم ، وبث الأساقفة فى طول فرنسا وعرضها لنشر دعوة الجهاد . وكان من بين هؤلاء بطرس الناسك وكان خطيباً مفوهاً . فسرعان ما تأججت نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم بروح الحرب الدينية .

وعلى إثر انتشار الدعوة اجتمع ٣٠٠,٠٠٠ من الغوغاء وساروا من غير نظام تحت قيادة بطرس الناسك Peter the Hermet لتخليص بيت المقدس ، فنهبوا البلاد التى مروا بها واقترفوا فى طريقهم الفظائع والجرائم مما أدى إلى قيام المجريين والبزنطيين فى وجههم ؛ حتى لم يصل منهم إلى القسطنطينية غير نصفهم . وقد رأى الامبراطور الكسيوس أن يتقى شرهم فساعدهم على العبور إلى آسيا الصغرى ، فتقدموا إلى نيقية حيث قابلهم السلاجقة وأفنوهم عن آخرهم سنة ١٠٩٦ م .

(١) تأسيس الامارات اللاتينية فى الشرق

قام الاستعداد للحملة الأولى على قدم وساق فى أكثر بلاد أوربا . فقد لبى نداء البابا بعض الأشراف وعدد كبير من القساوسة والفرسان ، وتجمعت الجيوش خارج أسوار القسطنطينية . وكان عدد المحاربين يتراوح بين مائتى ألف وثلاثمائة الف مقاتل ؛ غير أنه لم يكن لهذه الجيوش قائد عام يجمع شملها ويضع خطة مشتركة لها ، بل كانت القيادة إلى بعض الأشراف ، فعمل كل منهم مستقلا عن الآخرين . ومن بينهم جودفرى Godfrey دوق اللورين الأسفل ، وأخوه بلدوين Baldwin ، وريموند Raymond كونت تولوز ، وبوهمند Bohemond ، وابن أخيه تنكرد Tancred ، وروبرت دوق نورمنديا وغيرهم .

وفى سنة ١٠٩٧ م عبر الصليبيون البسفور وحاصروا مدينة نيقية ، ثم تقدموا إلى دوريلم Dorylœum ، أو إسكى شهر ، وهزموا جيوش قليج

أرسلان صاحب سلطنة الروم السلاجقة . على أنهم ما لبثوا أن دب الشقاق بينهم ، إذ اختلف بلدوين وتنكرد كل يريد أن يكون جنده فى الطليعة . فانفصل بلدوين عن الجيش وتوجه إلى الرها Edessa إجابة لطلب أميرها ، فاستقل بها وأسس بها إمارة لاتينية . أما بقية الصليبيين فقد زحفوا على « انطاكية » وحاصروها فى اكتوبر سنة ١٠٩٧ م ثم دخلوها عنوة بعد أن حاصروها تسعة أشهر ، فمثلوا بأهلها أشنع تمثيل وقتلوا منهم عشرة آلاف ، وأمروا عليها بوهيمند . ثم استأنفوا الزحف على أورشليم (بيت المقدس) فدخلوها عنوة فى يونية سنة ١٠٩٩ م بعد حصار دام سبعة أسابيع ، وقاموا على إثر دخولهم بمذبحة عظيمة سالت فيها الدماء أنهاراً ، وقتل فيها أكثر من سبعين الفاً من المسلمين ، ولجأ اليهود إلى معبدهم فأحرقه الصليبيون . وكتب جودفرى إلى البابا يبشره بفتح بيت المقدس ويقول له « إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتيها فى بحر من دماء الشرقيين فى إيوان سليمان ومعبده » .

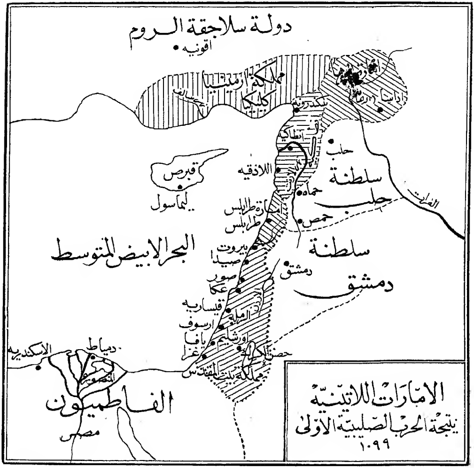
وعلى إثر الفتح انتخب جودفرى ملكا على بيت المقدس لما امتاز به من البسالة والاقدام . ثم شرع الصليبيون يستولون على المدن الباقية فى فلسطين . وقد ساعدهم على ذلك ما كانت تقدمه اليهم أساطيل المدن الايطالية من المؤن والذخائر ، فاستولوا على عكاء سنة ١١٠٤ م ، ووقعت فى يدهم صور سنة ١١٢٤م وأسسوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند كونت تولوز .

نتائج هذه الحرب :— نجح الصليبيون فى تحقيق أغراضهم السياسية والدينية ، فاستولوا على بيت المقدس وخلصوها من أيدى المسلمين ، وكونوا أربع أمارات لاتينية فى الشام وفلسطين وهى : بيت المقدس ، وانطاكية ، وطرابلس ، والرها . وكانت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الأقطاع ، فكانت كل أمارة مستقلة عن الأخرى رغم اعتبارهم ملك بيت المقدس سيداً عليهم .

وقد نشأت عدة أحزاب دينية مسيحية للدفاع عن الأراضى المقدسة

والعنـاية بالمرضى والجرحى والحجاج ، أهمهـا طائفة فرسان المعبد Knights of the Temple وطائفة القديس يوحنا Knights of St. John .

وقد استفادت جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا من هـذه الحروب ، فوثقت علاقاتها التجارية مع الشرق . كما استطاع امبراطور الدولة البيزنطية أن يسترد بعض ما فقده من أملاكه فى آسيا الصغرى ، إلا أنه لم يسترد كل ما كان يطمع فيه . ومن ثم وقع النزاع بينه وبين الصليبيين .



الامارات اللاتينية
نتيجة الحرب الصليبية الأولى
١٠٩٩

(٢) علاقات الحروب الصليبية بمصر

بدأت الحروب الصليبية فى عهد المستعلى الفاطمى . وكان النفوذ بيد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، فوقفت مصر موقف الدفاع عن نفسها . وقد طمع فيها الفريقان المتحاربان : الصليبيون والسلاجقة ، لأهمية موقعها الحربى ، وانتهز كل منهما وقوع النزاع بين الوزيرين شاور وضرغام على الوزارة للتدخل فى شئون مصر .

ولما ثار الجند على شاور بزعامة ضرغام ، هرب شاور إلى الشام واستنجد بنور الدين ، ووعده أن يدفع كل تكاليف الحملة وثلث خراج مصر جزية سنوية . فلبى نور الدين دعوته ، لتعرف حقيقة الحال فى مصر وما وصلت اليه من الضعف ، وكان عمورى Amalric ملك بيت المقدس قد أغار عليها وأرغم ضرغام على عقد محالفة معه ودفع جزية كبيرة له .

(ا) حملة شيركوه الأولى على مصر :— لما علم ضرغام بالمفاوضات التى دارت بين شاور ونور الدين محمود ، سارع إلى عقد حلف مع عمورى ، وتعهد بأن يدفع له جزية سنوية . فأرسل نور الدين جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على مقدمة ذلك الجيش ، فالتقى مع المصريين فى بلبيس وانتصر عليهم ، ثم استولى على الفسطاط ، وقبض على ضرغام وقتله .

ولما أدرك شاور غرضه وتولى الوزارة وتوطدت أقدامه فيها ، امتنع عن دفع الجزية الى نور الدين ، وتحالف مع الفرنجة الذين مدوا له يد المساعدة ، وحاصروا شيركوه فى بلبيس وأرغموه على العودة بجنده إلى الشام .

وانتهز نور الدين فرصة ذهاب عمورى إلى مصر فأغار على فلسطين ، فاضطر هذا إلى العودة اليها لحمايتها ، وذلك سنة ١١٦٤ م .

(ب) حملة شيركوه الثانية على مصر :— عاد أسد الدين شيركوه الى الشام بعد أن وقف على حقيقة الحال فى مصر وما كانت عليه من الضعف ، فأخذ يعد العدة لغزوها . فلما علم شاور بعزم نور الدين ، طلب مساعدة الفرنجة ثانية ، واتفق معهم على أن تكون لهم بمصر حامية من الجند لحمايتها ضد غارات نور الدين . فأرسل نور الدين حملة إلى هذه البلاد بقيادة شيركوه وصلت فى نفس الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفرنجة إليها . فعسكر عمورى بالفسطاط ، وعسكر شيركوه بالجيزة ، ووقعت معركة عنيفة بين جيش شيركوه من جهة وجيوش شاور والفرنجة من جهة أخرى . ثم التقى الفريقان فى موقعة البابين (على بعد عشرة أميال جنوبى المنيا) ، فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصراً مبيناً . وبذلك توطدت أقدامه فى الصعيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع متابعة انتصاراته والسير إلى القاهرة ، فاتخذ طريق الصحراء حتى وصل إلى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة ، وأقام ابن أخيه صلاح الدين والياً عليها ، وجعل معه نصف الجند وعاد بالنصف الآخر إلى الصعيد ، وأخذ فى جمع الضرائب . ولما علم شيركوه بحصار المصريين للاسكندرية براً وحصار أسطول الصليبيين لها بحراً ، عاد مسرعا لنجدة صلاح الدين . وقد اصطلح الفريقان آخر الأمر على الجلاء عن مصر بعد أن أخذ شيركوه من الفرنجة خمسين ألف دينار .

(حـ) حملة شيركوه الثالثة على مصر :— عاد شيركوه الى الشام والفرنجة إلى فلسطين ، وكان كل فريق منهما يتحين الفرص للاستيلاء على مصر . فلم يلبث الفرنجة أن أخلفوا وعدهم وجردوا عليها حملة سنة ١١٦٨ م ، وأغاروا على بلبيس ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل . وقد أسخط عمل عمورى هذا جميع المصريين ، فكتب الخليفة العاضد الى نور الدين يستنجده وأرسل اليه خصلا من شعور النساء .

أحرق شاور مدينة الفسطاط ليحول دون تقدم عمورى فى مصر ،

فظلت بها النيران أربعة وخمسين يوماً . ولاتزال آثار الحريق باقية الى اليوم. وهكذا نجح شاور فى تعطيل عمورى وشغله عن مهاجمة القاهرة ، ففاوضه فى الصلح وسوّف فى المفاوضات حتى أرسل نور الدين محمود جيشاً تحت قيادة شيركوه .

ولما وصل شيركوه الى القاهرة كان عمورى لا يزال أمام أسوارها . فرأى عمورى أن لا قبل له بمقاومته ، وعاد إلى فلسطين من غير حرب ولا قتال . ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر فقابله المصريون بالترحاب.

ولم يثق شيركوه بشاور لغدره به فى المرة الأولى ، فعول على التخلص منه ، فأمر صلاح الدين بالقبض عليه ثم قطع رأسه بأمر من الخليفة الفاطمى. وبذلك صفا الجو لشيركوه ، وأسند الخليفة الوزارة إليه سنة ٥٦٤هـ(١١٦٩م). ولم يطل عهده فيها ، فقد مات بعد ثلاثة أشهر، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين.

(٣) صلاح الدين الأيوبى

كان مركز صلاح الدين غاية فى الحرج . فقد كان وزيراً للخليفة الفاطمى الشيعى ، ونائباً عن نور الدين محمود السنى . فاضطر بذلك الى الدعاء لهما فى الخطبة . وقد أخذ صلاح الدين يقوى مركزه فى مصر ويعمل على الاستقلال بها ، فعمل على كسب محبة المصريين واخلاصهم له ، حتى يتمكن من مناوأة نور الدين اذا ما فكر فى عزله ، ثم القضاء على الدولة الفاطمية .

ولكى يضعف سلطة الخليفة الفاطمى أسند صلاح الدين أمور الدولة الى أنصاره ، وأحضر أباه وأقاربه الى مصر ، فكانوا له أعوانا مخلصين . ثم تخلص من جند السودانيين الذين ثاروا فى وجهه وطردهم الى الصعيد حيث قضى عليهم نهائياً . وقد ازدادت محبة المصريين لصلاح الدين على إثر انتصاره على الصليبيين الذين طالما هددوا مصر وأغاروا على دمياط سنة ١١٦٩ م . فاستقرت سلطته وتمكن من القضاء على الخلافة الفاطمية .

ففى سنة ١١٧٠ م أنشأ ثلاث مدارس فى القاهرة والاسكندرية لنشر المذهب السنى ، وأسند المناصب الدينية إلى الفقهاء من السنيين . وفى سنة ١١٧١ م حذف اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة ، ودعا للخليفة العباسى . وبذلك سقطت الدولة الفاطمية وانتقل الحكم إلى صلاح الدين الأيوبى .

بناء قلعة الجبل : — ولكى يتقى صلاح الدين خطر ثورات الفاطميين وأشياعهم فى الداخل والحملات الصليبية من الخارج ، بنى قلعة الجبل على المقطم لتكون مركزاً للحكومة ومعقلا للجند ، وعهد ببنائها إلى بهاء الدين قراقوش. كما بنى سوراً حول الفسطاط والقطائع والقاهرة . وقد تم بناء القلعة فى عهد الكامل . كذلك بنى قراقوش بئرا عمقها ٢٨٠ قدماً ليشرب منها الجند إذا ما حاصر الأعداء القلعة . وتعرف هذه البئر ببئر الحلزون .

توحيد كلمة المسلمين : — بسم الحظ لصلاح الدين بموت نور الدين فجأة سنة ١١٧٤ م . وقد حاول صلاح الدين أن يوثق العلائق مع الملك الصالح بن نور الدين . غير أن وزراء السلطان الجديد كانوا يضمرون له السوء ، فقامت الحرب بين الفريقين . فانتصر صلاح الدين واستولى على دمشق ، واعترف به الخليفة العباسى سلطانا على مصر والشام سنة ١١٧٥ م .

ولما توفى الملك الصالح سنة ١١٨١ م استولى صلاح الدين على أملاكه فى حلب والموصل ، فصار بذلك الحاكم المسيطر على غربى آسيا ، وأصبح الصليبيون محصورين بقواته المتحدة فى الشمال والجنوب والشرق .

علاقة صلاح الدين بالصليبيين

تجدد النزاع بين صلاح الدين والصليبيين بسبب سوء تصرف رينولد صاحب حصن الكرك الذى أغار على سواحل مكة والمدينة ، فأرسل اليه صلاح الدين قوة ردته على أعقابه بعد أن تكبد خسائر فادحة .

ومما زاد غضب صلاح الدين على رينولد قطعه طريق الحجاج وقبضه على بعض قوافل المسلمين وهى فى طريقها الى مكة ، فصمم على الانتقام منه بالاغارة على الولايات الصليبية . وأقسم ليذبحنه بيده .

موقعة حطين : — تقدم صلاح الدين بجيشه سنة ١١٧٨ م وهزم الصليبيين هزيمة منكرة عند حطين ، وأمر بقتل الفرسان الذين أغاروا على مكة ، وذبح رينولد برأ بقسمه . وكان من إثر هذا الانتصار أن استولى صلاح الدين على عكاء ونابلس والرملة وقيسرية ويافا وبيروت ، وعرض على الصليبيين أن ينزل لهم عن بعض البلاد على أن يسلموا اليه مدينة بيت المقدس من غير حرب . ولما رفضوا طلبه حاصرها ثمانية أيام حتى ضعفت عن المقاومة وأرغمت على التسليم . ومع ذلك فقد سمح صلاح الدين لمن شاء من المسيحيين بالهجرة مقابل دفع فدية قليلة . وقد أعجب المسيحيون بما أظهره صلاح الدين وأخوه العادل من رعاية وعطف على فقرائهم وإعداد معدات الرحيل لهم .

تجدد الحملات الصليبية : — وقد هال أهل أوربا ما سمعوه من انتصار صلاح الدين ، فأعد بعض ملوكها الجيوش للقيام بحرب صليبية جديدة لاسترداد الاقاليم المفقودة . وكانت هذه الحملات بقيادة فردريك بربروسا Frederick Barbarossa وفيليب الثانى Philip II ملك فرنسا ورتشارد الاول Richard I ملك انجلترا .

خرج فردريك على رأس جيش منظم يبلغ عدده مائة ألف مقاتل . واخترق آسيا الصغرى ، فغرق في الطريق وتفرق جنده ، ولم يصل إلى الشام منهم إلا القليل . أما جيوش فيليب ورتشارد فقد وصلت إلى عكاء بعد أن استولى رتشارد فى طريقه على جزيرة قبرص .

وقد أخطأ الصليبيون بمحاولتهم الاستيلاء على حصن عكاء المنيع قبل أن يوجهوا مجهودهم إلى دفع صلاح الدين إلى الجهات الداخلية ، مما أضعف قواتهم بالرغم من استيلائهم عليه سنة ١١٩١ م .



الحرب الصليبية الثالثة
١١٨٩-١١٩٢م
وفتوح صلاح الدين
الدوله البيزنطيه
دولة صلاح الدين
خط سير الصليبيين
البحر الاسود
البحر الابيض المتوسط
دولة الروم السلجوقيه
اتابكة اذربيجان
الخلافة العباسيه
السلاجقه
مصر
المجر
الصرب
البلغار
قينا
راتزبون
بلغراد
ادرنه
القسطنطينيه
نيقيه
قونيه
مرسيليا
جنوه
صقليه
قبرص
ليماسول
انطاكيه
حلب
طرابلس
دمشق
عكا
حطين
القدس
ارسوف
الاسكندريه
الموصل
بغداد
حماه
بيروت
صيدا
الكرك
الرملة
يافا
الشوبك

وقع الخلاف بين فيليب ورتشارد ، فرجع فيليب إلى بلاده وبقى رتشارد وحده يعمل ضد قوات المسلمين. وقد أظهر من الشجاعة والفروسية ما أثار إعجاب أعدائه ، فلقبوه بقلب الأسد Cœur de Lion . وانتصر رتشارد على قوات صلاح الدين فى أرسوف واستولى على يافا ، ولكنه لم يتمكن من فتح بيت المقدس . فدارت المفاوضات بين الفريقين وانتهت بصلح الرملة سنة ١١٩٢ ، وهو بمثابة هدنة أمدها ثلاث سنين بشروط أهمها : —

١ — أن يكون بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج .

٢ — أن يحمى الصليبيون ساحل الشام من صور إلى يافا .

٣ — أن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين .

وعلى إثر هذا الصلح عاد رتشارد إلى بلاده ، فاصطدمت سفينته فى بحر الادرياتيك ، ووقع أسيراً فى يد ليو بولد دوق النمسا ، فسلمه إلى الامبراطور هنرى السادس — وكان فى عداء مع انجلترا — فسجنه ولم يطلقه إلا بعد أن دفع له دية كبيرة . أما صلاح الدين فقد مات بعد هذا الصلح بقليل .

(٤) الحملات الصليبية التى وجهت على مصر

وجد الصليبيون أن لا سبيل إلى استرداد بيت المقدس من يد المسلمين إلا باضعاف الأيوبيين فى مصر مركز قوة المسلمين فى ذلك الحين ، فوجهوا حملاتهم نحو مصر . وكان من أهم الحملات التى قاموا بها : —

(١) — حملة جان دى بريين Jean de Brienne (١٢١٨ م) .

جمع جان دى بريين جيشاً من الجرمان وغيرهم وهاجم دمياط واستولى على حصنها ، فمات السلطان العادل (الذى خلف صلاح الدين) كمداً على ضياعها ، وعهد لابنه الكامل بطرد الصليبيين منها . وقد حاول السلطان الكامل استرداد دمياط فلم يفلح ، ولما خشى أن تقع البلاد جميعها فى أيدى الصليبيين ،

ولا سيما أن سلطانه لم يتوطد فى مصر بعد لمنافسة أقاربه له ، عرض عليهم أن يرد اليهم بيت المقدس مقابل جلائهم عن دمياط . فرفضوا بسبب تشبث بيلاغيوس Pelagius رسول البابا ، فعاد القتال بين الفريقين .

وقد أخطأ جان دى بريين بتركه الطريق الذى سلكه الفاتحون لمصر من قبله ـ كقمبيز والاسكندر وعمرو بن العاص ـ واتخاذه طريق دمياط ، ذلك الطريق الذى كانت تكتنفه فروع النيل وجداوله . أضف إلى ذلك ما كان من إقامة الصليبيين فى دمياط مدة سنة ونصف بسبب وقوع التشاحن بينهم ، مما أتاح الفرصة للسلطان الكامل ، فبنى الاستحكامات جنوبى دمياط وفى المنصورة ، كما تمكن من حسم النزاع بينه وبين أقاربه فى الشام ، فجاءت الأمداد إلى مصر من حلب وحمص وحماه وغيرها .

ولما تقدم الصليبيون إلى الجنوب قابلتهم جيوش الكامل عند المنصورة وحالت دون تقدمهم . وكان ذلك وقت فيضان النيل ، فقطع المسلمون السدود ، فأحاط ماء النيل بالفرنجة ، فحاولوا العودة إلى دمياط . فحال المسلمون بينهم وبين ما أرادوا ؛ وأحدق الخطر بهم من كل جانب ، فطلبوا الحماية . وأراد المسلمون أن يقضوا عليهم نهائياً لولا أن منعهم السلطان الكامل الذى رأى ببعد نظره أن يعقد الصلح معهم على أن يغادروا دمياط ، حتى لا يؤدى هذا الأمر إلى قيام حملة صليبية أخرى للأخذ بثأرهم . فتم الصلح على ذلك وعاد الصليبيون من هذه الحملة خائبين .

(٢) ـ حملة الامبراطور فردريك الثانى (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م) .

كان فردريك الثانى ملكا على جنوب إيطاليا وامبراطوراً على البلاد التى يطلق عليها الآن المانيا والنمسا . وقد وعد البابا أن يقوم بحملة صليبية، ولكنه لم يبر بوعده . ولما استحثه البابا سنة ١٢٢٧ م على الخروج بحملته ، خرج الى برنديزى متظاهراً بالتوجه الى فلسطين ، ولكنه عاد بعد أيام قليلة مدعياً المرض ، فغضب عليه البابا وطرده من رحمة الكنيسة . أضف الى ذلك ما كان هناك من التنافس بين البابا وفردريك على السلطة فى إيطاليا .

على أن فردريك خرج بحملة صليبية فى العام التالى (١٢٢٨ م) رغم ما كان يصبه عليه البابا من لعنات ، واعتباره إياه أحد اللصوص والقراصنة الذين لا يذهبون للفتح والغزو بل لسلب تلك الأراضى المقدسة ونهبها . وقد شجع فردريك على القيام بهذه الحملة زواجه من ابنة جان دى بريين وارثة عرش أورشليم الاسمى (١) .

خرج فردريك الى فلسطين فى عشرة آلاف مقاتل . وكان من حسن حظه أن ساد الشقاق بين السلطان الكامل فى مصر وسلطان دمشق ، مما اضطر السلطان الكامل الى أن يعقد هدنة مع فردريك أمدها عشر سنوات ، على أن ينزل له السلطان عن مدينة بيت المقدس و يترك له تحصينها وادارة شئونها ، وأن تظل الأماكن المقدسة الاسلامية ملكا للمسلمين . وتعهد الامبراطور بأن يدافع عن السلطان ضد أعدائه حتى المسيحيين منهم ، وأن لا يمكن حكام انطاكية وطرابلس الشام وطرسوس من تلقى أى مدد .

ومما ساعد على عقد هذا الصلح ما عرفه المسلمون عن فردريك من الآراء الدينية الحرة وطعنه على البابا ورجال الكنيسة ، لانغماسهم فى ملاذ الحياة وانهماكهم فى الأمور الدنيوية وانحرافهم عن حياة التقشف والزهد التى كان عليها المسيح .

وقد أثارت هذه المعاهدة عاصفة من السخط عند المتطرفين من كلا الفريقين . أما الصليبيون فلم يرحبوا بها إذ كانت تحول دون وصول الأمداد اليهم. كذلك لم يرفها بطريرق بيت المقدس الا العار والأخطار التى جلبها فردريك على المسيحيين . وقد بلغ من سخط رجال الدين عليه انه لما وصل الى أورشليم لم يتقدم أحد منهم لوضع التاج على رأسه .

وكذلك اعتبر بعض المسلمين هذا الصلح تسليما للصليبيين وضعفاً من السلطان الكامل . الا ان المعاهدة كانت فى الحقيقة ربحاً كبيراً للكامل . فقد

---

(١) كان أمراء المسيحيين يتوارثون لقب ملك أورشليم بالرغم من استرداد المسلمين لبيت المقدس .

كسب تحالف فردريك الثانى ، كما استفاد من الهدنة فى وقت اشتد فيه الخلاف بينه وبين أمراء الشام من أقاربه .

(٣) حملة لويس التاسع : - كان لويس ملك فرنسا ورعا تقيا ، يعتبره المسيحيون قديساً لجهاده فى الحروب الصليبية . وقد أعد جيشاً ضخما، وخرج الى مصر فاستولى على دمياط بغير قتال . وتقهقر المصريون الى المنصورة . ووقع لويس فيما وقع فيه جان دى بريين من الخطأ باتباعه طريق الدلتا ، وزحف بجيشه على المنصورة ، فوصل الى البحر الصغير قبل فيضان النيل ، وانتصر أول الأمر ، وكاد يقتحم قصر السلطان لولا أن رده المماليك بقيادة بيبرس . وفى ذلك الوقت مات سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب ، فأخفت زوجه شجرة الدر خبر وفاته عن الجند حتى لايجبنوا عن لقاء العدو . واستدعت توران شاه ولى العهد وكان بديار بكر ، ودافعت عن البلاد الى أن عاد وتسلم زمام الأمور وحارب الصليبيين . وقد نقل توران شاه عدداً من السفن المفككة على ظهور الجمال الى مكان بعيد عن مرمى الأسطول الفرنسى ، حيث ركبت أجزاء السفن ، واستولى بذلك على اثنتين وثلاثين سفينة فرنسية ومنع وصول المؤن والذخائر الى جيش لويس فى المنصورة .

موقعة فارسكور :— لم يستطع لويس أن يتقدم الى القاهرة وعانى جيشه آلام الجوع وتفشت فيه الحمى ، فاضطر الى التقهقر ليلا نحو دمياط . فطارده المسلمون حتى فارسكور حيث قضوا عليه وعلى جيشه سنة ١٢٥٠ م . ومرض لويس بالحمى فأسر هو وكثير من النبلاء ؛ ولم يفك أسرهم الا بعد أن دفعوا دية كبيرة . ثم أقلع لويس الى عكاء مع البقية الباقية من جيشه . وهكذا فشل الصليبيون فى كل حملاتهم على مصر .

(٥) نتائج الحروب الصليبية

عادت الحروب الصليبية على أوربا بفوائد كثيرة . وكان لها آثار بعيدة المدى فى أحوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية ، على الرغم

من أنها كلفت المسيحيين والمسلمين كثيراً من الأموال والأرواح وعادت بالفشل على الصليبيين الذين لم يستطيعوا الاحتفاظ بالأماكن المقدسة بفلسطين ولا بالامارات اللاتينية التي أسسوها في الشرق ، كما عجزوا عن الاستيلاء على مصر .

وقد ساعدت هذه الحروب على إضعاف سلطة الأشراف ، مما أدى إلى تقوية سلطة الملوك وتمهيد السبيل لتوحيد دولهم ، كما أخرت سقوط القسطنطينية فى أيدى المسلمين .

وكان لاتصال المسيحيين بالشرق أثر كبير فى ترقية الصناعة والتجارة فىأوربا ـ فكانت سفن جنوة والبندقية تنقل الحجاج من المسيحيين إلى فلسطين وتعود محملة بالنفائس من المنسوجات الحريرية والقطنية والأوانى الصينية والعقاقير والسجاجيد والروائح العطرية والزيوت والأصباغ ، فشرع الأوربيون يقلدون هذه الصناعات .

كذلك اقتبس الصليبيون كثيراً من علوم العرب، فنقلوا كثيراً من الكتب العربية المترجمة عن الاغريقية ، وبلغ من اهتمام الأوربيين بتلك العلوم أن أنشأوا بباريس مدرسة لتعليم اللغات الشرقية فى القرن الثانى عشر .

وقد ساعدت الحملات الصليبية على تقدم الأوربيين فى العلوم الجغرافية ، فنبذوا عنهم الخرافات التى كانت تحشو أذهانهم، كما أثارت فى نفوسهم حب الاستطلاع، فظهر فيهم الرحالة ماركو بولو Marco Polo الذى طاف أرجاء آسيا ، ووصف لأهل أوربا ما فى بلاد الشرق من خيرات ، مما شجعهم على القيام بالرحلات . وقد أخذت أوربا عن العرب استعمال البوصلة البحرية ، فاستطاع ملاحوها أن يخترقوا المحيط بعد أن كانوا يعتقدون أنه مأوى الجن ، فوصلوا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح كما كشفوا أمريكا .

الفصل الثانى

المماليك فى مصر

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ و ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

كان المماليك يجلبون من آسيا الصغرى والتركستان وبلاد اليونان. ويطلق عليهم أيضاً اسم الأرقاء لأنهم فى الأصل أرقاء بيض، اشتراهم ملوك الأيوبيين من سوق النخاسة ليتخذوا منهم جيوشاً يعتمدون عليها ويحوطون أنفسهم بها دون الجيوش الأهلية من المصريين والعرب.

وكان نجم الدين الأيوبى أول من أكثر من شراء الرقيق حتى بلغ عددهم اثنى عشر ألفاً، وبنى لهم الثكنات فى جزيرة الروضة حين اشتكى الناس منهم، فأطلق عليهم اسم المماليك البحرية أو مماليك النيل.

ولم يتعظ الأيوبيون بما حدث للخلفاء العباسيين الذين أكثروا من الترك وقلدوهم مناصب الدولة، فأصاب دولتهم ما أصاب الدولة العباسية من قبل.

(١) المماليك البحرية

٦٤٨ - ٧٩٢ هـ و ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م

بعد أن تم النصر للسلطان توران شاه على الصليبيين فى موقعة المنصورة الشهيرة سنة ١٢٥٠ م، أغضب المماليك بسوء معاملته لهم، كما لم يحسن معاملة زوج أبيه «شجرة الدر»، فتآمرا عليه وقتلوه وولوا شجرة الدر سلطانة عليهم. وهى أول امرأة وليت أمر المسلمين. وبقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية فى مصر وقامت دولة المماليك البحرية.

ولما اعتلت شجرة الدر العرش اتفقت مع عز الدين أيبك التركمانى أكبر زعماء المماليك، وعهدت اليه بادارة شئون البلاد، ثم أخذت تتقرب من أرباب الدولة وتمنحهم الرتب، كما خففت الضرائب عن الأهلين لتستميل قلوبهم. وعلى الرغم من ذلك فقد كره الناس حكمها، إذ لم تجر العادة بأن

يلى النساء حكم المسلمين . فخرج أهل سورية عن طاعتها وبايعوا الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ، فتزوجت شجرة الدر بعز الدين أيبك ، ونزلت له عن الحكم . فاصبح سلطاناً على البلاد . وسار الناصر الأيوبى إلى دمشق . ثم تقدم نحو مصر ، فحاربه أيبك وهزمه . ولما تم له النصر عمل أيبك على التخلص ممن كانوا ينافسونه من القواد ، وعزم على الزواج بأميرة من الموصل ، فأثار ذلك حقد شجرة الدر . فتآمرت على اغتياله وقتلته سنة ٦٥٥ ﻫ (١٢٥٧م) . فانتقم له ابنه، وسلط عليها بعض الجوارى فقتلنها.

ولى الأمراء عليهم نورالدين بن أيبك وكان فى الحادية عشرة من عمره ، فقام بالوصاية عليه سيف الدين قُطُز . وفى ذلك الوقت هجم هولاكو التتارى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله . فلما وصل إلى مصر خبر هذه النكبة ، اجتمع العلماء والقواد وخلعوا نور الدين وأقاموا قطز لصد غارات التتار عن مصر .

سيف الدين قُطُز (٦٥٧ ـ ٦٥٨ ﻫ و١٢٥٩ ـ ١٢٦٠ م) .

بعد أن أزال المغول الخلافة العباسية فى بغداد ، حاولوا الاستيلاء على مصر والشام . فأرسل هولاكو رسولا إلى قُطُز يطلب اليه التسليم والخضوع ، فخرج قطز على رأس جيش كبير هزم هولاكو وأتباعه فى موقعة «عين جالوت» (فى فلسطين) سنة ١٢٦٠م ، ثم تعقبت الجيوش المصرية المغول إلى الرُّها. وبذلك أصبح السلطان المصرى صاحب السيادة فى الشام ، إذا استثنينا بعض المدن التى كانت لاتزال فى أيدى الصليبيين .

ويرجع الفضل فى هذا الانتصار إلى الأمير « بيبرس » أحد قواد المماليك . وقد وعده السلطان ولاية حلب مكافأة له على حسن بلائه فى تلك الحروب ، ولكنه لم يبر بوعده وولى غيره عليها مما أثار حنق بيبرس ، فتآمر عليه وقتله وهو فى طريقه إلى مصر ، وتولى الملك بعده وتلقب بالملك الظاهر.

الظاهر بيبرس (٦٥٨—٦٧٦ هـ و ١٢٦٠—١٢٧٧ م)

كان لبيبرس ضلع كبير فى المؤامرات التى ذهب ضحيتها كل من توران شاه وأيبك وقطز. وقد عمل على تقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المماليك واحاطة ملكته بسياج من الهيبة والاحترام . فأحضر أحد أمراء البيت العباسى وأقامه خليفة فى القاهرة ، فغدت مصر مركز العالم الاسلامى . وقد احتاط بيبرس لنفسه ، فلم يجعل لذلك الخليفة شيئاً من السلطة .

ويمتاز عصر بيبرس بما وقع فيه من الحروب المتوالية مع الصليبيين بين سنتى ١٢٦١ ، ١٢٧١ م . فقد استولى على أرسوف وهدم معاقلها . وفتح يافا وانطاكية سنة ١٢٦٨ م . كذلك أغار على بلاد أرمينية عدة مرات ، وحارب المغول فى آسيا الصغرى سنة ١٢٧٧ م وهزمهم هزيمة منكرة . كما استولى على جزيرة العرب ما عدا بلاد اليمن ، ومد حدود مصر جنوبا فى بلاد النوبة الى حد لم يبلغه سلطان قبله ، وأخضع شمال غربى إفريقية وفرض عليهم الجزية . وقد كسب بيبرس محبة الاهلين بما سنه من القوانين العادلة . وما اشتهر به من الحكمة والعمل على ترقية شئون البلاد . فحفر الترع وأصلح الحصون ، وأسس المعاهد الدينية وشيد مسجده المعروف بمسجد الظاهر ، ورتب خيل البريد ، فساعد ذلك على استتباب الأمن حتى كانت تصل الأخبار من دمشق الى القاهرة فى مدة لاتتجاوز ستين ساعة . وعهد بيبرس قبل وفاته بالسلطنة الى ابنه السعيد ، وزوجه ابنة قلاوون أكبر أمراء المماليك .

سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ و ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م)

لم يكن نظام الوراثة مألوفا عند المماليك . فقد كانوا يعتقدون انه لا فضل لأحد على الآخر الا بالمهارة الحربية وكثرة الأتباع والحذق فى تدبير المؤامرات . لذلك لا نعجب اذا ارتقى قلاوون عرش مصر بعد خلعه السعيد ابن بيبرس . الا انه لم يكد يستقر له الأمر حتى هدد المغول بلاد الشام مرة ثانية ، فردهم عنها قلاوون بعد أن أوقع بهم بالقرب من حمص سنة ١٢٨٦م.

رواج التجارة :— وكان عهد قلاوون عهد يسر ورخاء . فقد عنى بنشر التجارة المصرية ، وأنشأ جوازات للتجار تكفل لهم الطمأنينة على أنفسهم وأموالهم فى أسفارهم بين مصر والشام والهند وغيرها ، وعقد المحالفات التجارية مع الامبراطورية البيزنطية ، ومع أمراء نابلى وجنوة وصقلية وقشتالة ، كما تبادل السفراء مع إمام اليمن وأمراء الهند وسيلان .

نشر العلوم :— وقد اهتم قلاوون بنشر العلوم . ومما يخلد ذكره مسجده المشهور ومستشفاه الذى أسسه للبحث الطبى على مثال لم يكن معروفا فى مصر من قبل . وقد أعد فيه غرفا متسعة وضع فيها الأسرة للمرضى من الفقراء والاغنياء على السواء ؛ وأفرد للنساء حجرات خاصة بهن . وعين فيه محاضرين فى الطب ، وأنشأ به معملا كيميائياً جهزه بكل المعدات الطبية ، ومكتبة حافلة بالكتب القيمة فى كل فن . وعين به حفاظاً للقرآن وعلماء يحاضرون الناس فى المذاهب الأربعة ، كما أنشأ به مدرسة للأطفال وملجأ للأيتام .

طرده الصليبيين :— زاد قلاوون عدد جيشه بالإكثار من المماليك الشراكسة (من بلاد الشركس بنواحى بلاد القوقاز) وأسكنهم الأبراج فى قلعة الجبل . فأطلق عليهم المماليك الشراكسة أو البرجية . ثم حارب الصليبيين وطردهم من أكثر بلاد الشام واستولى على اللاذقية وطرابلس سنة ١٢٨٩ . ومات وهو فى طريقه الى عكاء آخر معاقلهم ، وتولى بعده ابنه الأشرف خليل فحاصر عكاء واستولى عليها سنة ١٢٩٠ . وبذلك تم طرد الصليبيين من بلاد الشام .

الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ و ١٢٩٣ - ١٣٤٠ م)

تولى هذا السلطان ملك مصر ثلاث مرات مدتها ثمانية وأربعون سنة ، خلع فى خلالها مرتين . ويرجع سبب خلعه إلى طفولته واستبداد الأمراء بالسلطة ، وكان أعظمهم الأميران سلار وركن الدين بيبرس الجاشنكير .

انتصاره على المغول :ــ وفى عهده عبر غازان (زعيم المغول) نهر الفرات سنة ١٢٩٩ م على رأس جيش مغولى يبلغ مائة الف مقاتل ، والتقى بالجيش المصرى ودحره بالقرب من حمص . واحتل المغول دمشق وبعض بلاد الشام زهاء مائة يوم . ولكن سرعان ما انتصر الناصر عليهم بالقرب من دمشق وهزمهم هزيمة منكره واسترد كل انحاء الشام سنة ١٣٠٣ م . ومن هنا تتجلى عظمة مصر وقوة سلاطينها ، إذ كانت البلاد الوحيدة التى وقفت فى وجه المغول بعد أن غزوا العالم فى قارتى آسيا وأوربا ، وثلوا العروش ، وأسقطوا الممالك . وكان من إثر هذا الانتصار أن خطب الملوك ود الناصر محمد بن قلاوون ، فارتبطت مصر بعلاقات الود مع الحبشة والبابا وفرنسا وملك أرجون . وأرسل اليه امبراطور الهند يطلب منه المساعدة ضد المغول ، كما دخل معه امبراطور الدولة البيزنطية فى حلف لصد غارات الأتراك العثمانيين عن بلاده . وامتد نفوذ مصر فى عهد الناصر إلى شمال إفريقية والعراق العربى وآسيا الصغرى والمدينة المنورة .

إصلاحاته : كذلك اهتم الناصر اهتماماً كبيراً بالشئون الداخلية . فأنشأ الطرق وأقام السدود لحماية البلاد من طغيان ماء النيل ، كما عنى بالزراعة وتربية الماشية ومسح الأراضى . وحفر قناة بين فوة والاسكندرية ، فأخصبت نحو المائة ألف فدان ، وساعدت على ترقية التجارة . كذلك خفف الضرائب عن كاهل الأهلين ، وقضى على اقطاعات الأمراء التى كانت تنقص من دخل الحكومة .

كذلك عمل الناصر على تجميل مدينة القاهرة ، فشيد القصور الشاهقة ومن بينها القصر الأبلق (أو القلعة البيضاء) والمساجد الفخمة والمدارس الكثيرة، وأقام الصهاريج والحمامات . ولم تكن عنايته بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها ، بل تعدتها إلى مكة المكرمة وأمهات مدن الشام .

حالة مصر بعد الناصر :ــ مات الناصر سنة ١٣٤٠م . فتنازع أولاده الملك

من بعده وضعفت الدولة بسبب قيام الثورات . فانتهز أمراء بعض الولايات فرصة ضعف السلاطين وتنازعهم على الملك وانصرافهم عن شئون الدولة ، وحاولوا التخلص من السيادة المصرية .

هذا إلى ما منيت به البلاد من الوباء والقحط ، وعلى الأخص فى عهد السلطان حسن مؤسس المسجد المشهور بجوار القلعة . فقد أصاب البلاد فى سنتى ١٣٤٨ و ١٣٤٩ م وباء شديد عرف بالموت الأسود أهلك كثيراً من السكان. وانتهز المماليك الشراكسة فرصة ضعف المماليك البحرية فاغتصب زعيمهم برقوق الملك من آخر سلاطينهم وأسس دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ م .

المماليك البرجية

٧٩٢ - ٩٢٣ هـ و ١٣٨٢ - ١٥١٧ م

الملك الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ و ١٣٨٢ - ١٣٩٨ م)

اغتصب الملك من السلطان حاجى آخر سلاطين المماليك البحرية . على أن حاجى لم يلبث أن حاربه وطرده إلى الشام ، فظل فيها إلى سنة ١٣٩٠ م ، حيث تولى الحكم للمرة الثانية وقضى نهائياً على سلطان المماليك البحرية .

وفى عهده ساءت العلاقات بين مصر وتيمورلنك ملك التتار الذى أغار على العراق وهدد الشام . فاتحد برقوق مع أمراء شمال الشام ومع سلطان الأتراك العثمانيين على مقاومة التتار ، ولكنه مات قبل نشوب الحرب .

السلطان فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨٠٨ هـ و ١٣٩٨ - ١٤٠٥)

أغار التتار فى عهده على بلاد الشام واستولوا على حلب ثم قصدوا دمشق ، فسار السلطان فرج لصد غاراتهم عنها . غير أنه لم يلبث أن رجع إلى القاهرة لاخماد الثورات التى قامت فى مصر بزعامة الأمير فيروز والشيخ محمودى (الذى أصبح سلطاناً فيما بعد ولقب نفسه السلطان المؤيد شيخ) .

وقد أرسل تيمورلنك الى السلطان فرج يطلب منه الخضوع والولاء ، فلم ير بداً من اجابته إلى ما طلب وأرسل اليه الهدايا الثمينة . على أن

ذلك لم يدم طويلا . فقد عادت بلاد الشام إلى حوزة المماليك بعد موت تيمورلنك سنة ١٤٠٥ م وخرجت بعد ذلك على السلطان فأخضعها وردها لطاعته . ثم اعتزل فرج العرش لما رأى من عصيان المماليك له فتولى أخوه عبد العزيز الملقب بالمنصور ، فلم يبق فى الحكم أكثر من شهر واحد ، وتولى فرج العرش للمرة الثانية . وفى أيامه انتشر القحط فى مصر حتى نقص عدد السكان إلى الثلث .

السلطان المؤيد شيخ المحمودى (٨١٥ - ٨٢٤ هـ و ١٤١٢ - ١٤٢١ م)

أعاد المؤيد الأمن فى البلاد الى نصابه بحسن إدارته وشجاعته. ولما استقرله الملك غزا آسيا الصغرى وأرغم الولايات التركية بها على الاعتراف بسلطانه. وفى عهده أصاب مصر طاعون قضى على كثير من الأهلين ؛ فحزن المؤيد لذلك ، ولبس لباس الدراويش ، وخرج يتبعه الخليفة والقضاة والفقهاء إلى ضريح برقوق حيث صلى المؤيد ومن معه صلاة الاستغاثة ، ثم وزع الطعام على الفقراء . ولا غرو فقد كان المؤيد ورعاً تقياً كما كان شاعراً وموسيقياً . وما يستحق الثناء عليه معاونته طلبة العلم وتشجيعهم بالمال . ومن آثاره مسجده المشهور القريب من باب زويلة . وكان موضع هذا المسجد سجناً سجن فيه المؤيد فى عهد الناصر بن قلاوون ، فلما تولى السلطنة هدم هذا السجن وأقام مكانه مسجداً . وقد أسرف المؤيد فى بنائه و زخرفته .

الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤٢ هـ و ١٤٢٢ - ١٤٣٨م)

تعاقب على العرش بعد موت المؤيد كثير من ضعاف السلاطين حتى آل الملك الى برسباى .

الاستيلاء على قبرص :- وكان أول همه تأديب قبرص لأغاراتها المتكررة على الاسكندرية وسواحل الشام . فأرسل اليها حملة عادت بالغنائم الكثيرة مما أطمع السلطان فيها ، فأرسل اليها الحملات المتكررة . وقد انتصر المصريون على جيوش قبرص وعلى أسطولها ، وأسروا ملكها وأحضروه إلى مصر، حيث

أفندى نفسه بثلثمائة ألف دينار بعد أن اعترف بسيادة مصر على بلاده ، وتعهد بدفع جزية سنوية مقدارها عشرون ألف دينار .

احتكار تجارة الهند :— وفى أيامه عاد نفوذ مصر على مكة وميناءها جُدة مركز تجارة الشرق فى ذلك الحين ، فتبوأت مصر مكانة تجارية لم تكن لها من قبل . وكان لذلك أكبر الأثر فى ازدياد ثروتها ، وذلك لاحتكارها تجارة الهند

السلطان قايتباى (٨٧٣ ـ ٩٠١ هـ و ١٤٦٨ ـ ١٤٩٥ م)

تولى بعد موت برسباى سنة ١٤٣٨ م ملوك ضعفاء كان الواحد منهم لا يلبث أن يخلع عقب توليته إلى أن تولى الأمير خُشقدم (١٤٦١-١٤٦٣م) . وفى عهده ابتدأ النزاع بين مصر والأتراك العثمانيين . وكانت تربطهم قبل ذلك علاقات المودة حتى إن إينال سلطان مصر أمر بتزيين القاهرة حين فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

وقد بدأت تلك العلاقة تزول تدريجياً عند ما اتسعت الفتوح العثمانية فى آسيا الصغرى واصطدمت مصالح الدولتين . إلاّ أن الحرب لم تنشب بينهما إلا فى عهد السلطان قايتباى ، لاحتفائه بالأمير جم أخى السلطان بايزيد وكان ينازعه العرش ، ولاعتراضه بعثة هندية من المغول تحمل هدايا الى بايزيد السلطان العثمانى عند مرورها ببلاد الشام .

لهذا أعلن بايزيد الحرب على المماليك سنة ١٤٨٥ م وأغار على أذنَة وطرسوس (فى آسيا الصغرى) . فصد قايتباى الأتراك عنها واضطر بايزيد إلى عقد الصلح سنة ١٤٩١ . وبذلك عاد السلام بين الدولتين ، وتبودلت بينهما الهدايا من جديد .

ومات قايتباى سنة ١٤٩٦ م ، فتعاقب السلاطين على عرش مصر ، وكثرت الفتن والاضطرابات الداخلية إلى أن تولى قانصوه الغورى سنة ١٥٠١ م بعد أن ناهز الستين من العمر .

السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ و ١٥٠١ - ١٥١٦ م)

قبل ارتقاء السلطان الغورى عرش مصر بقليل كشف البرتقاليون طريق رأس الرجاء الصالح، ووصلوا إلى ساحل الهند سنة ١٤٩٨ م. فتحول طريق تجارة الشرق بعد أن كانت تمر بمصر والشام. وكان لهذا الحادث أثر سيء في حالة مصر المالية، مما اضطر الغورى إلى اثقال كاهل الأهالى بالضرائب لسد عجز الخزينة، كما امتنع عن دفع مرتبات المماليك. وقد نشر العملة الزائفة، وحتم على الأهلين استعمالها حسب قيمتها الاسمية. وبذلك جلب على نفسه سخط المماليك والمصريين جميعاً.

الحرب مع البرتقاليين: — وحاول الغورى أن يعيد طريق التجارة إلى مصر فاتحد مع البندقية وبعض أمراء الهند على محاربة البرتقاليين، وأنشأ أسطولا عظيما انتصر على البرتقاليين أولا ثم هزم فى موقعة ديو البحرية Dio (على ساحل الهند) سنة ١٥٠٩ م.

النزاع مع الأتراك: — وبينما كان الغورى يستعد للانتقام من البرتقاليين، تجدد النزاع بينه وبين الأتراك العثمانيين. فقد طمع السلطان سليم الأول فى الاستيلاء على مصر والشام، وحال بين المماليك وبين استجلاب الأرقاء من آسيا، وكانوا يعتمدون عليهم في تغذية جيوشهم، واتهم سليم السلطان الغورى بالاتصال مع اسماعيل الصفوى شاه العجم (عدو الأتراك). أضف إلى ذلك ما كان من إيوائه الأمراء العثمانيين الهاربين من تركيا.

لهذا أقدم سليم على غزو سوريا في شهر أغسطس سنة ١٥١٦ م على رأس جيش يبلغ عدده ١٥٠,٠٠٠، ومعه المدافع الضخمة التى امتاز بها الجيش التركى على جيوش الدول الأخرى في ذلك الحين. فنشبت بينه وبين الغورى موقعة مَرج دابق (شمالى حلب)، فهزم الغورى وقتل، واستولى سليم على سوريا. ولما وصل إلى القاهرة نبأ قتل الغورى ولى المماليك طومان باى عرش مصر فى اكتوبر سنة ١٥١٦ م.

السلطان طومان باى (٩٢٢ ـ ٩٢٣ هـ و ١٥١٦ ـ ١٥١٧ م)

واصل السلطان سليم السير إلى مصر ووقعت بينه و بين المماليك موقعة الريدانية (المعروفة الآن بقرية العباسية) . وكان النصر للماليك أول الأمر، فقد اقتحموا صفوف العثمانيين وقتلوا منهم عددا كبيرا ، منهم سنان باشا الصدر الأعظم . ثم دارت الدائرة على المماليك ، ففر طومان باى إلى الجيزة ، ودخل سليم القاهرة فى يناير سنة ١٥١٧ م .

واستعد طومان باى لاستئناف القتال ، ووقعت موقعة وردان (جهة الخطاطبة) ، فانهزم المماليك وهرب طومان باى واختفى عند أحد مشايخ العربان ، فخانه وسلمه الى العثمانيين . فأمر سليم بشنقه عند باب زويله . وكان ذلك فى ١٥ ابريل سنة ١٥١٧ م ، فزال بذلك سلطان المماليك عن مصر، وأصبحت هذه البلاد ولاية عثمانية .

الفصـــل الثـــالث

علاقات مصر التجارية فى العصور الوسطى

ان وقوع مصر فى ملتقى القارات الثلاث إفريقية وآسيا وأوربا قد جعل لها مركزا تجارياً ممتازاً . وبذلك بلغت درجة عظيمة من الثروة والرقى ولا سيما فى عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك . يدل على ذلك ما خلفه أمراؤها من الآثار ، وما ظهروا به من مظاهر الأبهة والعظمة .

ولم تقتصر مصر على ما كانت تنتجه أرضها الخصبة من المحصولات ، فقد عنى المصريون فى العهد الاسلامى بترقية الصناعة ، كما استفادوا من موقع بلادهم الجغرافى فتبادلوا التجارة مع غيرهم من الدول . وهذا يفسر لنا ما بلغته مصر فى ذلك العهد من العظمة والقوة .

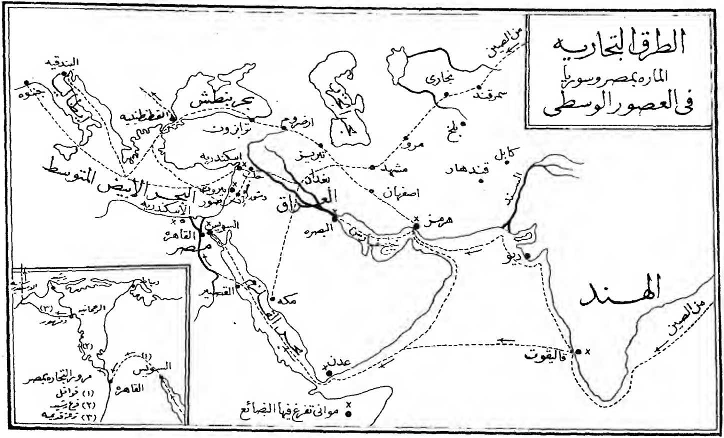
طرق التجارة :ــ وكانت محاصيل مصر بعد الفتح الاسلامى تحمل فى خليج أمير المؤمنين الى القلزم حيث تنقل الى بلاد العرب على ظهور الابل ، كما كانت القوافل تربط مصر بشمال إفريقية غرباً ، وبلاد الشـام والعراق شرقاً . وكانت السفن تصل الى القلزم محملة بالحرير والقرفة والفلفل والبخور والنيـلة وغيرها من منتجات الهنـد والحبشة واليمن . وقد ظلت القلزم (السويس) مفتاح التجارة مع الشرق حتى أيام المستنصر الفاطمى حيث تحول طريق التجارة الى عيذاب على ساحل البحر الأحمر تجاه جـدة .

وكانت تنقل التجارة من الهند والشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسى فخليج عدن فالبحر الأحمر حتى عيذاب ، ومنهـا تحمل على ظهور الابل الى قوص ثم تنقل فى النيل الى الفسطاط . ولم تزل عيذاب طريق الحج والتجارة الى أن حلت محلها عدن سنة ١٣٥٩م، فكانت سفن الشرق ترسو فى عدن حيث تنقل السلع الى القلزم ومنها الى القاهرة على ظهور الابل ، ثم تحمل فى فرع رشيـد من القاهرة الى قرب العطف ، ثم الى الاسكندرية فى الترعة التى حفرها الناصر محمد بن قلاوون (وكانت تحمل المتاجر على ظهور الابل قبل حفر هذه الترعة) .

وقد زادت تجارة مصر الخارجية فى عهد سلاطين الأيوبيين بسبب اتصال أوربا بالشرق على إثر قيام الحروب الصليبية . فقـد كان الأيوبيون ومن بعدهم المماليك أصحاب النفوذ المطلق في سورية ، فوقعت فى قبضتهم جميع الموانئ وطرق القوافل بين أوربا والبلاد الهندية وغيرها من بلاد الشرق الأقصى عدا طريق القسطنطينية .

وكان تجار جنوة والبندقية ينقلون المتاجر من الاسكندرية وبيروت واسكندرونة الى ايطاليا حيث يوزعونها على أوربا .

احتكار تجارة الشرق :ــ احتكر المماليك تجارة الشرق فى عهد برسباى باعادة نفوذ مصر على ميناء جدة التى حلت محل عدن كمرسى لتجارة الشرق


الطرق التجارية
المارة بمصر وسوريا
في العصور الوسطى
بحر بنطش
البحر الأبيض المتوسط
القسطنطينية
البندقية
جنوه
طرابزون
ارضروم
تبريز
بغداد
العراق
البصره
حلب
اسكندرية
بيروت
دمشق
صور
الإسكندرية
القاهرة
مصر
السويس
القصير
مكه
عدن
هرمز
اصفهان
مشهد
مرو
بلخ
بخارى
سمرقند
من الصين
كابل
قندهار
السند
ديو
الهند
قاليقوت
موانى تفرغ فيها البضائع
مرور التجارة بمصر
(١) قوافل
(٢) فرع رشيد
(٣) ترعة قديمة
الرحمانية
دمياط
السويس
القاهرة

وكان لمرور التجارة الهندية بمصر أثر كبير فى ترويج تجارتها وزيادة ثروتها . فقد كانت تفرض ضريبة مقدارها ١٠ ٪ على السلع التى توزع داخل البلاد المصرية ، كما فرض سلاطين المماليك المكوس الجمركية الباهظة على تجارة الشرق المارة بمصر ، حتى كانوا يأخذون سدس قيمة السلع الواردة الى السويس ، وسدس قيمتها عند تصديرها من الاسكندرية .

وقد شجع صلاح الدين الأيوبى ومن جاء بعده من سلاطين الأيوبيين والمماليك على نشر التجارة ، فعقدوا معاهدات تجارية مع جمهوريات البندقية وبيزا وفيرونا وفلورنسا ، وأمنوا التجار من الأجانب على متاجرهم وأموالهم وأرواحهم ، وأباحوا لهم الاقامة فى الديار المصرية ، كما سمحوا لهم بأن يكون لهم قناصل فى الثغور المصرية للفصل في المنازعات التى تقوم بينهم . وكان هذا التسامح نواة الامتيازات الأجنبية فى مصر .

تحول طريق التجارة :— حقد البرتقاليون على المدن الايطالية زيادة ثروتها لاحتكارها تجارة الشرق وتحكمها فى الأسعار . فقاموا بعدة بعثات للوصول الى الهند عن طريق غرب إفريقية . فكشف بارثلميوديار البرتقالى رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦م ، ثم وصل فاسكو دى جاما Vasco de Gama الى قاليقوط على الساحل الغربى لبلاد الهند سنة ١٣٩٨ م . فتحولت التجارة مع أوربا إلى هذا الطريق ، وأثر ذلك فى حالة مصر تأثيراً كبيراً ، فذوت تجارتها ونضب معين الثروة فيها .

وقد حاول السلطان الغورى القضاء على نفوذ البرتقاليين ونزع السيادة البحرية منهم . إلا أن الأسطول المصرى قد هزم فى موقعة ديو سنة ١٥١٦ م ، ثم سقطت مصر فى يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م ، فتمكن البرتقاليون من تثبيت مركزهم فى الشرق ، ولم يعد لمصر ذلك المركز التجارى الهام .

الباب الخامس

نشأة الممالك الأوربية وتطور نظم الحكم فيها

الفصل الأول

انجلترا

منذ العصور الغابرة انتقل قوم من الجنس الكلتى من سكان مقاطعة برطانيا Brittany بشمال فرنسا الى الجزيرة المواجهة لهم ، واحتلوها وسموها بريطانيا باسم بلادهم الأصلية . وفى سنة ٥٥ ق. م. أغار يوليوس قيصر على تلك البلاد وضمها الى أملاك الامبراطورية الرومانية . فظلت تحت حكم الرومان حتى سنة ٤١٠م حيث اضطروا لسحب حاميتهم منها للدفاع عن رومة من غارات القبائل المتبربرة ، فأغار على بريطانيا قبائل جرمانية من السكسون Saxons والأنجليز Angles وغيرها ، وفتحوها تدريجياً وكونوا فى أول الأمر ولايات عدة مستقلا بعضها عن بعض ، ظلت في منازعات حتى تغلب ملوك وسكس (السكسون الغربيون) على جميع بلاد انجلترا .

وكان أعظم ملوكهم ألفرد الكبير Alfred the Great (٨٧١-٩٠١ م) الذى قاوم الدانمرقيين (وكانوا قد أغاروا على انجلترا قبل توليته ، وكادت تدخل كل هذه البلاد تحت حوزتهم) ، وأرغمهم على الانسحاب من جنوب انجلترا ، فلم يبق فى يدهم إلا النصف الشمالى الشرقى منها . وبعد موت الفرد استمر النزاع بين الدانمرقيين وملوك وسكس إلى أن تغلب عليهم الدانمرقيون سنة ١٠١٣ م وأصبحت انجلترا جزءاً من مملكة الدانمرقة ، وحكمها الملك كنوت Canute الذى اتخذ انجلترا مركزاً لامبراطوريته .

على أن الملك لم يستمر فى بيته بعد وفاته سنة ١٠٣٥ م لضعف ابنائه. فعـــاد ثانية إلى بيت ألفرد ، وارتقى العرش إدوارد المعترف Edward the Confessor (١٠٤٢ — ١٠٦٦ م)، وكان يمت بصلة القرابة إلى وليم حاكم Normandy (مقاطعة فى شمال فرنسا).

ولما مات ادوارد سنة ١٠٦٦ م دون أن يترك ولداً ، انتخب أشراف انجلترا هارولد Harold أحد أمراء السكسون ملكا عليهم . فادعى وليم دوق نورمنديا أنه الوارث لعرش انجلترا وأن الملك ادوارد المعترف كان قد وعده بذلك .

(١) الفتح النورمندى

رفع وليم النورمندى أمر هذا النزاع إلى البابا ، ووعده بأن يجعـــل الكنيسة الانجليزية تحت إشرافه إذا ساعده بنفوذه على فتح هذه البلاد . فأفتى البابا بأحقية وليم لعرش انجلترا ، فأعد هذا جيشا غزا به انجلترا وهزم هارولد فى معركة هيستنجس Hastings سنة ١٠٦٦ م وقتله . واتخذ وليم « الفاتح » انجلترا مقراً لمملكته .

وليم الفاتح ١٠٦٦ — ١٠٨٧ م

(أ) سياسته مع الاشراف : — اتبع وليم سياسة الشدة فى توطيد ملكه ونشر الأمن بين طبقات الشعب على اختلافها . وكان نظام الأقطاع سائداً فى انجلترا قبل الفتح النورمندى ، فنظمه وليم وأصلح عيوبه بما أدخله عليه من الأصلاحات . ولا غرو فقد أدرك وهو دوق مقاطعة نورمنديا الخاضعة للتاج الفرنسى ، ما جره نظام الأقطاع من إضعاف سلطة الملوك فى فرنسا .

لذلك وجه وليم همه الى تأسيس حكومة مركزية قوية يكون للتــــاج فيها سلطة كبيرة . فأبقى نظام الرديف الوطنى، ونظم محاكم الاقطاعات، وانتزع الأرض من يد الأشراف (اللوردات) واعتبر نفسه المالك الحقيقى لهـا . ووزعها على الأمراء (البارونات) من أنصاره النورمنديين ، وأعطى مايخص

كلا منهم من الأرض مبعثراً فى عدة مقاطعـات حتى لا يكون لهم من القوة ما يمكنهم من مناوأة الملك . إلا أنه استثنى من هذه القاعدة المقاطعات التى على حدود اسكتلندة وبلاد الغال لصد تعديات أهالى هذه البلاد .

وقد أبقى وليم لنفسـه إقطاعية كبيرة تفوق فى مساحتها أية إقطاعية أخرى . ثم مسح الأرض ، وعين مقدار الضريبة المفروضـة على كل جزء منها . كذلك سن وليم مبدأ التبعية المباشرة للتاج ، فعين مندوباً للملك Sheriff مهمته فرض الضرائب ورئاسـة جلسـات المحاكم وقيادة الجند . فـكان هذا المندوب واسـطة بين الملك وشعبه . وفى سـنة ١٠٨٦ م أقسم مستأجرو الأرض على اختـلاف طبقاتهم يمين الولاء للملك ، وأخذوا على عاتقهم القيام بمساعدته فى وقت الحرب ، حتى ولو كانت هذه المساعدة ضد السيد الاقطاعى نفسه .

(ب) سياسته مع الـكنيسة :ــ أدخل وليم تغييرات كثيرة على نظام الـكنيسة ، فقلد النورمنديين وغيرهم من الأجانب المناصب الدينية التى كان يشغلها الانجليز وحدهم ، وعين إيطاليا رئيساً للأساقفة . ولذلك وطد العلاقة بين كنيسة انجلترا وكنيسة رومة . وكان هذا الأمر طبيعياً ؛ فقد بارك البابا حملة وليم على انجلترا ، وتم الفتح النورمندى تحت رايته المقدسـة . على أن وليم لم يسمح للبابا بالتدخل فى شئون انجلترا ، كما لم يسمح للأساقفة بمراسلة البابا دون موافقته ، وأنشأ محاكم خاصـة تحت أشراف الأسـاقفة للنظر فى الشئون الدينية ، وجعل اليها محاكمة رجال الدين .

(٣) الملك جون والعهد الأعظم

استطاع خلفاء وليم الفاتح أن يحافظوا على نفوذهم وأملاكهم . فى عهد هنرى الثـانى (١١٥٤ — ١١٨٩ م) زاد نفوذ التاج البريطانى ، وامتد إلى كثير من مقاطعات فرنسا التى آل اليه بعضها عن طريق الوراثة والبعض الآخر عن طريق الزواج .

ولما مات هنرى الثانى خلفه ابنه رتشارد المشهور بقلب الأسد (١١٨٩م-١١٦٩ م) . ثم تولى بعده أخوه جون John (١١٨٩ - ١٢١٦ م) ، وكان سيء التصرف ميالا إلى الظلم والغدر ، فقد قتل آرثر ابن أخيه وأسخط رعيته . وزاد فى هذا السخط عجزه عن حماية أملاكه فى فرنسا ، فاستولى ملكها على نورمنديا سنة ١٢٠٤ ، ثم على « أنجو » ومين Maine سنة ١٢٠٦م.

وقد عمل جون على استرداد أملاكه فى فرنسا ، فانضم إلى أوتو الرابع (الجرمانى) Otto IV عدو فرنسا والبابوية معاً ، فأغضب بذلك البابا . وقد هزمه فيليب أغسطس ملك فرنسا فى موقعة بوفين Bouvine قرب مدينة ليل سنة ١٢١٤ م . فاستاء منه الأشراف وعامة الشعب وفكروا في إضرام نار الثورة ، وساعدهم على ذلك ما كان من الخلاف بين جون والبابا على تعيين رئيس أساقفة انجلترا ، ذلك الخلاف الذى أدى إلى اصدار البابا قراراً بحرمان المملكة الانجليزية كلها من رحمة الكنيسة وتحريضه ملك فرنسا على غزو انجلترا. فاضطر جون إلى الخضوع للبابا وقبل أن يحكم انجلترا كتابع له بعد أن أقسم له يمين الولاء .

العهد الأعظم Magna Carta :— كل هذا قد زاد في استياء الشعب الانجليزى الذى أحس بما فى التبعية للبابا من عار وذلة . وقد بلغ هذا الاستياء أشده سنة ١٢١٥م، فثار الأشراف ورجال الدين وأهل لندن وغيرهم وأرغموا الملك على منح العهد الأعظم . وهو بمثابة اتفاق بين الملك والأشراف يشتمل على ثلاث وستين مادة ، الغرض منها ضمان حقوق الأشراف والكنيسة بوجه خاص ، ثم عامة الشعب ضد سلطة الملك ، ووضع حد لتعدياته وسوء تصرفاته . ومن أهم موارده :

١ — لا تفرض ضرائب من غير موافقة المجلس الأعظم The Great Council (وهذا أهم شروط هذا العهد ، ويعتبر الخطوة الأولى لرقابة الأمة على موارد الدولة) .

٢ — تحديد الحقوق الالتزامية التى للملك على أمراء الألتزام .

٣ — لا يجوز حبس أى شخص بأمر الملك مباشرة ، بل يجب محاكمته بمجرد القبض عليه أمام محكمة مؤلفة من نظرائه . ويجب أن تُنظم الأدارة القضائية . فلا يحاكم شخص على جريمة واحدة أكثر من مرة ، كما يجب تحديد مقدار الغرامة عن كل نوع من أنواع الجرائم ، على أن تكون هذه المقادير متناسبة مع نوع الجريمة . ولا يجوز للملك أن يسند المناصب القضائية للأجانب ولا لمن يجهلون قانون انجلترا .

٤ — يتعهد الملك بأن تصبح الكنيسة الانجليزية حرة ، وأن لا يتدخل فى انتخاب أساقفتها .

٥ — تؤلف لجنة من عمدة لندن وخمسة وعشرين شخصاً من كبار الأشراف يوكل إليها مراقبة تنفيذ شروط هذا العهد وإرغام الملك على احترام نصوصه إذا حاد عنها .

وقد أمضى الملك جون هذا العهد فى ١٥ يونيه سنة ١٢١٥ م . ولكنه سرعان ما نقضه وأبى أن يرتبط به ؛ فأعلن الأشراف الحرب عليه ، واستعانوا بملك فرنسا ، ووقعت انجلترا بذلك فى أزمة لم تتخلص منها إلا بموت جون سنة ١٢١٦ م .

(٣) بدء الحكومة البرلمانية

تعد انجلترا أعرق الأمم في النظم النيابية . فقد ظهر مبدأ اشتراك الشعب مع الملك فى هذه البلاد قبل الفتح النورمندى . فكان الملوك يعقدون مجلساً من كبار الأشراف والأساقفة يسمى مجلس العقلاء Wisemen للاستئناس برأيهم فى الأمور الهامة . ولما ارتقى وليم الفاتح عرش انجلترا أبقى هذا المجلس على حاله وسماه المجلس الأعظم . وكان يؤلف من جميع أصحاب الأراضى ، ولم يكن يحضره فى الواقع سوى كبار الملاك من الأشراف ورجال الدين .

أما صغار الملاك فلم يهتموا بحضور هذا المجلس لما كان يكلفهم حضوره من النفقات ولعدم اهتمامهم بالأمور السياسية .

وقد زادت سلطة هذا المجلس بعد صدور « العهد الأعظم » الذى تنص إحدى مواده على أن موافقة المجلس على الضرائب شرط أساسى لفرضها .

ولما تولى هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) أقر العهد الأعظم عدا الشرط الخاص بتقييد سلطته فى فرض الضرائب ؛ ثم أسند المناصب العالية إلى بعض الأجانب . فقام الأشراف بزعامة سيمون دى منتفرت Simon de Montfort ، وأرغموه على دعوة المجلس للانعقاد فى اكسفورد سنة ١٢٥٨ م . فلما انعقد المجلس قرر أن يكون انعقاده ثلاث مرات فى السنة (وأصبح يسمى البرلمان) ، وأن يكون هذا الانعقاد صحيحاً إذا حضره اثنا عشر عضواً . كما قرر أيضاً اختيار خمسة عشر عضواً من الاشراف يؤلف منهم مجلس الملك يراقب أعماله ويكون واسطة بينه وبين البرلمان :

وأقسم الملك على أن يذعن لقرارات مجلس اكسفورد . ولكنه ما لبث أن حنث فى يمينه ، فقامت حرب أهلية هزم فيها الملك وأسر ، فأدار سيمون دى منتفورت شئون البلاد باسم الملك .

برلمان سنة ١٢٦٥ م .

عقد سيمون البرلمان ودعا اليه الأشراف والأساقفة ورؤساء الأديرة . ثم أراد أن يبرهن للملك على أن الامة كلها مجمعة على التمسك بقرارات اكسفورد ، فكلف حكام الأقاليم بأن يرسلوا إلى البرلمان فارسين عن كل مقاطعة وعضوين عن كل مدينة . فاشترك نواب الشعب فى البرلمان لأول مرة على قاعدة المساواة مع كبار الأشراف ورجال الدين . وكان الجميع يجلسون فى قاعة واحدة .

غير أن النظام البرلمانى لم يكن ثابت الدعائم فى انجلترا فى ذلك الوقت . فقد وقع النزاع بين سيمون وأنصاره من الأشراف ، وقامت الثورة فى بلاد الغال Wales . وانضم إدوارد (ولى العهد) إلى الثوار وحارب سيمون وهزمه وقتله . ومن ثم أصبح يلقب ولى عهد انجلترا أمير ويلز Prince of Wales .

وبقتل سيمون استرد الملك هنرى الثالث سلطته . والغى قرارات اكسفورد وخضع له الأشراف ، ولكنه وعد بالتقيد بالعهد الأعظم الذى أقسم اليمين على احترامه طائعاً مختاراً .

إدوارد الأول : ولما مات هنرى الثالث سنة ١٢٧٢ م خلفه إدوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) ؛ ويعتبر عهده من أهم العصور فى تاريخ انجلترا . فقد كان فى وسعه أن يقضى على سلطة البرلمان الذى عارض أباه وأن يمحو أثره . ولكنه رأى من الحكمة وسداد الرأى أن يستعين به و يتخذه وسيلة من وسائل الحكم . ففى سنة ١٢٩٥م جمع برلماناً على نسق برلمان سيمون (١٢٦٥م) بل يفوقه من حيث تمثيل الشعب تمثيلا يقرب إلى الكمال . وقد أصبح هذا النظام نموذجا للبرلمانات المقبلة .

وفى سنة ١٢٩٧ م أقر إدوارد كل الحقوق التى منحت للشعب ، ووعد من جديد بأن لا يجبى ضريبة أو يطلب منحة إلا بموافقة البرلمان ، فثبت بذلك مركز البرلمان ورسخت قدمه فى الاشراف على الحكومة .

إدوارد الثالث : ولما جاء إدوارد الثالث (١٣١٢ — ١٣٧٧ م) ساعدت الأحوال على نمو سلطة البرلمان . فقد شغل إدوارد بحروب المائة عام ، واضطر إلى عقد البرلمان لحاجته اليه للموافقة على الأموال اللازمة للانفاق على تلك الحروب . واجتمع البرلمان فى عهده على هيئة مجلسين : مجلس اللوردات House of Lords ويمثل البارونات ورجال الدين ، ثم مجلس العموم House of Commons ويضم نواب الشعب .

(٤) حرب الوردتين ونتائجها

١٤٥٥ - ١٤٨٥ م

فى سنة ١٤٥٥ م نشبت حروب أهلية فى انجلترا بين أسرتين كبيرتين هما لانكستر Lancaster ويورك York . وقد اتخذت أولاهما الوردة الحمراء شارة لها كما اتخذت الثانية الوردة البيضاء شعاراً لها . ومن ثم أطلق على هذه الحروب « حرب الوردتين » . وترجع أسباب هذه الحروب إلى ضعف الملك هنرى السادس (من أسرة لانكستر) على أثر انهزام جيوشه فى فرنسا . فقد فقدت انجلترا أملاكها فى جنوبي فرنسا سنة ١٤٥٣ م ، ولم يبق لها غير « كاليه » فى الشمال . أضف إلى ذلك أن هنرى السادس أصيب بخلل فى عقله ، وأصبح من الضرورى تعيين قيم عليه .

وكان رتشارد دوق يورك أحق الأمراء بالتاج بعد هنرى السادس ، فطالب بأن يعين قيما على الملك . ولما تم له ذلك طمع فى العرش ؛ ولم يمانع الملك هنرى نفسه فى أن يخلفه رتشارد بعد وفاته . غير أن الملكة مرغريت الفرنسية الأصل غضبت لحرمان ابنها الصغير (المولود سنة ١٤٥٣ م) من العرش ، فجمعت جيشاً فى شمال انجلترا وحاربت رتشارد وقتلته . فقام ابنه ادوارد دوق يورك وتمسك بحق أبيه ، وانتصر على أنصار أسرة لانكستر سنة ١٤٦١ م وأعلن نفسه ملكا باسم إدوارد الرابع ، وحكم البلاد من سنة ١٤٦١ الى ١٤٨٣ م . وقد قامت فى عهده ثورات تمكن من اخمادها والتخلص من مرغريت هى وكثير من أمراء بيت لانكستر .

ولما مات إدوارد الرابع خلفه ابنه الصغير باسم ادوارد الخامس . وكان تحت وصاية عمه دوق جلوستر Gloucester ، فطمع هذا فى العرش وأعلن نفسه ملكا باسم رتشارد الثالث ، فسخط الشعب عليه وثار بزعامة هنرى تيودر

« دوق رتشمند Richmond » ، وكان أكبر من بقى من أسرة لانكستر الذين ذهب معظمهم ضحية تلك الحروب الطاحنة .

وقد انتصر هنرى على رتشارد فى موقعة بوزورث Bosworth . وبذلك انتقل الملك إلى هنرى تيودر (السابع) مؤسس الأسرة التيودرية . وسميت تيودرية نسبة إلى جده « أون تيودر » Owen Tudor .

نتائج حرب الوردتين

كان من نتائج هذه الحروب زيادة سلطة الملوك فى انجلترا . فقد قتل بعض البارونات ، كما صودرت أملاك البعض الآخر . وبذلك لم يجد الملوك من يقف فى وجههم ، إذ كان البارونات هم القوة البرلمانية المعارضة لسلطتهم ، وكان لهم الفضل فى الحصول على العهد الأعظم . فكان من أثر ذلك أن حكم ملوك تيودر حكما مطلقا . فلم يتقيدوا بسلطة البرلمان ، ولم يعقدوه إلا نادراً . وساعدهم على ذلك أن الشعب الانجليزى قد سئم الفوضى وأدرك سوء نتائج الثورات وماتجره من تعطيل الأعمال وتخريب المدن، فمال إلى السكينة والهدوء وانصرف إلى تحسين أحواله المالية ، ولم يبد اهتماما بالأمور السياسية .

الفصل الثـــانى

فرنســـا

بدأ تاريخ فرنسا عقب تقسيم فردان سنة ٨٤٣ م . فقد كان الجزء الواقع غربى الرين والرون من نصيب شـارل الأصلع حفيد شرلمان ، وأطلق عليه « فرنسا » فيما بعد . وقد قسم الى اقطاعات عدة فى يد الأشراف الذين كان لهم حق إعلان الحرب وصك النقود وعقد المحاكم . ولم يكن للملك سـلطة فعلية اللهم إلا على إقطاعيته الخاصة .

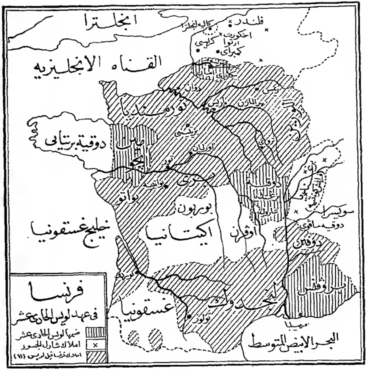
ويرجع تجديد قوة الملكية فى فرنسا إلى أواخر القرن العاشر حين أغار النورمنديون على مقـاطعة باريس ، فقد صدهم « أودو » كونت باريس سنة ٨٨٥ م ، فاشتهر أمره وولاه الأشراف ملكا عليهم بعد أن عزلوا آخر ملك من أحفاد شرلمان .

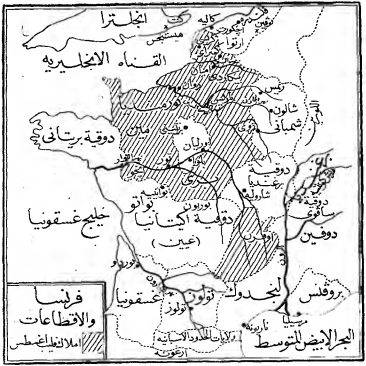
وفى سنة ٩٨٧ م انتخب هيو كابت Hugh Capet من أسرة أودو ملـكا على كل البلاد الواقعة بين نهرى السوم واللوار بما فى ذلك باريس وأورليان Orlean ، واعترف له أمراء الاقطاعات بشيء من الطاعة وقدموا له بعض الخدمات . ولم يكن للملوك جيش دائم ولا مالية ثابتة على حين كان كل أمير فى إقطاعيته أشبه بالملك . وقد أخذ ملوك أسرة كابت يكافحون نفوذ الأشراف بكل الوسائل ويعملون على جمع السلطة فى يدهم ، وظلوا على ذلك ثلاثة قرون إلى أن تم لهم الأمر . ومن أشهر الملوك الذين عملوا على تقوية نفوذ التاج الفرنسى فيليب الثاني (أغسطس) Philip Augustus

(١) أسباب نمو الملـكية فى عهد فيليب أغسطس

١١٨٠ - ١٢٢٣ م

من أهم العوامل التى مهدت السبيل الى توحيد فرنسـا وإنعاش الملكية انشغال دوقات نورمنديا بشئون مملـكتهم الجـديدة (انجلترا)


فرنسا
فى عهد لويس الحادى عشر
ضمها لويس الحادى عشر
املاك شارل الجسور
انجلترا
القناه الانجليزيه
فلندر
كمبراى
دوقية بريتانى
خليج غسقونيا
اكيتانيا
بوربون
اوفرن
غسقونيا
لنجدوك
بروفنس
سويسرا
دوقيه سافوى
دوفين
البحر الابيض المتوسط


فرنسا
والاقطاعات
املاك فليب اغسطس
انجلترا
القناه الانجليزيه
كاليه
هيستنجس
ارتوا
شالون
شمبانى
دوقية بريتانى
مين
اورليان
تور
برى
بواتو
بوربون
دوقية برغنديا
شاروليه
دوقية اكيتانيا
(غين)
دوقية
سافوى
دوفين
خليج غسقونيا
بوردو
غسقونيا
تولوز
لنجدوك
بروفنس
ناربونه
مرسيليا
ولايات الحدود الاسبانيه
ارغونه
البحر الابيض المتوسط

عهد فيليب أغسطس . فقد انتقل كثير من أشراف نورمنديا الى انجلترا واستوطنوا بها وامتزجوا بأهلها فقل اهتمامهم بشئون فرنسا .

وانتهز فيليب أغسطس فرصة ضعف جون ملك انجلترا وكره الانجليز له ، فطلبه للحضور أمام محكمته لمحاسبته على أعماله باعتباره تابعاً من أتباعه وفقاً لنظام الاقطاع . ولما رفض جون الحضور ، صادر فيليب املاكه الفرنسية واستولى عليها ، وهزم جون فى موقعة بوفين سنة ١٢١٤ م . وبذلك تخلص من أكبر المنافسين له من أمراء الاقطاع ، وأصبح يمتلك أكثر من نصف أرض فرنسا ، فاستطاع أن يناضل أشراف الاقطاعات الأخرى .

وساعدت الأحوال على إضعاف أمراء الاقطاعات فى فرنسا عن طريق غير مباشر ، وذلك بقيام الحروب الصليبية . فقد كان أمراء فرنسا أسبق الأمراء إلى إعداد الحملات الصليبية ، فخرجوا بفرسانهم وكثير من أتباعهم إلى الشام وفلسطين ، حيث مات بعضهم وفضّل البعض الآخر البقاء فى الشرق . وبذلك تخلص ملوك فرنسا من كثير من منافسيهم الأقوياء . كما أنهما كتسبوا رضا البابا بتشجيعهم الأشراف على القيام بالحروب الصليبية . ثم توثقت العلاقات بين الملوك والكنيسة على أثر قيام لويس السابع بحملة صليبية ، فساعد ذلك على تحالف البابا وفيليب أغسطس ضد جون ملك انجلترا .

ومما زاد فى نفوذ ملوك فرنسا أيضاً عطفهم على الطبقة الوسطى من العمال والتجار ، فكانت لهم عوناً على الأشراف . ونهج فيليب أغسطس نهج أسلافه ، فمنح كثيراً من المدن حريات واسعة وشجع النقابات التجارية والصناعية حتى قويت الطبقة الوسطى ، فعين منها الموظفين فأخلصوا له وساعدوه على تقوية نفوذه .

فلما تضاعفت أملاك التاج فى عهد فيليب أغسطس وزادت الثروة تبعاً لذلك ، كون جيشاً دائماً استغنى به عن الخدمات الاقطاعية . كما استطاع أن يصلح نظام الادارة ، فعين موظفين لادارة شئون اقطاعاته ، فقاموا بالأعمال القضائية والمالية والادارية باسم الملك . ولكى يضمن فيليب

أغسطس عدم خروج هؤلاء الموظفين عليه ، عين عليهم نائبا يشرف على أعمالهم وتسليم الضرائب إلى الملك مباشرة . وبهذه الوسائل قويت سلطة التاج الفرنسى إلى درجة كبيرة .

(٢) جان دارك وإجلاء الانجليز عن فرنسا

كان ملوك انجلترا يتحينون الفرصة لاسترداد ما فقدوه من أملاكهم فى فرنسا فى عهد الملك جون . فلما انقرضت أسرة كابت ، وحكم فرنسا فيليب السادس من أسرة فالوا Valois ، ادعى إدوارد الثالث ملك انجلترا أحقيته بعرش فرنسا ، لأنه ابن أخت فيليب الرابع ملك فرنسا . وأفتى المشرعون الفرنسيون بأن قانون الفرنجة القديم لا يبيح لذرية النساء ارتقاء العرش ، فوقعت بسبب ذلك بين فرنسا وانجلترا حروب طويلة عرفت « بحرب المائة عام » (١٣٣٨ - ١٤٣٥ م) .

وقد انتصر الانجليز في مواقع كثيرة أهمها موقعة كريسى Cresy سنة ١٣٤٦ م وموقعة بواتيية Poitiers سنة ١٣٥٦ م واستولوا على كاليه وبواتو Poitou واكيتانيا . على أن الفرنسيين ما لبثوا أن استردوا ما أخذه الانجليز حتى لم يبق لهم فى سنة ١٣٧٥ م الا « بوردو » فى الجنوب و « كاليه » فى الشمال .

وفي سنة ١٤١٤ م وقعت فرنسا فى اضطرابات داخلية على إثر إصابة ملكها شارل السادس بالجنون وتنافس الأمراء على السلطة . وكان من أقوى هؤلاء الأمراء أمير برغنديا ، فانتهز هنرى الخامس ملك انجلترا هذه الفرصة ، وتحالف مع أمير برغنديا . وأغار على شمال فرنسا ، وانتصر فى موقعة أجينكور Agincourt . فعقدت ملكة فرنسا معاهدة تروى Troyes سنة ١٤٢٠ م ، وبمقتضاها أصبح ملك انجلترا قيما على ملك فرنسا ، على أن يخلفه على العرش من بعده ، وأن يتزوج بالأميرة كاترين (ابنة ملك فرنسا) . ومات ملك انجلترا فى سنة ١٤٢٢م ولحق به ملك فرنسا . فأصبح هنرى السادس

ابن ملك انجلترا ملكا على فرنسا ـ وكان طفلا ـ فقام بالوصاية عليه عمه دوق بدفورد . ولم يكن شارل السابع ولى عهد فرنسا (Dauphin) من قوة العزيمة والشجاعة بحيث يستطيع مناوأة الانجليز ويعلن نفسه ملكا .

وقد تمكن الانجليز من نشر نفوذهم فى شمالى فرنسا حتى نهر اللوار ، وتقدموا نحو الجنوب وحاصروا أورليان ، مفتاح المقاطعات الجنوبية .

ظهور جان دارك Jean D'Arc : — وفى الوقت الذى فقد فيه الفرنسيون كل أمل فى الانتصار ظهرت فتاة ريفية من اللورين فى شرق فرنسا ، تسمى جان دارك ، وزعمت انها سمعت أصوات القديسين تناديها بالانضمام إلى الجيش وارتداء ثياب الجند ومحاربة الانجليز ، وأنه سيتم على يدها رفع الحصار عن أورليان ، وتتويج شارل « الدوفن ولى عهد فرنسا » ملكا فى كنيسة ريمس (شمال فرنسا حيث كان يتوج ملوكها عادة) .


جان دارك

فبادرت جان دارك الى مقابلة شارل وفتحت أمامه باب الأمل ، ثم انضمت إلى الجيش . فكان انضمامها أكبر مشجع للفرنسيين على القتال ، فهزموا الانجليز وأجلوهم عن أورليان . ثم توالت بعد ذلك هزائم الانجليز حتى ظنوا أن جان دارك ساحرة أثر فيهم سحرها .

وقد توجت جان دارك شارل السابع فى ريمس . وعزمت على العودة إلى قريتها ، لولا أن الملك ألح عليها بالبقاء فى الجيش حتى يتم طرد الانجليز من جميع

البلاد . وبينما هى تقاتل فى الشمال ، وقعت أسيرة فى يد فرقة برغندية ، ولم يخلصها القوادالفرنسيون إذكانوا يحسدونها ويضمرون لها الكراهية والبغضاء. وسلمها البرغنديون الى حلفائهم الانجليز، فحاكموها أمام مجلس من رجال الدين بتهمة الألحاد والسحر، وحكم عليها بالأعدام حرقاً ، فأحرقت فى روان سنة ١٤٣١ م . وكان موتها أبلغ من حياتها ، فقد اعتبرها الشعب الفرنسى رمز التضحية والبطولة . وقد ظلت الروح التى بعثتها فى الجند قوية ، فثاروا على قتال الانجليز حتى طردوهم من فرنسا ، لا سيما وقد زادوا قوة بانضمام فيليب الطيب دوق برغنديا اليهم فى أواخر سنى الحرب . وتم جلاء الانجليز عن فرنسا سنة ١٤٥٣ م ، ولم يبق بيدهم سوى « كاليه » .

(٣) لويس الحادى عشر ١٤٦١ — ١٤٨٣ م

وجه لويس الحادى عشر كل اهتمامه إلى تقوية التاج وتوحيد فرنسا ، وذلك باضعاف نفوذ الأمراء بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة . فكان مبدأه « أن من لا يعرف الدهاء لا يصلح للحكم » . ولذلك بنى سياسته على الغدر والدسائس وتدبير المكائد للوصول إلى أغراضه .

بدأ لويس بتقوية جيشه وضم اليه عدداً كبيراً من الجنود المرتزقة من إيطاليين وسويسريين واسكتلنديين ، كما قرب اليه الطبقة الوسطى لتكون عوناً له على مقاومة الأمراء .

وقد قسم ملوك فرنسا قبل لويس الحادى عشر الأقطاعات التابعة للتاج بين الامراء من البيت المالك ، اعتقاداً منهم أنهم يكونون أكثر إخلاصاً لهم . إلا أنهم كانوا أشدخطراً على سلطة التاج من أشراف الاقطاعات الأخرى. فقد اعتبروا أنفسهم أنداداً للملك ، وعملوا على الحصول على امتيازات واسعة تضمن لهم استقلالهم ، وكونوا حلفاً عرف « بحلف الصالح العام » .

وكان من أكبر أعداء لويس وأعظمهم نفوذاً شارل دوق برغنديا

(زوج أخت لويس) وشارل دوق برى Berry (أخى لويس) ودوق أورليان (زوج بنت لويس) وغيرهم من الأقارب والأصهار . فحاربهم لويس مراراً فلم يفلح ، فعمد إلى سياسة التفريق . فكان يتفق مع كل واحد على انفراد حتى نجح فى حل تحالفهم ، ثم استولى على كثير من إقطاعاتهم

شارل الجسور : — ولم يبق أمام لويس من الأمراء الأقوياء سوى شارل الجسور دوق برغنديا وأمير المقاطعات الكثيرة التى تكونت منها بلجيكا وهولندة فيما بعد ، وجزء من حوض نهر السوم . وكان شارل الجسور يعمل على توحيد أملاكه ، كما كان يعمل على التخلص من سيادة التاج الفرنسى ولا سيما فى مقاطعة برغنديا ، فوضع يده على الألزاس واللورين .

فعمل لويس الحادى عشر على إخفاق سياسة شارل ، لا بحد السيف بل بالدسائس والمال ، فحرض السويسريين الذين كانوا يتطلعون إلى امتلاك بلاد الألزاس على محاربة شارل ، وساعدهم بالمال ، كما حرض أهل الألزاس واللورين على الثورة . وكان من إثر ذلك أن انتصر السويسريون على شارل وقتلوه سنة ١٤٧٧ م وهو على حصار مدينة نانسى .

ولم يكن لشارل وارث غير ابنته مارى ، فسعى لويس فى زواجها بالأمير مكسمليان النمساوى . فضم لويس الى أملاكه دوقية برغنديا (غربى نهر الساءون) ومقاطعة أرتوا سنة ١٤٨٢ م .

ومات لويس سنة ١٤٨٣ م بعد أن وحد كل مقاطعات فرنسا تقريباً ، ولم يبق منها غير مقاطعة برطانية المستقلة ، فضمها ابنه شارل الثامن سنة ١٤٨٨ م . وبذلك أصبحت فرنسا دولة قوية متحدة ، وعملت على توسيع أملاكها خارج بلادها ، ومن هنا بدأ تاريخها الحديث .

الفصـــل الثالث

اسـبانيا

(١) أثر الفتح العربى

لم يكن المسلمون كالقوط والوندال ينشرون الخراب أينما حلوا ؛ فان بلاد الأندلس لم تشهد قط أعدل من حكمهم وأصلح منه . فقد أنشأ العرب فى قرطبة حكومة كانت مثال النظام والعدل فى عصر تخبط فيه الأوربيون في ظلمات الجهل والفوضى .

وكان فتح العرب لبلاد الأندلس مبدأ عصر جديد لتلك البلاد . فقد رفعوا عن أهلها ما كانوا يئنون منـــه من ظـلم القوط . فنشروا الأمن وساووا بين الناس فى الضرائب ، ونشروا العلوم والآداب ، وأقاموا مدنية زاهرة ظل نورها يشع ثمانية قرون فى أرجاء تلك البلاد .

وقد ترك المسلمون للأهلين حريتهم الدينية . فتمتع المسيحيون واليهود بقسط كبير من التسامح . ورحب اليهود بنوع خاص بحكم المسلمين لانقاذهم اياهم مما نزل بهم من الاضطهاد . وقد سمح العرب لهم بحرية الملكية والتجارة التى حرمهم منها القوط ، فنشطت هذه الطبقة . وكان لنشاطها أثر كبير فى تقدم التجارة والزراعة ، كما نبغ كثير منهم فى الآداب والعلوم وبخاصة علم الطب .

وقد ساعد الفتح العربى على تحسين حالة رقيق الأرض والعبيد ، وكانوا السواد الأعظم من الأهلين . فقد تخلص الرقيق من سيادة الأشراف الذين قتل بعضهم فى الحروب وفر البعض الآخر الى الأقاليم الجبلية . فآلت أرض المقتولين والفارين إلى العرب بحكم الفتح ، فحرروا العبيد وتركوا الأرض لمن عليها من الزارع لانشغالهم بالفتوح ، وفرضو عليهم الخراج ، فتحسنت حالة الفلاحين . أما من بقى فى البـلاد من الأشراف فلم يسمح

العرب لهم بحرمان طبقة الرقيق من حقوقهم المدنية والسياسية . و بذلك تمتعت هذه الطبقة بحقوق لم تكن لها من قبل بعد أن كانت فى أسوأ حالات الذل والفاقة . فلا عجب إذا رحب عامة الشعب فى بلاد الأندلس بالحكم الاسلامى واعتنق كثير منهم الاسلام .

(٢) عصر فردينند وايزابلا

لما فتح طارق وموسى بلاد الأندلس لجأ أمراء القوط وكثير من رجال الكنيسة الى الجهات الجبلية فى الجزء الشمالى الغربى من هذه البلاد (أقاليم ليون وجليقية والجبال الشمالية استوريش Asturias) . وقد انصرف العرب عن فتح هذه الجهات لوعورتها وعدم أهميتها ؛ الا أنها ظلت شوكة في جنب الدولة الاسلامية في بلاد الأندلس . فقد وحد أهل هذه الأقاليم كلمتهم واقاموا عليهم زعماء من بينهم وبدءوا يهاجمون المسلمين من حين إلى آخر . ولم تكن هجمات هؤلاء بذات الخطر حين كانت الدولة الاسلامية فى بلاد الأندلس قوية متماسكة . ولم يظهر خطرهم إلا فى عهد ملوك الطوائف حين انفرط عقد الدولة وأصبحت ممالك منفصلة .

وقد استقل مسيحيو الشمال وكونوا إمارات كثيرة أهمها Leon وقشتالة Castile وارجون Aragon والبرتقال Portugal .

وظلت هذه الدويلات أربعة قرون تهاجم الدولة الاسلامية فى بلاد الأندلس كلما سنحت لها الفرص، وتنقصها من أطرافها حتى قضوا عليها نهائياً سنة ١٤٩٢ م . ولم يؤخر سقوط الدولة الاسلامية ببلاد الأندلس إلى ذلك الوقت — رغم ما كانت عليه من الضعف وما كان بين أمرائها من الانقسام — إلا استعانتها بالمرابطين ثم بالموحدين من شمال إفريقية . أضف إلى ذلك عدم اتحاد الامارات المسيحية وانقسامها على نفسها .

وقد زادت قوة الامارات المسيحية فى القرن الحادى عشر ، فكون

البرتقاليون مملكة مستقلة فى الجزء الغربى من بلاد الأندلس سنة ١٠٩٥م . كما تقوت قشتالة بانضمام ليون اليها سنة ١٠٤٠م . وبذلك استطاع ملكها الفونس السادس Alfonso VI أن يستولى على طليطلة سنة ١٠٨٤ م . ثم اشتد ضغط الامارات المسيحية على المسلمين منذ أوائل القرن الثانى عشر على إثر قيام الحروب الصليبية فى الشرق ، وتشجيع البابا المسيحيين على محاربة المسلمين أنىّ وجدوهم . فأنشأ المسيحيون فى أسبانيا فرقا من الرهبان المحاربين تشبه فرق الرهبان فى الشام ، وابتدأت كل إمارة من الامارات المسيحية توسع أملاكها على حساب العرب . فاستولت أرجون على قطالونيا سنة ١١٤٠ م وضمت الى أملاكها جزيرتى صقلية وسردانيا . ثم توغل ملوك قشتالة فى قلب الدولة الاسلامية فى الأندلس ، وما زالوا يحاربون المسلمين حتى سقطت قرطبة فى يدهم سنة ١٢٣٦ م ، وانكمش المسلمون فى إمارة غرناطة . وكان لزواج فرديننذ (ولى عهد مملكة أرجون) بايزابلا (ابنة ملك قشتالة) سنة ١٤٦٩ م أثر كبير فى توحيد كلمة الاسبان . فلما آل اليهما ملك هاتين المملكتين اتحدت هاتان المملكتان وصارتا مملكة واحدة سنة ١٤٧٤ م .

(٣) إجلاء المسلمين عن الاندلس

عزم فرديننذ وايزابلا على طرد المسلمين من إمارة غرناطة، فدارت رحى الحروب بين العرب والأسبان عشر سنوات (١٤٨٢ - ١٤٩٢ م) كان النصر فيها حليف الأسبان ، وذلك لانقسام أمراء غرناطة على أنفسهم . واضطر أبو عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر إلى تسليم هذه الأمارة سنة ١٤٩٢م بعد أن حاصرها الأسبان سبعة أشهر ، وعقد مع الاسبان شروط التسليم ، فتعهد فرديننذ وايزابلا بأن يؤمنا المسلمين على أنفسهم وأموالهم ودينهم ، كما تعهدا بابقاء المساجد والأوقاف . ورحل ابو عبد الله الى افريقية . وبذلك انتهى حكم المسلمين فى بلاد الأندلس .

محاكم التفتيش :— على أن الاسبان مالبثوا أن نكثوا العهد، فاضطهدوا المسلمين وأرغموهم على ترك دينهم، ومن امتنع منهم قتل وأحرق. وتألفت في اسبانيا محاكم عرفت بمحاكم التفتيش Inquisition ، سامت المسلمين واليهود سوء العذاب. فغادر الكثير منهم البلاد، فخسرت أمهر صناعها وأرقى الطبقات المتعلمة فيها ، مما أخر تقدم اسبانيا أجيالا عديدة. وبلغ من تعصب الأسبان أن عملوا على محو آثار العرب، فأحرقوا من الكتب والمصاحف ما لايحصى . فساد الجهل فى تلك البلاد بعد أن كانت منارا يهتدى به الأوربيون، حتى إن مدريد عاصمة أسبانيا الجديدة لم يكن لها مكتبة عامة فى القرن الثامن عشر الميلادى، بعد أن كانت مكتبة قرطبة فى عهد العرب من أكبر مكتبات العالم.

كشف أمريكا :— وتعتبر سنة ١٤٩٢ م بدء تاريخ اسبانيا الحديثة، وهى السنة التى كشف فيها خرستوف كولمبس Christopher Columbus طريق أمريكا بفضل تشجيع فرديند وايزبلا . ففتحت أمام اسبانيا كنوز الثروة وميادين التجارة وصارت سيدة البحار، حتى نازعتها انجلترا هذه السيادة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وحطمت أسطولها الكبير (الأرمادا) سنة ١٥٨٨ م .

الباب السادس

الأتراك العثمانيون

(١) نشأتهم وقيام دولتهم

أصل الأتراك العثمانيين من قبيلة « أُغُوز » وكانت تقيم فى الجهات الشمالية من بلاد الصين . ورحلوا عن موطنهم الأصلى إلى جهات التركستان وظلوا بها إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، حيث فروا من وجه « المُغُول » الذين أغاروا بقيادة جنكيز خان على أواسط وغرب آسيا . وواصل الأتراك سيرهم حتى وصلوا الى نهر الفرات حيث غرق زعيمهم سليمان ، فاستمروا فى سيرهم بزعامة ابنه « أرطغرل » حتى وصلوا إلى بلاد آسيا الصغرى .

وفى أثناء سيرهم فى تلك البلاد وجدوا بالقرب من أنقرة ، جيشين يقتتلان ، فانتصروا للجيش الضعيف (وكان من الأتراك السلاجقة) على الجيش القوى (وكان من المغول) . وقد تم النصر للسلاجقة بفضل هذه المساعدة ، فمنحهم علاء الدين سلطان السلاجقة أرضاً جهة اسكى شهر (سلطانونى) على حدود الدولة البيزنطية بالقرب من بروسة مكافأة لأرطغرل على شهامته ومروءته . فكانت هذه الأرض النواة التى نمت منها الدولة العثمانية .

ولما توفى أرطُغْرُل سنة ١٢٩٨ م تولى الزعامة ابنه عثمان ، فحارب البيزنطيين من قبل علاء الدين واستولى على القلاع المجاورة لمدينة بروسة ، فرقاه علاء الدين إلى مرتبة الأمراء . وفى سنة ١٣٠٠ م أغار المغول ثانية على دولة السلاجقة وقتل علاء الدين وتجزأت دولته إلى عشر امارات ، واستقل عثمان بامارته كما استقلت باقى الامارات . وإليه ينتسب الأتراك العثمانيون . ولما كانت إمارة عثمان تقع فى الطرف الشمالى

الغربى من آسيا الصغرى أصبحت تجاور أراضى الدولة البيزنطية . فكان من الطبيعى أن تقوم الحروب بينهم وبين البيزنطيين .

حالة الدولة البيزنطية : — لقد بينا قبل كيف اقتطع العرب من الدولة البيزنطية كثيراً من أملاكها (الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقية وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط) وكيف استولى السلاجقة على معظم بلاد آسيا الصغرى مما أدى إلى ضعف هذه الدولة ونضوب معين ثروتها حتى عجزت عن أن تصد عن بلادها غارات المجر والتتار والأتراك العثمانيين وكذا هجمات القبائل الصقلبية (الصرب والبلغار) التى كونت دويلات لها فى شمال شبه جزيرة البلقان على حساب الدولة البيزنطية .

أضف الى ذلك انتشار الفتن الداخلية بسبب التنازع على العرش مما حمل الكثيرين على المهاجرة عن البلاد ، فتطرق الخراب إليها وتأخرت التجارة والصناعة والزراعة . هذا إلى قيام المنازعات الدينية وانقسام البيزنطيين مذاهب . فقد رأى بعضهم التقرب إلى البابا والاعتراف بسيادته وتوحيد الكنيستين الشرقية (الارثوذكسية) فى القسطنطينية والغربية (الكاثوليكية) فى رومة ، لكى يكسبوا بذلك رضاء البابا ويضمنوا مساعدة مسيحى الغرب لهم ضد أعدائهم من الأتراك العثمانيين وغيرهم . فعمل الأباطرة على تحقيق هذه السياسة محافظة على دولتهم وعزلوا من خالفهم من البطارقة . على أن الفريق الآخر تمسك باستقلال كنيسة القسطنطينية . وكان من أثر تغلب الفريق الأول وضم كنيسة القسطنطينية إلى كنيسة رومة سنة ١٤٣٩ م أن ثار الرأى العام فى القسطنطينية وضعفت حماسته حتى صرح بعضهم بأن عمامة السلطان العثمانى فى القسطنطينية خير من تاج البابا فى رومة .

ومما زاد حالة الدولة البيزنطية سوءاً انتشار ذلك الوباء العظيم الذى يعرف «بالموت الأسود» والذى انتشر فى أوربا زهاء قرن (وبدأ سنة ١٣٤٧ م) وأفنى نحو نصف سكانها . وقد اشتد خطر هذا الوباء فى بلاد الدولة البيزنطية

لعدم اهتمام حكومتها باتخاذ التدابير الصحية لمقاومته واستئصال خطره بسبب اشتغالها بالفتن السياسية والدينية . ولم تعد البلاد بحيث تستطيع أن تجمع ما يكفى من الجند للدفاع عن أملاك الدولة .

وقد انتشر الفساد بين البيزنطين فى ذلك الوقت ، كما امتاز عهدهم بالرشوة والدسائس والخيانة والغدر . حتى غدا قتل الأخ لأخيه والابن أباه من الجرائم التى لطخت تاريخ قصر أباطرة البيزنطيين . وكانت هذه الأحوال السيئة فرصة سانحة اتخذها الأتراك العثمانيون لازالة الدولة البيزنطية وتكوين دولتهم على أنقاضها .

(٢) استيلاء العثمانيين على أملاك الدولة الرومانية الشرقية

أخذ عثمان يغير على حدود تلك الدولة واستطاع أن يفتح مدينة بروسة سنة ١٣١٧ م واتخذها عاصمة لدولته الناشئة .

أرخان :— ولما مات عثمان سنة ١٣٢٦ م خلفه ابنه أرخان ، لحذا حذو أبيه واستولى على نيقوميديا ثم على مدينة نيقية وغيرهما من أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى ، فلم يبق للبيزنطيين بها إلا القليل من المدن الساحلية . كما فتح العثمانيون شبه جزيرة غاليبولى ، فكانت أول أرض أوربية استولوا عليها .

وقد عنى أرخان بتنظيم حكومته . ويرجع إلى أخيه الأكبر علاء الدين ـ الذى اتخذه وزيراً له ـ الفضل فى سن قانون لادارة البلاد ، وأنشائه داراً لضرب النقود . هذا إلى تكوين جيش نظامى يسمى ينى جرى (الانكشارية) Janissaries (ومعناها العسكر الجديد) وتقسيمه إلى وحدات لكل منها سجل خاص بها ، وتعيين مرتبات للجنود ، وسنه نظاماً خاصاً للكسوة العسكرية والملابس الرسمية لرجال الدولة . وكان الأتراك العثمانيون من أسبق الأمم إلى استخدام المدافع .

ويرجع الفضل فى توطيد دولة العثمانيين الناشئة إلى فرقة الانكشارية لما كان يسودها من حسن النظام والدربة العسكرية والحماس والغيرة . وكانت تتكون هذه الفرقة من أسرى المسيحيين الشبان ، وكانوا يربون تربية حربية . وقد ترك الأتراك لهم فى بادىء الأمر الحرية الدينية ، ولم يلبثوا أن أدخلوا تعديلا على نظام هذه الفرقة ، فكانوا يجمعون الغلمان من جميع بلاد الدولة من المسيحيين والمسلمين واليهود على السواء ، ثم يبعدونهم عن كل ما يذكرهم بمهدهم ونشأتهم الأولى ، ويربونهم تربية وطنية فيشبون على الوطنية العثمانية والدين الاسلامى والاخلاص للسلطان .

مراد الأول :— تولى العرش بعد أبيه أرخان سنة ١٣٦٠م ، فسار على نهج أبيه وجده فى التوسع فى الفتح فى بلاد الدولة البيزنطية (فى أوربا). ولكى يتفرغ إلى تحقيق هذا الغرض بدأ بتقوية دولته فى آسيا الصغرى، فاستولى على أنقره كما ضم الى أملاكه أربعاً من الامارات العشر التى قامت على انقاض دولة السلاجقة .

وبعد أن أمن مراد الفتن والقلاقل وجه همه شطر أوربا ففتح « فلبه » ومعظم بلاد « الروم ايلى » ثم استولى على أدرنه سنة ١٣٦٣م وكانت أهم المدن البيزنطية بعد القسطنطينية واتخذها مقرا لدولته . وبذلك نشأت فى شرق أوربا دولة اسلامية هى دولة الأتراك العثمانيين ، كما كان فى غربها دولة اسلامية أخرى فى بلاد الأندلس .

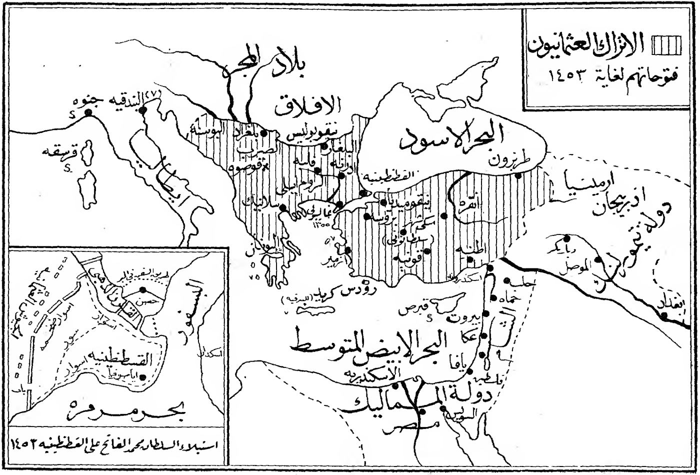
وبسقوط أدرنة أحاط العثمانيون ببلاد الدولة البيزنطية من كل جهاتها وهددوا البقية الباقية من أملاكها ، كما جعلوها بمعزل عن دول أوربا المسيحية ، على حين أن أصبحوا وجها لوجه مع دول الصقالبة من الصرب والبلغار والمجر . فتجمعت جيوش الصقالبة لدرء هذا الخطر الاسلامى؛ غيرأن شجاعة مراد قد تغلبت عليها . فانتصر فى موقعة قوصوة سنة ١٣٨٩م وقتل

ملك الصرب . فخضعت بلاد الصرب والبلغار إلى العثمانيين وفرض مراد عليها الجزية .

وبعد هذه الموقعة تقدم أحد الجنود الصقلبية وطعن مراد طعنة قاتلة .

بايزيد الأول ١٣٨٩ - ١٤٠٢ م :— كان يلقب (يَلدِرِم) أى الصاعقة لسرعة حركته وشجاعته فى القتال . وقد أكثر بايزيد من الصبيان الذين كان يربيهم في القصر منذ حداثة سنهم ، ثم أصبحوا ينتخبون للمناصب العسكرية والادارية الكبيرة . واتسعت رقعة الدولة فى عهده ، ففتح سلانيك وشبه جزيرة المورة . وفي أيامه تنبه الأوربيون إلى خطر الأتراك ، فاجتمع المسيحيون من المجر والصقالبة بقيادة سجسمند (ملك المجر) Sigismund للقيام بحرب دينية ضد الأتراك ، فانتصر بايزيد عليهم انتصاراً تاماً عند نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ م ، واستولى على البقية الباقية من بلاد صربيا وبلغاريا ورومانيا . كما بدأ يغزو مملكة المجر ، وشرع فى حصار القسطنطينية لولا ظهور التتار بزعامة تيمورلنك واغارتهم على غرب آسيا ووصولهم إلى آسيا الصغرى ، فاضطر بايزيد إلى ملاقاة تيمورلنك عند أنقرة سنة ١٤٠٢ م ، فكان النصر حليف التتار ، وأسر بايزيد ووضع فى قفص من حديد ، فمات كمداً وغماً بعد أن بقى فى الأسر ثمانية أشهر .

وكان لهذه الهزيمة أثر سيء فى حالة الدولة العثمانية . فقد استقل أمراء السلاجقة بأماراتهم في آسيا الصغرى ، كما استقلت الصرب وبلغاريا ، وشغل أبناء بايزيد بالتنازع على الملك . وظلت الحال على ذلك إلى أن تغلب السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١ م) ، فقضى مدة حكمه فى العمل على توحيد الدولة وأعادتها إلى ما كانت عليه من القوة والسلطان .



الاتراك العثمانيون
فتوحاتهم لغاية ١٤٥٣
بلاد المجر
الافلاق
البحر الاسود
طرابزون
ارمينيا
اذربيجان
دولة تيمورلنك
البندقيه
جنوه
قرسقه
ايطاليا
البوسنه
بلغراد
نيقوبوليس
الصرب
البلغار
قوصوه
ادرنه
فارنه
القسطنطينيه
الروم ايلي
سالونيك
اليونان
غاليبولي
ازمير
بروسه
نيقوميديا
انقره
قونيه
اطنه
ديار بكر
الموصل
بغداد
حلب
حماه
رودس
كريد
قبرص
بيروت
عكا
يافا
البحر الابيض المتوسط
الاسكندريه
دولة المماليك
مصر
السويس
البسفور
القسطنطينيه
اياصوفيا
اسوار
حصن
بحر مرمره
استيلاء السلطان محمد الفاتح على القسطنطينيه ١٤٥٣

مراد الثـانى ١٤٢١ — ١٤٥١ م : — وفى مبدأ حكمه حرض عمانوئيل أمبراطور الدولة البيزنطية الأمير مصطفى أحد أبناء بايزيد على المطالبة بعرش أبيه ، فقام مصطفى فى وجه مراد واستولى على بعض الولايات العثمانية فى شبه جزيرة البلقان ، غير أن مراد انتصر عليه وقتله . ثم عزم على الانتقام من البيزنطيين فحاصر مدينة القسطنطينية مدة . على أن قيام الفتن والاضطرابات فى آسيا الصغرى بسبب خروج أحد إخوته عليه اضطره الى رفع الحصار للتفرغ لقتال أخيه وإخماد الفتن .

وقد اتفقت كلمة البلغاريين والصرب وأهل بلاد البوسنة وألبانيا والأفلاق (رومانيا) على قتال العثمانيين ، وانضم اليهم المجر ، فجمعوا جيشاً كثيفاً بقيادة قائد مجرى يدعى هونيادى Hunyady ، واجتازوا جبال البلقان سنة ١٤٤٢ م وهزموا الأتراك عند مدينة بلغراد وقتلوا منهم عشرين ألفا وأسروا قائدهم .

وقامت فى أوربا حركة دينية شبيهة بالدعوة إلى الحروب الصليبية ، واستنجد الصقالبة والمجريون (وكانوا يعتنقون المذهب الكاثوليكى) بالبابا ، فلبى دعوتهم ودعا ملوك أوربا لحمل السلاح ومحاربة المسلمين فى شخص العثمانيين . وبذلك استطاع هونيادى سنة ١٤٤٣ م أن يقود جيشا آخر من صفوة جنود المجر والصرب والافلاق ، وانضم اليهم جماعات الصليبيين من إيطاليا . فزحف على بلاد البلقان وتوغل فيها ، فتقهقر الأتراك أمامه وطلب بايزيد الصلح ، فتم ذلك بمعاهدة زجدن Szegedin سنة ١٤٤٤م . وبمقتضاها استردت بلاد الصرب استقلالها ، وانضمت الأفلاق الى بلاد المجر ، وعقدت هدنة أمدها عشر سنوات . واقسم المسيحيون على الانجيل والعثمانيون على القرآن على أن لا يعاود أحد الفريقين الحرب ضد الفريق الآخر خلال هذه المدة .

وبعد أن أمن مراد شر أعدائه ، أراد أن يقضى بقية حياته فى راحة

وهدوء فنزل عن العرش لابنه محمد الثانى . ولا غرو فقد كان مراد فيلسوفا غير ميال الى أبهة الملك . غير أن صغر سن محمد الثانى قد أطمع الأعداء في الدولة العثمانية ، فلم يلبثوا ان نقضوا الصلح الذى اقسموا الأيمان على احترامه ولم يمض عليه أكثر من شهر ، وأغاروا على بلاد الدولة بقيادة هونيادى يصحبهم ملك المجر والكاردينال جوليان مندوب البابا. وأحلو الهزيمة بالحاميات التركية وأوقعوا الفزع فى قلوب الأهلين حتى جرى اسم هونيادى على ألسنة الأمهات التركيات لتخويف أطفالهن .

وتوغل هونيادى فى بلاد البلقان على رأس جيش يبلغ عدده عشرين ألفا حتى وصل الى مدينة وارنة Varna الواقعة على البحر الأسود .

عند ذلك لم ير مراد بدأ من العودة الى الحكم . وسرعان ما جند جيشاً يربو عدده على أربعين ألفا . وفاجأ هونيادى ومن معه وهزمهم شر هزيمة ، فلقى المجريون جزاء غدرهم ونقضهم العهود والمواثيق .

وكان من أثر هذا الانتصار الذى احرزه مراد أن استرد الأتراك بلاد الصرب كما ضموا بلاد البوسنة . ومات مراد سنة ١٤٥١ م بعد أن ثبت مركز دولته فى أوربا ، فخلفه ابنه محمد الثانى .

السلطان محمد الفاتح ١٤٥١ - ١٤٨١م : — وجّه محمد الثانى همّه لفتح القسطنطينية التى عجز آباؤه عن فتحها ، فأخذ يعد العدة لذلك ويصنع المدافع الكبيرة . وكانت القسطنطينية مدينة حصينة يحميها بحر مرمرة من ناحية الجنوب وميناء القرن الذهبى من الشمال ؛ وقد أقام البيزنطيون عليه الحصون الضخمة والأبراج ، كما حالوا دون دخول سفن الأتراك بسلاسل قوية مدوها عند مدخله . أما الناحية الغربية من المدينة (ناحية البر) فكان يحيط بها أسوار منيعة مزدوجة على امتدادها خندق يبلغ عمقه مائة قدم .

وبدأ الأتراك يحاصرون المدينة من ناحية الغرب فى ٦ ابريل سنة ١٤٥٣م بجيش كبير يبلغ عدده مائتين وخمسين ألف مقاتل تحت قيادة السلطان

محمد الثاني نفسه ، يساعده أسطول كبير فى البوسفور لمنع وصول المؤن والأمداد الى البيزنطيين .

فلما رأى امبراطور القسطنطينية قسطنطين باليولوغس Constantine Palaeologus استعدادات الاتراك استنجد بالبابا و بملوك أوربا . فكان لاستنجاده بالبابا أثر سيء فى نفوس فريق كبير من الشعب البيزنطى الذى لم يرض عن توحيد الكنيستين فى القسطنطينية وفى رومة ، والذى لم يقبل سيادة البابا كما تقدم . على أنه لم يأت لمساعدة البيزنطيين من الأوربيين سوى البنادقة الذين كانت لهم متاجر على ساحل القسطنطينية وعدد قليل من المتطوعين من الأمم الأخرى . وكان معظم ملوك أوربا مشغولين وقتئذ بالمشاكل الداخلية فى بلادهم .

واشتبكت سفن البنادقة مع الأسطول العثمانى ، فاضطر هذا الى التقهقر . ودخل أسطول البنادقة ومُدت السلاسل فى وجه الأسطول العثمانى . ففكر محمد الثانى فى حيلة لم يسبق إليها أحد ، وذلك بأن مهد طريقاً برياً بين البوسفور والقرن الذهبى وضع عليه عوارض ضخمة من الخشب تتدحرج عليها اسطوانات (بكر) طويلة من الخشب أيضاً . وفى المساء سير السلطان سبعين سفينة من الأسطول ، فجرت تلك السفن تدفعها الرياح حتى بلغت القرن الذهبى فأنزلت فيه . وقد هال البيزنطيين ذلك إذ أصبحت قوات العثمانيين تحيط بهم براً وبحراً من ناحيتى الغرب والشمال .

واستمر الحصار ثلاثة وخمسين يوماً ظلت فيها مدافع السلطان الكبيرة تقذف أسوار المدينة بالأحجار الضخمة وقد دافع البيزنطيون بقيادة امبراطورهم ببسالة نادرة حتى نفدت ذخائرهم وتهدمت نواح كثيرة من الأسوار . وفى يوم ٢٨ مايو سنة ١٤٥٣ اقتحم العثمانيون الأسوار ووقع الامبراطور قسطنطين قتيلا . وسقطت القسطنطينية التى عجز الفرس والعرب عن فتحها .

وهكذا كان لمحمد الفاتح فخر الاستيلاء على أكبر مدن العالم المسيحى فى ذلك الحين، وأصبحت هذه المدينة قاعدة الدولة العثمانية وسميت « إسلامبول » ومعناها « تخت الاسلام » أو « مدينة الاسلام » .

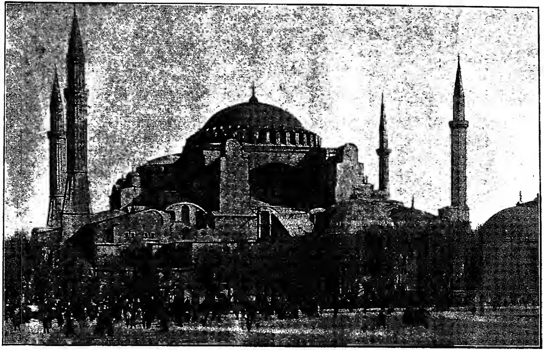
ودخل محمد الفاتح كنيسة القديسة صوفيا الشهيرة وصلى بها صلاة الشكر لله وأمر باقامة الأذان والخطبة فيها، فتحولت بذلك إلى مسجد جامع للمسلمين .

وكان محمد الفاتح سياسياً ماهراً . وقد اشتهر بالتسامح الدينى فترك للمسيحيين الحرية الدينية ، وأوجد نظام الملل ، فجعل لكل ملة رؤساؤها الدينيون ومنحهم حق النظر فى شئون أهل ملتهم . فصار لبطريرق القسطنطينية ولرؤساء الدين من المسيحيين سلطة لم يتمتعوا بمثلها فى عهد الدولة البيزنطية .

(٣) نتائج فتح القسطنطينية

كان لسقوط القسطنطينية فى يد محمد الفاتح أثر كبير فى تاريخ العثمانيين . ولا غرو فقد كان استيلاؤهم عليها معيناً كبيراً لهم . فقد أصبحت هذه المدينة دار التهذيب ومعهد الثقافة ، وبذلك أصبح للأتراك سلطان أدبى ومكانة علمية لما اكتسبوه من العلم والتهذيب والفلسفة والفن وما أخذوه عن المدنية الاغريقية .

كذلك كانت القسطنطينية مرفأ حراً وسوقا عامرة بالتجارة، ومركزاً مالياً عالمياً ، ومعيناً فياضاً بالذهب ، ومحطاً لتبادل السلع ، وذلك لوقوعها عند ملتقى بحرين وتوسطها بين قارتين . كما تقع فى مكان سهل التواصل مع ممتلكات الدولة فى آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان . وبذلك استطاع الأتراك أن يتوسعوا فى فتوحهم ، فاستولى محمد الفاتح على بلاد الهرسك وألبانيا وبعض بلاد اليونان ، ويمم شطر إيطاليا وكاد يستولى عليها لولا أن



كنيسه القديسة صوفيا

وافته منيته سنة ١٤٨١ م بعد أن استولى على مدينة أوترنتو . وقد استطاع خلفاؤه أن يتوسعوا فى الفتح شرقاً ، فوقعت فى أيديهم الشام ومصر وبلاد العرب وغيرها ، كما توغلوا فى قلب أوربا حتى وصلوا إلى أبواب فينا . وقد أثارت انتصارات الأتراك سخط أهل أوربا حتى إنهم أخذوا يضعون نصب أعينهم مسألة إخراج الأتراك العثمانيين من أوربا ، فنشأت منذ ذلك الحين ما يسمى « بالمسألة الشرقية » .

وكان من أثر استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية أن نافس الأتراك البنادقة سيادة البحر الأبيض المتوسط ، فوقع فى أيديهم كثير من جزر الأرخبيل والبحر الأبيض . غير أن ذلك التنافس قد أضعف البنادقة ، فقوى نفوذ البرتقاليين الذين استولوا على تجارة الهند . وبذلك تحولت التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح مما أضعف مركز مصر التجارى وأثر فى ثروتها تأثيراً كبيراً .

وكانت القسطنطينية فى أوائل القرن الخامس عشر حافلة بالعلماء من الاغريق . فلما حاصرها الأتراك أخذ الكثيرون منهم يهجرونها ويرحلون إلى غرب أوربا . ولما تم سقوطها على يد محمد الفاتح هجرتها البقية الباقية منهم، ونقلوا معهم كثيراً من الكتب النفيسة إلى إيطاليا حيث عهد اليهم بالتدريس فى جامعاتها ومدارسها . وكان من أثر ذلك أن انتشرت العلوم والآداب والفنون الاغريقية فى جميع أنحاء أوروبا ، وقامت بها نهضة علمية عرفت بحركة إحياء العلوم Revival of Learning . كان لها أثر عظيم فى مدنية أوربا الحديثة . ولهذا يعتبر بعض المؤرخين حادثة سقوط القسطنطينية نهاية العصور الوسطى فى أوربا وبدء العصر الحديث .